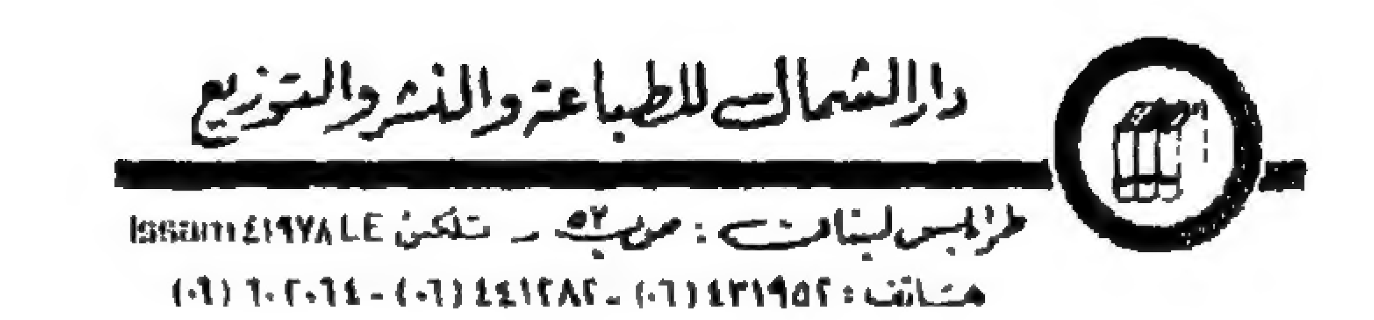
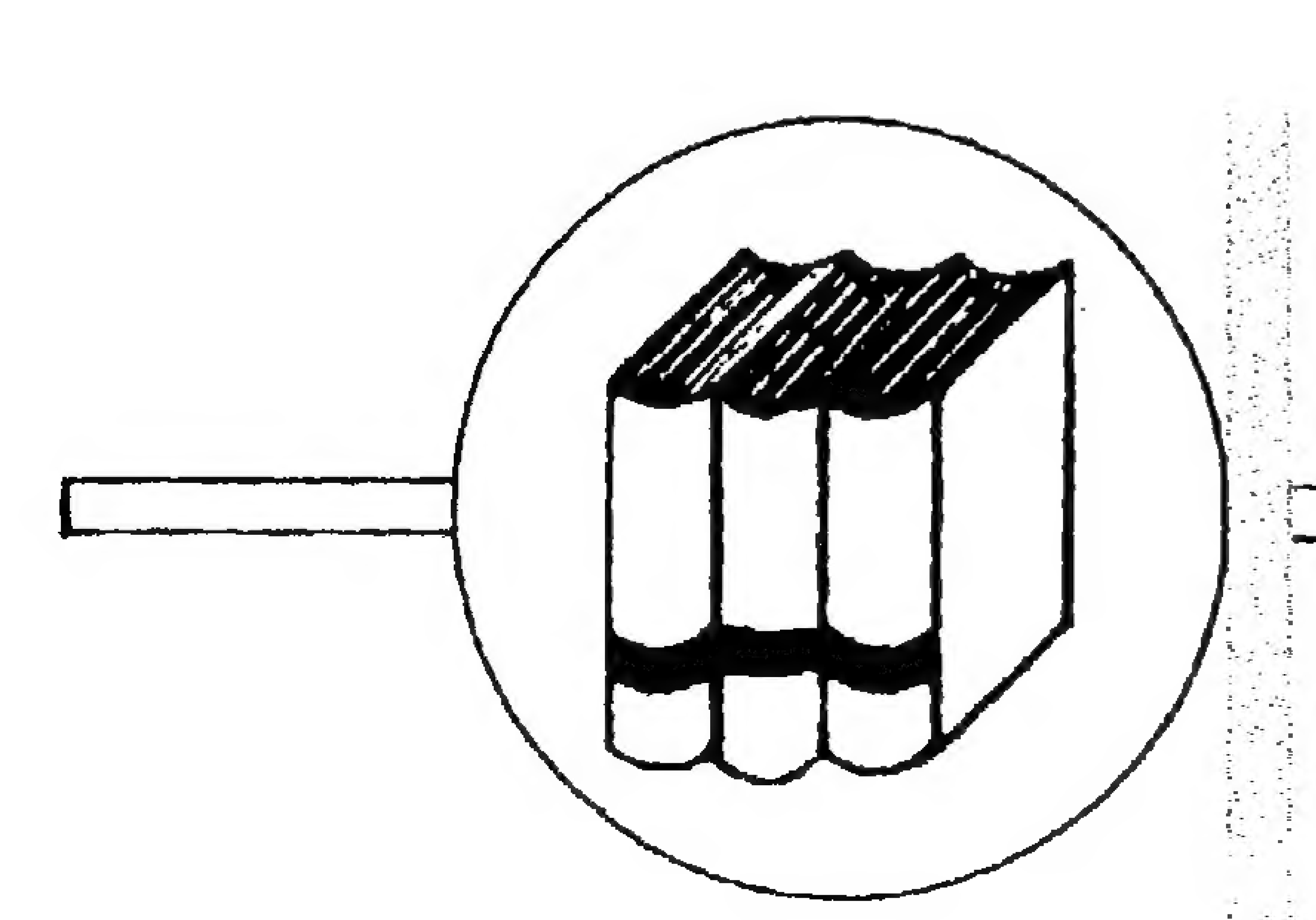
المساجد التاريخية الكبرى

إعداد

دكتور يوسف فرحات



المساجد التاريخية الكبرى



دار الشمال

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس لبنان

ص.ب ٥٧ - هاتف: ٠٦/٤٣١٩٥٢ - ٠٦/٦٠٢٠٦٤

تلكس ٤١٩٧٨ LE Issam

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

١٩٩٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَاةَ وَآتَى ٱلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ
فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ❀

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

١٨ التوبة

مقدّمة

يتناول هذا الكتاب المساجد المشهورة في عالم الإسلام وخصائصها المعمارية. وإذا كان دخول المسجد هو في الأساس من أجل الصلاة والتعبّد فإنّ دخولنا مساجد العالم، في هذا الكتاب، هو من أجل التعرّف إلى المراحل الفنيّة المتنوعة التي مرّ بها الفنّ المعماري الاسلامي، وتبيان معالم الجمال في كل منها، فالإحساس بملامح الجمال فيه تسبيح وتكبير.

كان المسجد وما يزال الإشارة المادية الأولى إلى وجود جماعة المسلمين، فحيث المسجد يكون تلاقي المؤمنين بالإسلام، إليه يلوذون في أوقات الشدّة وفي أرجائه يعيشون حرارة الإيمان. إنّه ركيزة الجماعة التي بواسطتها يترابط الأفراد بعضهم ببعض.

والمساجد الأولى كانت أبنية قليلة الارتفاع، بسيطة، واضحة المعالم، بعيدة عن التعقيدات المعارية، وذلك انسجامًا مع وضوح الدين وابتعاده عن الغموض. وقد حرص النبي ﷺ على أنْ يكون المسجد عاديًا في بنائه، فالمسجد الأوّل الذي بُني على عهد الرسول ﷺ كان من اللبْن، وسقفه من الجريد، وأعمدته من خشب النخل، كما خلا من الزخارف والزيادات التي عرفتها المساجد فيما بعد. وقد بدأ التطور في عهد عبد الملك بن مروان الذي تأثر بكنائس النصارى، ولا سيما كنيسة النصارى في القدس وقبّتها الشاهقة، فعمل على مضاهاة تلك الكنيسة ببناء قبّة الصخرة المشهورة.

وبما أنَّ الإسلام ذو طابع روحي إنساني يقوم على الإيمان بوحدانيّة الله جَلّ جلاله، فإنّ المسجد الذي هو في الأساس بيت الصلاة يُعتبر في الوقت نفسه بيت الجماعة وملكهم. فقد جُعل مركزًا للتعليم، بدءًا بالقراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وانتهاءً بتفاصيل

علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب. ومعنى هذا أن المسجد كان المدرسة والجامعة معًا. وقد شهدت المساجد في العصور السابقة حلقات العلم المتنوعة في الأروقة والزوايا، وكل حلقة تهتم بحقل من حقول المعرفة.

ويذكر المؤرخون أن الخلفاء والقضاة كانوا يخصصون أيامًا معيّنة للجلوس في ناحية أو باب من المسجد للنظر في أحوال الناس، فيفصلون بين المتخاصمين وينصفون المظلومين ويعاقبون المعتدين، على ضوء ما تقدّمه الشريعة من أحكام وقوانين. كما كان المسجد، وما يزال في بعض المجتمعات، ملتقى أهل الرأي وأصحاب القرار في القضايا الاجتماعية والسياسية والحربية. وكثيرة هي أخبار الرواة حول إعلان حرب أو إقرار صلح في اجتماع داخل المسجد الجامع. وينبغي ألا ننسى أخيرًا أنّ المسجد كان، ويبقى، ملجأ الغرباء الوافدين والفقراء المعوزين الذين كانوا يقصدون المسجد قبل أي مكان آخر، وفيه كانوا يجدون من يؤمّن لهم الكسوة والطعام والراحة.

ويتكون المسجد أساسًا من أقسام نتوقف عند المهم منها:

١ ـ الصحن، الصحن لغةً هو ساحة الدار، وهو للمسجد رحبته، وهو القسم غير المسقوف من المسجد، ويعتبر امتدادًا لبيت الصلاة يستوعب المصلّين الذين يزدحم بهم بيت الصلاة، لا سيما في أيام الجمع. والصحن قديم العهد في المساجد، إذ اهتم أصحاب المساجد الأولى بعزل المصلين عن الجلبة الخارجية التي قد تصرف الناس عن التفرّغ للعبادة والإصغاء إلى ما يتلى من كلام الله أو عظة الخطيب، فلم يكن في أي مسجد من المساجد الأولى نوافذ أو شرفات. ثم إن النبي ﷺ جعل لمسجده في المدينة المنوّرة ظلّتين: ظلّة القبلة (الجنوب) وظلة الشام (الشمال)، وجعل بين هاتين الظلتين رحبة تفصل بينهما. وهذه الرحبة هي التي تحولت في المسجد الى ما يعرف باسم «الصحن».

وإذا كانت الظلّة يراد بها وقاية المصلّين من حرارة الشمس أو برودة الجو أو نزول المطر، فإنَّ لصحن المسجد مقابل ذلك غاية مهمة، إذ منه يدخل النور إلى بيت الصلاة الذي لا نوافذ له. وفيما بعد أصبح الصحن المكان المفضل لإقامة أحواض الوضوء والمرافق الصحية، وهذه الأحواض تكون في وسط الصحن أو في إحدى زواياه.

وبقاء الصحن مكشوفًا حمل المسؤولين، في بعض الأماكن، على غرس الأشجار في

أنحائه، وذلك اتقاء لحرارة الشمس. وتُحدثنا المصادر التاريخية عن بعض المساجد التي اشتهرت بأسماء الأشجار التي زُرعت في صحونها كمسجد الياسمين في طبرية بفلسطين. ولم يقتصر غرس الأشجار على نوع دون آخر وإنما انصب الاهتمام على النخيل والنارنج أكثر من سواهما.

وأقيمت في بعض الصحون قباب فوق أحواض الوضوء. وقبل أن تدخل الوسائل العصرية لجر المياه كان في كل مسجد حوض واسع ومن فوقه قبّة ترفع على أعمدة، وتنقش على أطراف القباب، أحيانًا، أبيات من الشعر التأريخي تتضمن أسماء الذين بنوا الأحواض وتاريخ البناء. وقد عمد بعض الحكام الى بناء القباب في صحون المساجد لجعلها مستودعًا للمدّخرات الثمينة والوثائق الرسمية، كما اتخذ بعضهم القباب خزائن لحفظ المخطوطات النادرة.

كما استعمل صحن الجامع قاعة مكشوفة لإلقاء الدروس، وما يزال صحن الجامع الأزهر بمصر مكانًا لتحصيل العلم. كما تقام في بعض أنحاء الصحن حلقات الفكر ومجالس الأدب الراقي.

٢ - بيت الصلاة: هو القسم المسقوف من المسجد ويقع ناحية القبلة، وقد وجد بيت الصلاة مع مسجد الرسول ﷺ في المدينة. وفي بيت الصلاة القبلة والمحراب والمنبر والمقاصير، كما قد تعلو سقفه القباب. ويقوم بيت الصلاة عادة على أعمدة ترتكز عليها العقود وفوقها السقف. وبواسطة صفوف الأعمدة ينقسم بيت الصلاة إلى أروقة رأسية تبدأ من المدخل الرئيسي وتنتهي بجدار القبلة، واخرى عرضية موازية لجدار القبلة. أمّا المساحة المحصورة بين أربعة أعمدة فتسمى بلاطة. وعادة يكون الرواق الأوسط المؤدي إلى المحراب أوسع من سائر الأروقة.

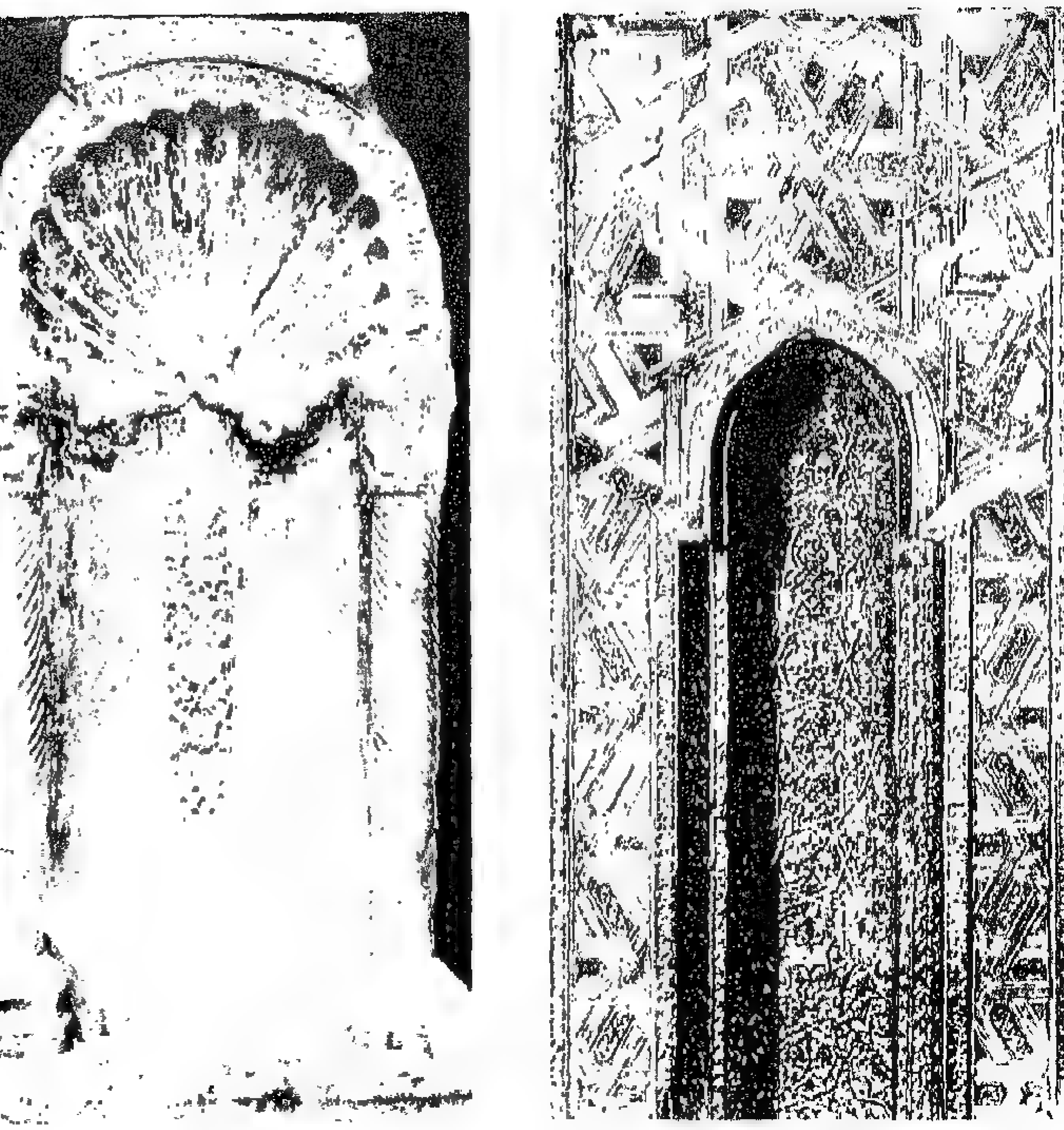
٣ - المحراب: المحراب من أهم اقسام المسجد، وهو الحنية المجوفة في جدار المسجد لجهة القبلة. والقبلة هي الجهة أو الوجهة، وهي في المسجد محرابه أو جداره المتجه نحو مكة المكرّمة، والمسلمون ملزمون بالتوجّه إليها في صلاتهم. والإسلام هو الوحيد بين الأديان الذي فرض على أتباعه الاتجاه الى مكان معيّن، وهذا المكان هو الكعبة المعظمة في مكة المكرّمة. وليس ضروريًا أن يكون المحراب حنيّة، وانما يكفي تعيين موضعه في جدار

صدر المسجد، وفي بعض المساجد الأولى وُضعت علامة تشير إلى المكان الذي يقف فيه الإمام.

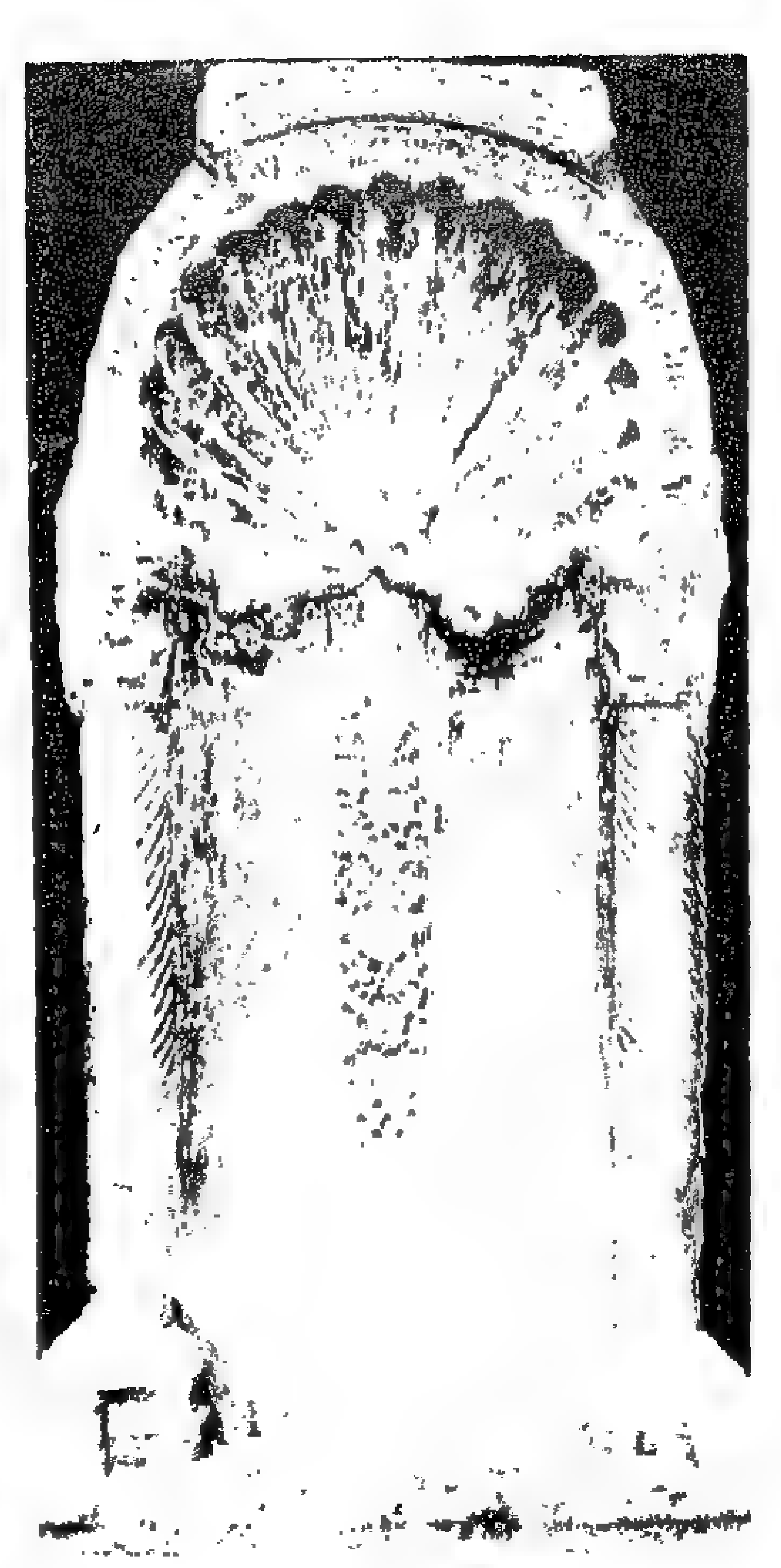
واضطربت الآراء فيما يتصل بأول محراب جُعل بالمسجد في الاسلام، والمرجّح أنّ أول من أدخل المحراب في المسجد هو عمر بن عبد العزيز، وذلك في أثناء ولايته على المدينة المنورة في أيام الوليد بن عبد الملك. كما يذهب بعضهم إلى أن عقبة بن نافع هو أول من أقام المحراب في مسجد القيروان، وبقي هذا المحراب موضع إجلال الناس. ونشير إلى أن نماذج المحاريب الأولى تشبه في شكلها المحارة المقلوبة.

وكانت بعض المحاريب تصنع من الخشب وتُنقل من مكان إلى آخر. وفي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة عدد من المحاريب الخشبية، منها محراب الجامع الأزهر الذي يرجع تاريخه إلى سنة ٥١٩هـ(١١٢٥م)، ومحراب السيدة نفيسة (٥٣٥هـ/١١٤٤م) ومحراب السيدة رقيّة (٥٥٥هـ/١١٦٠م). أما المحاريب الثابتة المصنوعة بالجص أو الحجر العادي أو الرخام فقد كانت معروفة منذ العصور الإسلامية الاولى.

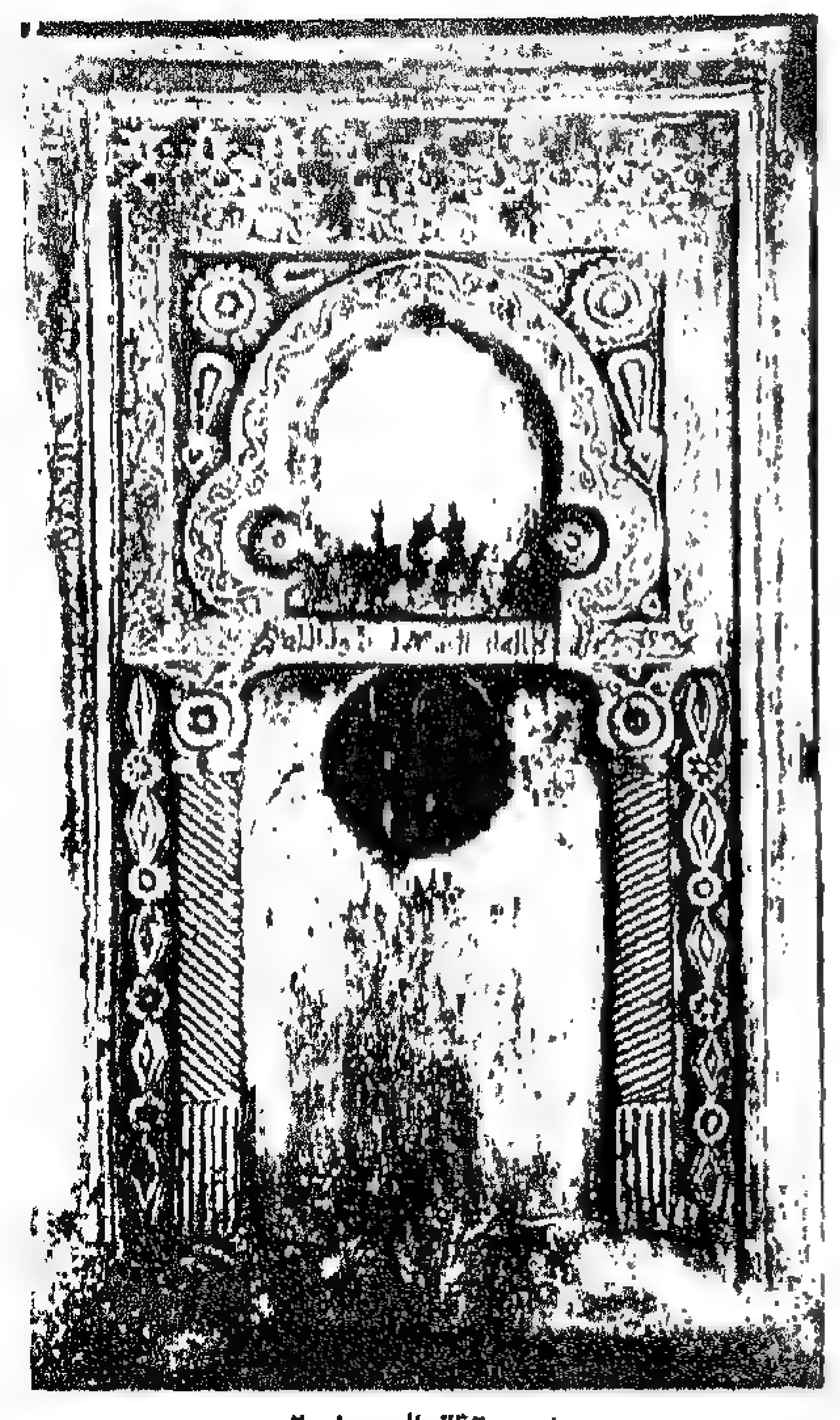
وأمّا الغرض من المحراب في المسجد هو مساعدة المصلين على معرفة جهة القبلة. لذلك فان بعض المحاريب تكون عبارة عن إشارة في جدار القبلة يقف بإزائها إمام المصلين الذين يقفون وراءه عند إقامة الصلاة، وتكون الإشارة أحيانًا بلاطة مسطحة. على أن قيام عمر بن العزيز بتجويف محراب المسجد النبوي في المدينة حمل الذين جاءوا بعده على الاقتداء به.



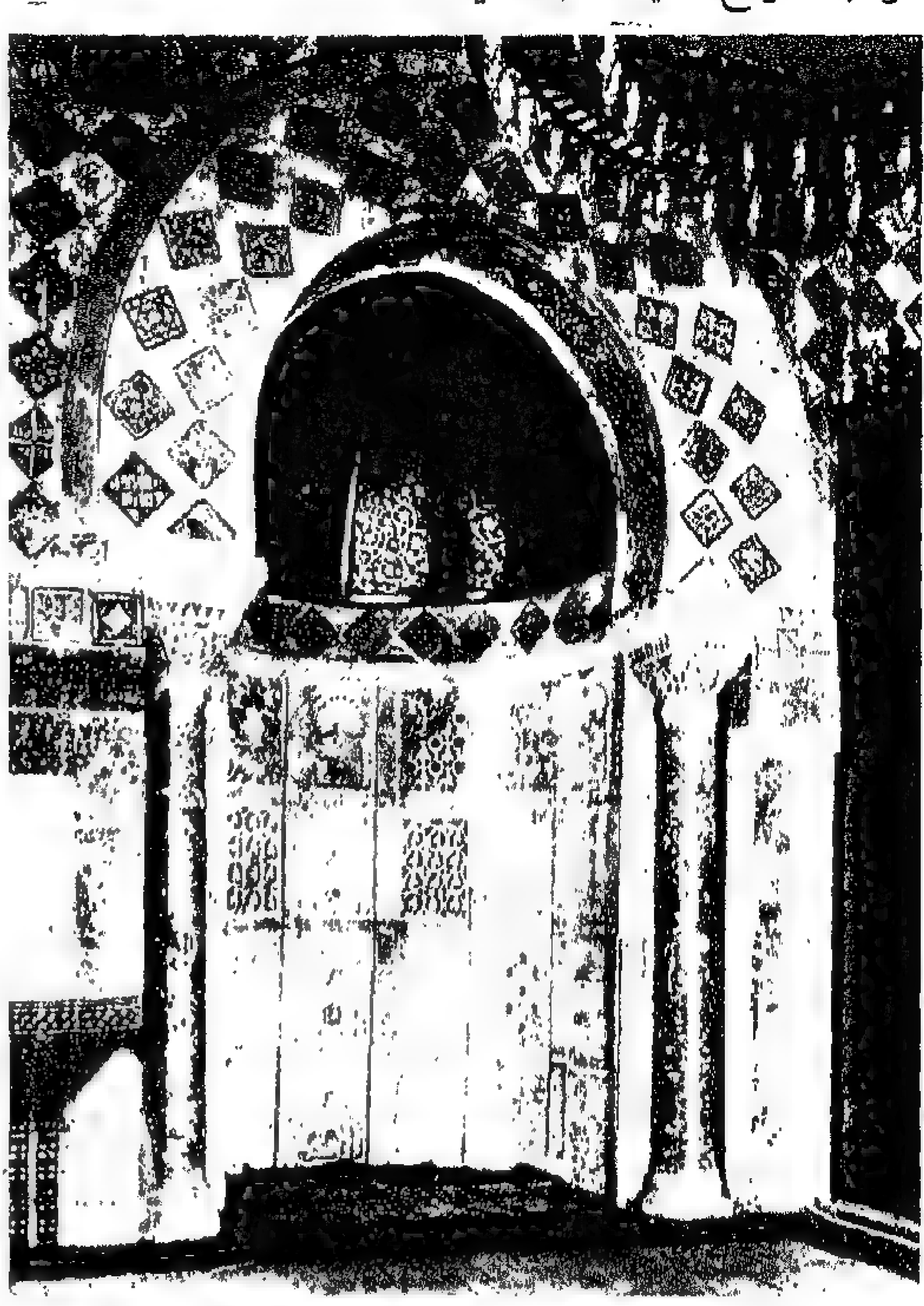
محراب ضريح السيدة نفيسة في القاهرة.



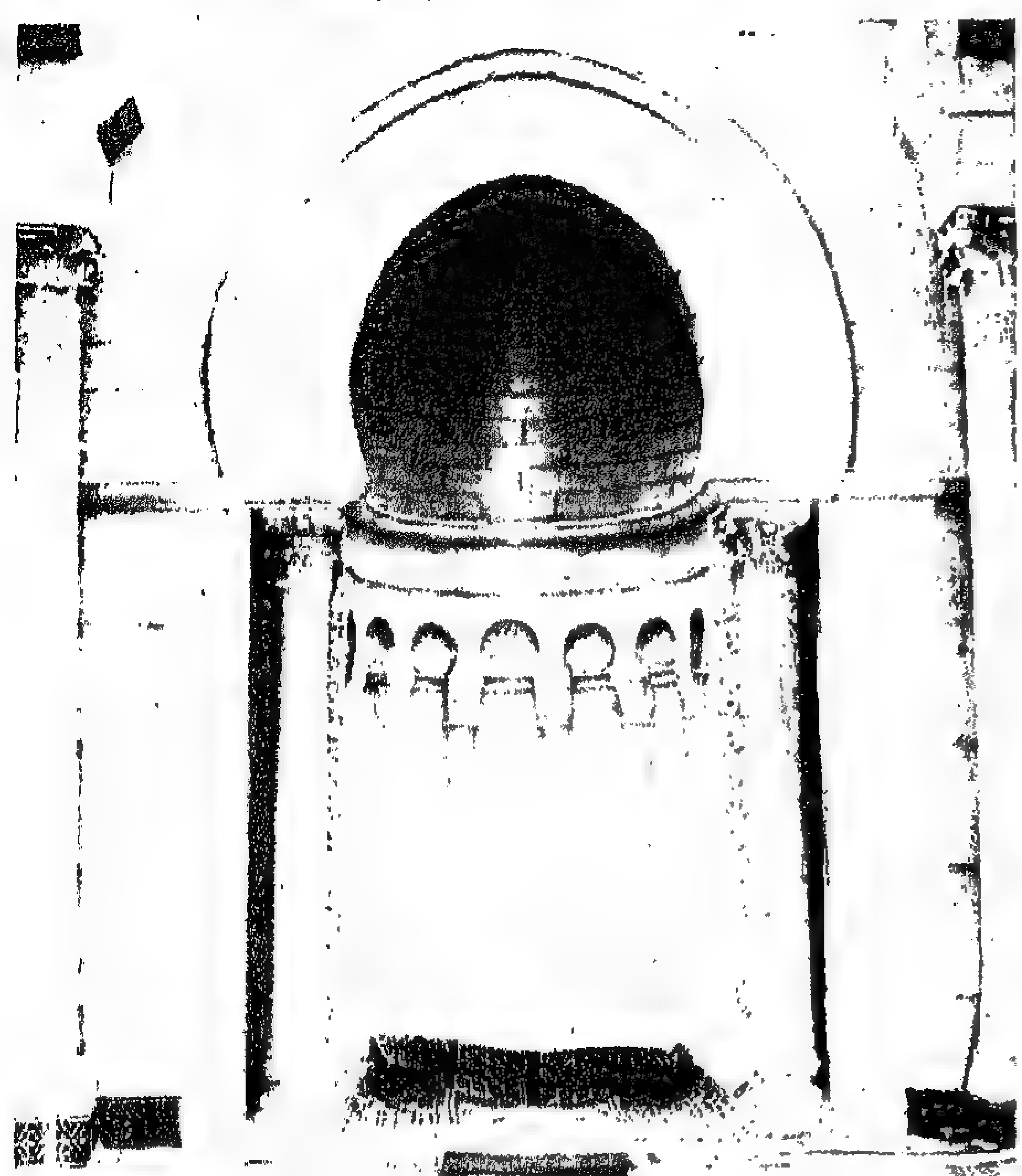
محراب مسجد المنصور في بغداد من القرن الثامن للميلاد.



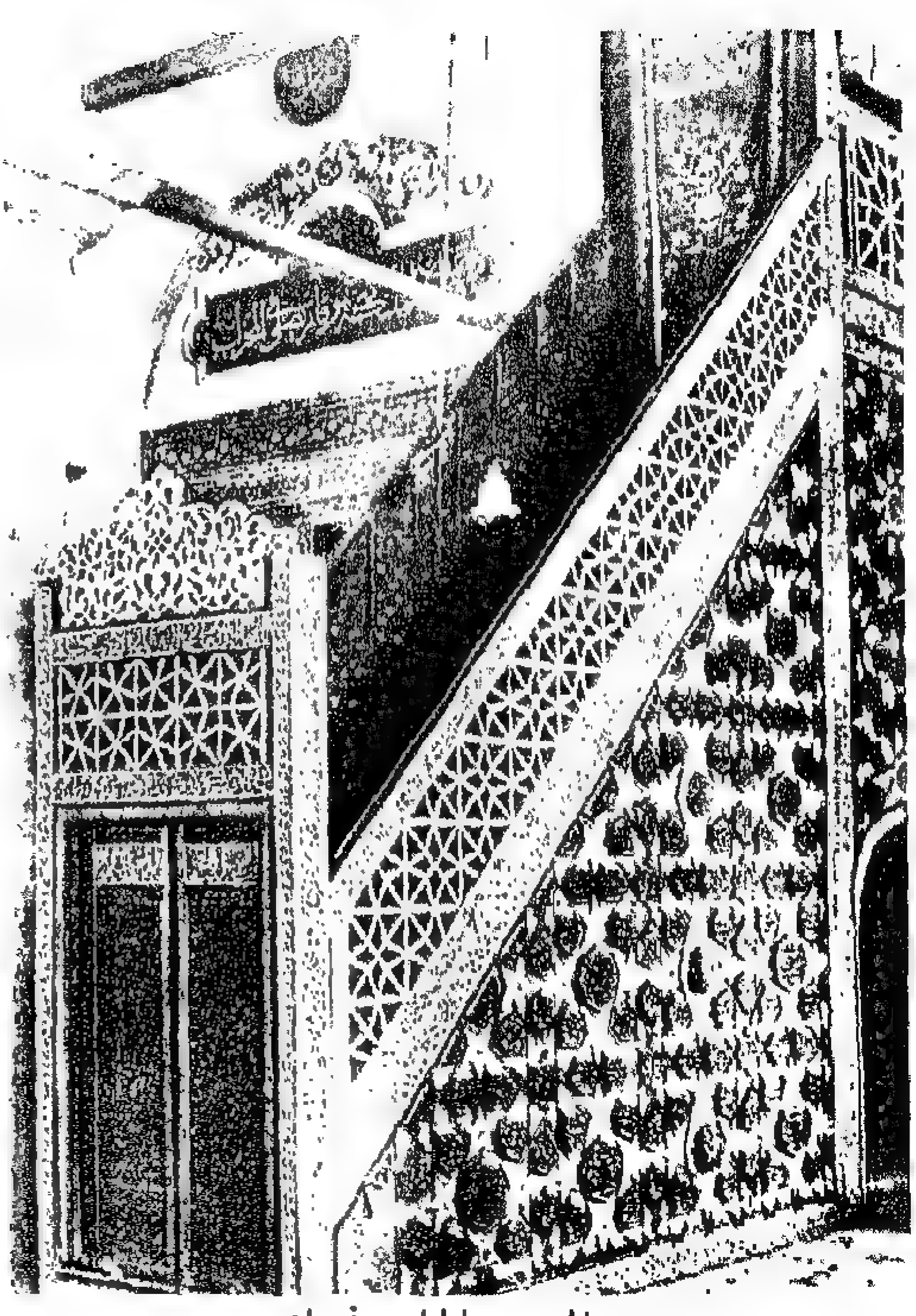
محراب قبة الصخرة.



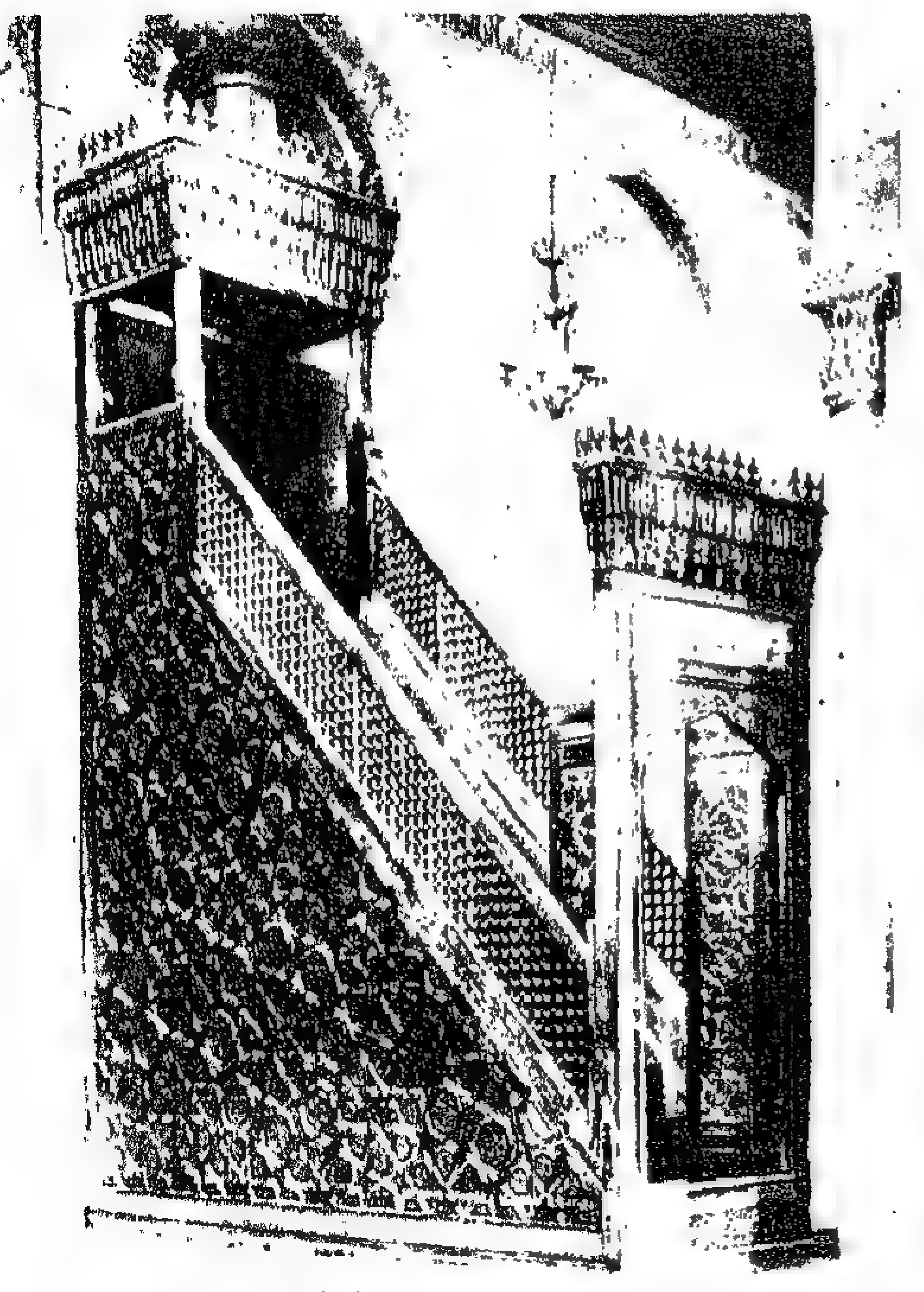
محراب المسجد الجامع في القيروان.



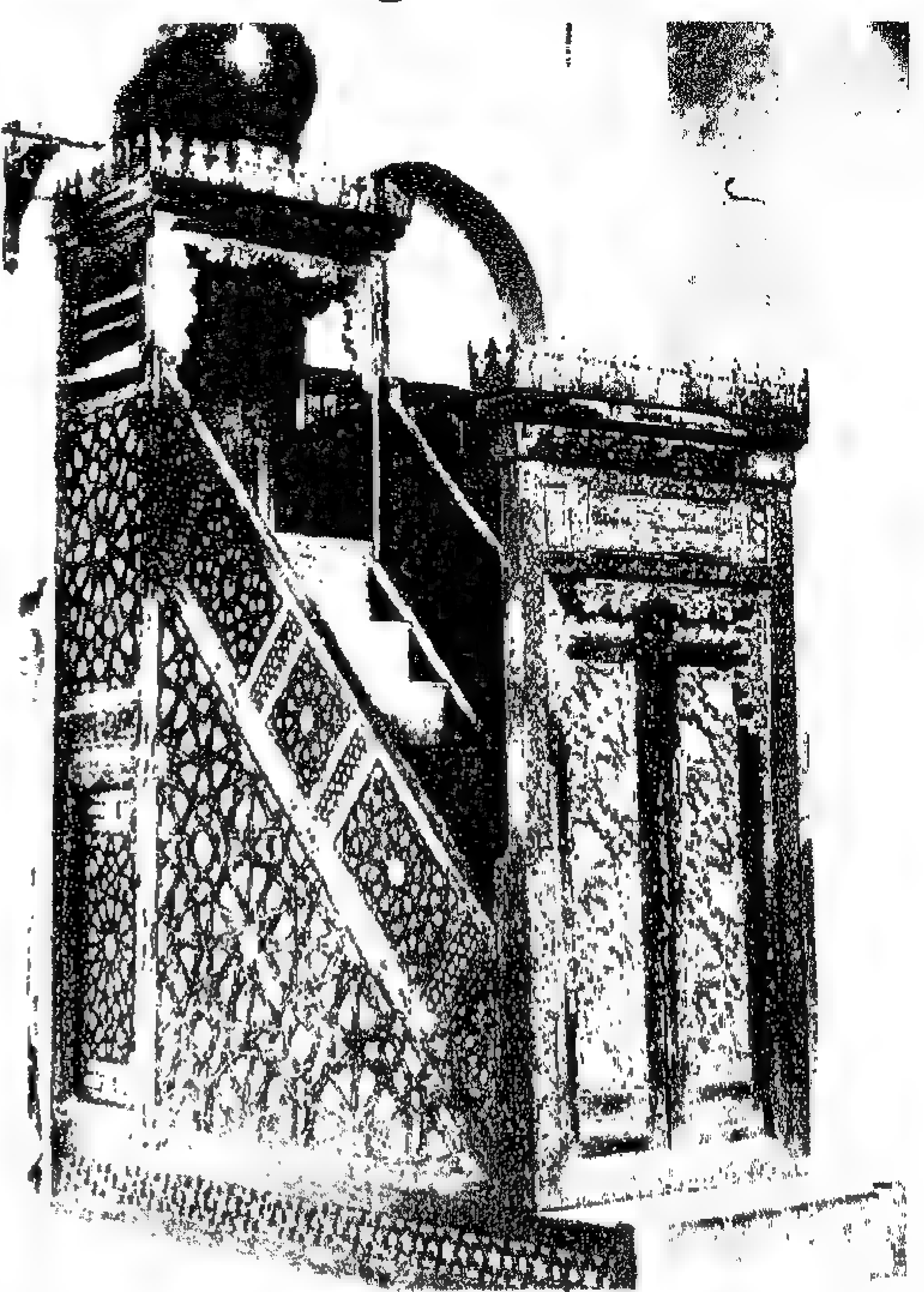
محراب المسجد الجامع في سوسة.



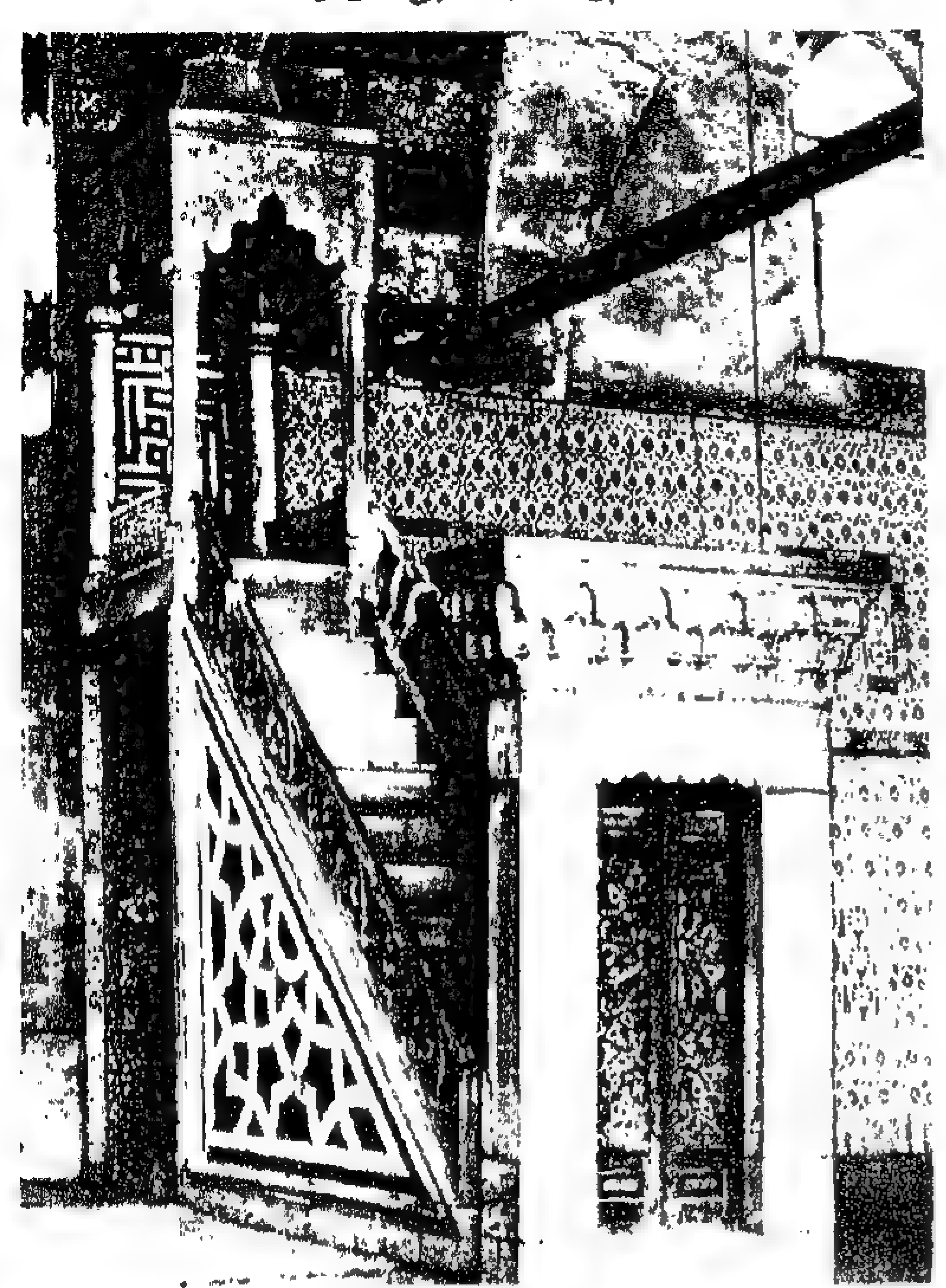
منبر المسجد الجامع في إزمير.



منبر مسجد ابن طولون.



منبر مسجد مدرسة السلطان عبد الغني في القاهرة.



منبر المسجد الأزرق في القاهرة.

من المحاريب القديمة المشهورة في الإسلام المحراب الذي أقامه عمر بن عبد العزيز في المسجد النبوي الشريف. وهناك محراب عقبة بن نافع في مسجد القيروان ومحراب عمرو بن العاص في مصر، ومحراب المسجد الأقصى. وفي المسجد الجامع بقرطبة نجد الجزء الأعلى من المحراب قطعة واحدة من المرمر على شكل محارة، وقد تحقق هذا الشكل في زمن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم.

٤ ـ المنبر: هو مرتفع مواجه للمصلّين يرتقيه الخطيب. ويخبرنا المؤرخون أنّ الرسول ﷺ كان يقف أول الأمر إلى جذع في المسجد ليلقي خطبته، فاقترح عليه أحد صحابته أن يكون في محل مرتفع كي يراه الناس، فاستجاب للطلب، فصنع له منبر من مرقاتين. ويذكر المؤرخون منبرًا آخر كان ينصب في المسجد النبوي الشريف بأمر من النبي ﷺ كي يقف عليه الشاعر حسّان بن ثابت عند إنشاد قصائده في مدح النبي ﷺ وهجاء خصومه. على أن هذا المنبر كان يُنصب بصورة مؤقتة ثم يرفع بعد انتهاء حسّان من إنشاد قصائده.

ولم يُعرف عن المسلمين في صدر الإسلام أنَّهم اتخذوا المنابر في مساجدهم، وبقي الأمر كذلك في عهدَي النبوّة والخلفاء الراشدين. ويُعتقد أنّ والي مصر عمرو بن العاص كان أول من اتخذ المنبر في المسجد الذي شاده بالفسطاط. ويذكر المؤرخون أن المساجد التي أُنشئت في غير المدينة والفسطاط كانت خالية من المنابر وأنّ الخطباء كانوا يخطبون معتمدين على العصي.

ويذكر بعض المؤرخين أنَّ معاوية بن أبي سفيان صنع منبرًا وضعه في مكّة المكرّمة عندما قدم إليها من الشام، وهو أول من خطب بمكة المكرمة على المنبر. ثم إنّ يزيد بن معاوية أنشأ في جند قنّسرين مسجدًا له منبر، وما لبثت المنابر أن شاعت.

ولما كان المنبر يشغل مساحة من المسجد، فإن بعضهم صنع المنابر النقّالة، وجعلوا لها أمكنة خاصة تودع فيها بعد انتهاء الخطبة. ويُعتقد أن أوّل من لجأ إلى هذه الطريقة هم أبناء الأندلس وشمال افريقيا. ونذكر أخيرًا أنّ المنابر في المساجد لها أهمية دينية وسياسية، فضلاً عن قيمتها الفنيّة.

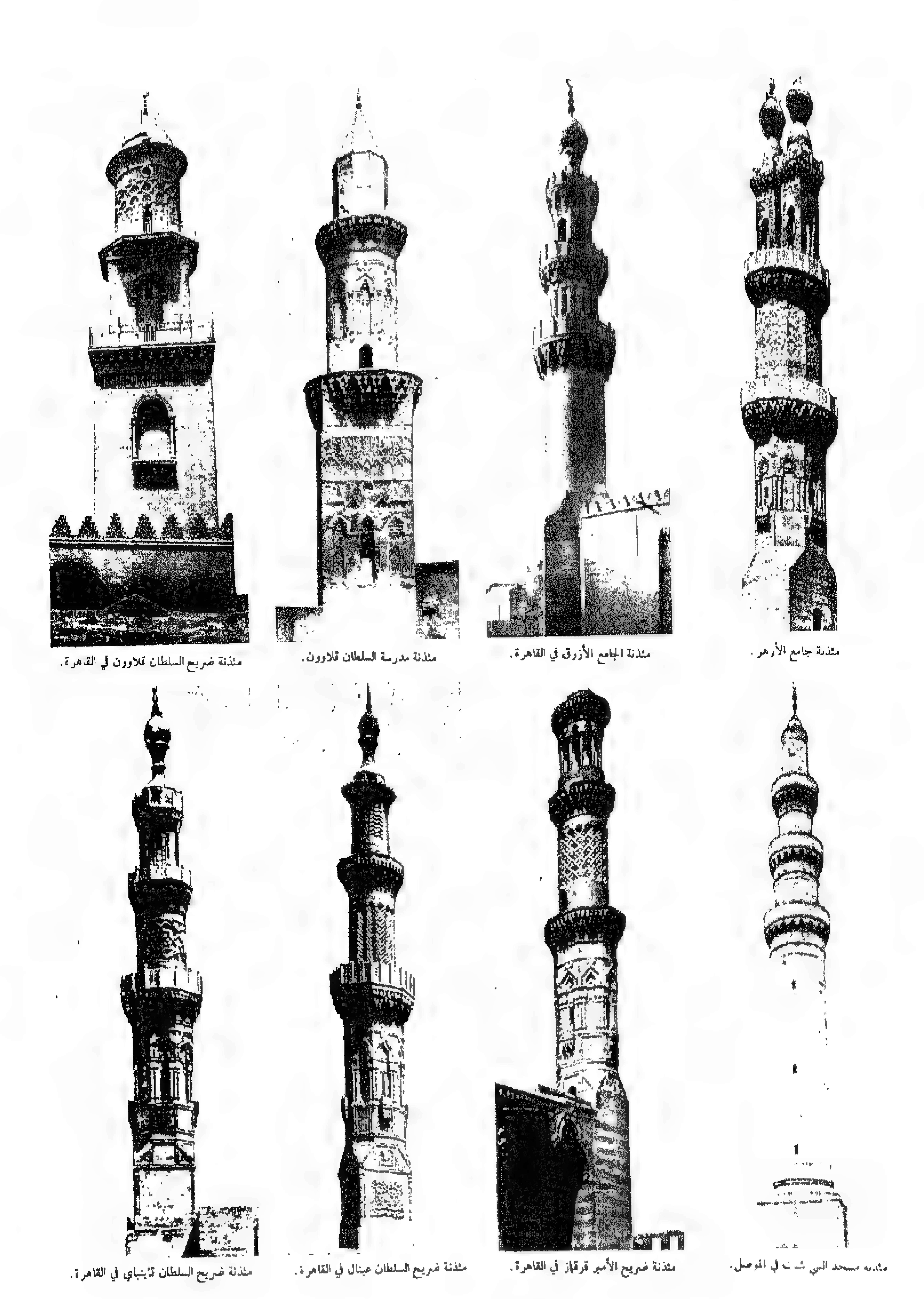
٥ ـ المئذنة: المئذنة أو المنارة أو الصومعة هي البناء المرتفع الذي يرتقيه المؤذّن في

أوقات محددة ليدعو إلى الصلاة. ولم تكن المئذنة معروفة في عهد النبي ﷺ ولا في زمن الخلفاء الراشدين، ومعاوية هو أول من أشار ببناء المآذن في الإسلام. ويستنتج المؤرخون أنّ هذا الخليفة تأثر بما وجده في كنائس دمشق من أبراج الأجراس فوجد فيها مثالاً صالحًا لرفع الأذان في المساجد بدل الوقوف على سطح المسجد.

وبعد أنْ أصبحت المئذنة جزءًا متممًا للمسجد أخذ الحكام يتنافسون في العناية بها والتفنّن ببنائها في أشكال هندسية متنوعـة مع تزيينها بأجمل الزخارف والنقوش. وبعد أن أخذ المسلمون فكرة المئذنة عن ابراج الكنائس، أصبحت المآذن بدورها مصدرًا استوحى منه الاوروبيون طريقة بناء أبراج كنائسهم.

وتختلف أشكال المآذن باختلاف الأمم التي شادتها. فالمربعة بنيت في مساجد العهود الإسلامية الأولى أيام بني أميّة، وقد غدت ذات طبقات يصغر حجمها مع الارتفاع في الاندلس والمغرب. وانتشرت المئذنة المضلّعة في المساجد الفاطمية، والاسطوانية الشبيهة بقلم الرصاص المسنون في المساجد العثمانية.

وبعد أن كان للمسجد مئذنة واحدة، عمد بعض الحكام الى بناء مئذنتين للمسجد الواحد، ثم عدة مآذن كما هي الحال في المساجد العثمانية، وأصبح تعدد المآذن للمسجد الواحد أمرًا مألوفًا. وقد ازداد الاهتمام بالمآذن من حيث تزيينها وزخرفتها، حتى أنّ مآذن «العتبات المقدسة» في العراق كسيت بسبائك الذهب.



مئذنة جامع الأزهر.

مئذنة الجامع الأزرق في القاهرة.

مئذنة مدرسة السلطان قلاوون.

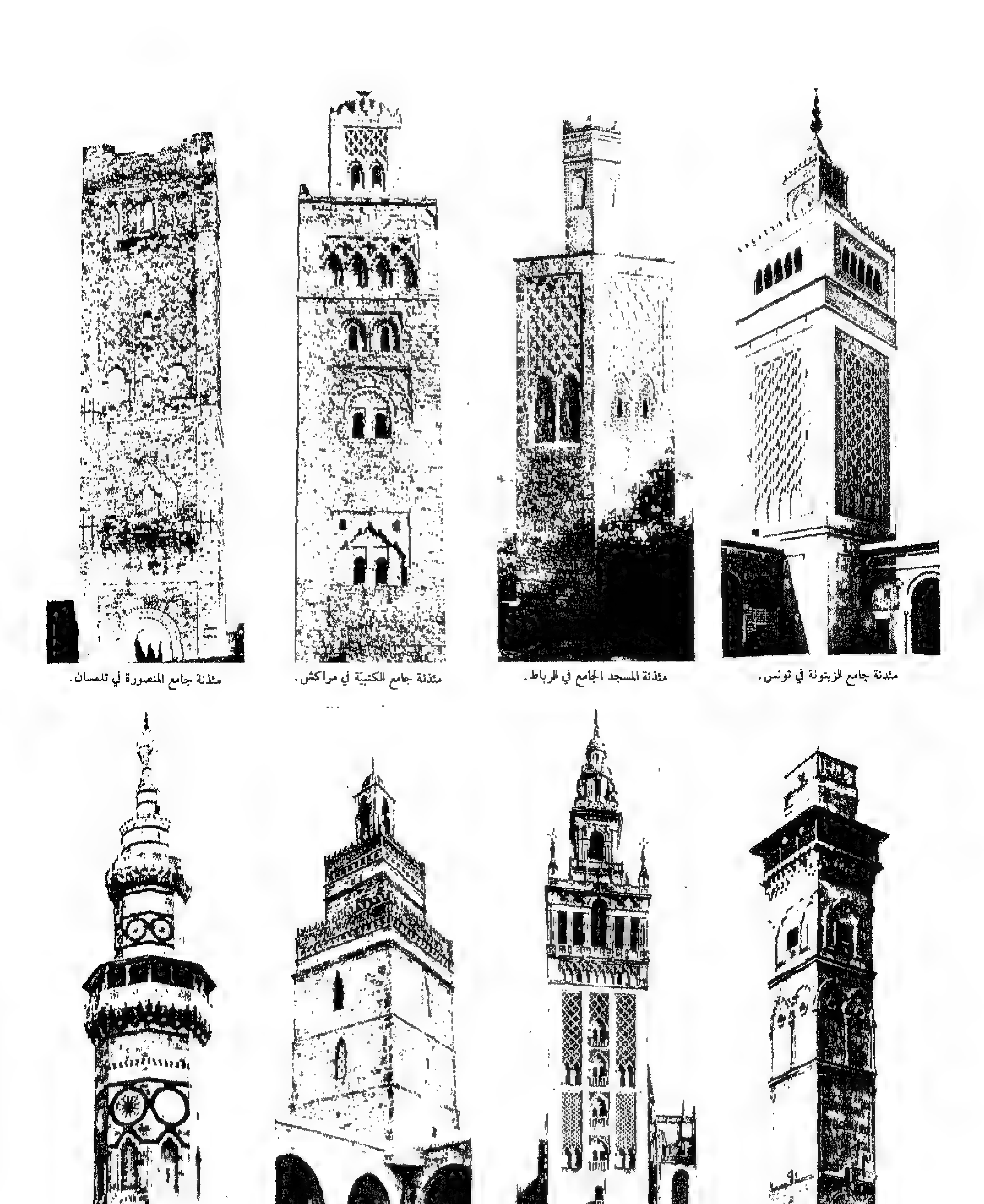
مئذنة ضريح السلطان قلاوون في القاهرة.

مئذنة مسجد النبي شيث في الموصل.

مئذنة ضريح الأمير قرقماز في القاهرة.

مئذنة ضريح السلطان عينال في القاهرة.

مئذنة ضريح السلطان قايتباي في القاهرة.



مئذنة جامع الزيتونة في تونس.

مئذنة المسجد الجامع في الرباط.

مئذنة جامع الكتبية في مراكش.

مئذنة جامع المنصورة في تلمسان.

مئذنة مسجد زكريا في حلب.

مئذنة لاجيرالدا في اشبيلية.

مئذنة المسجد الجامع في صفاقس.

مئذنة الجامع الأموي في دمشق.

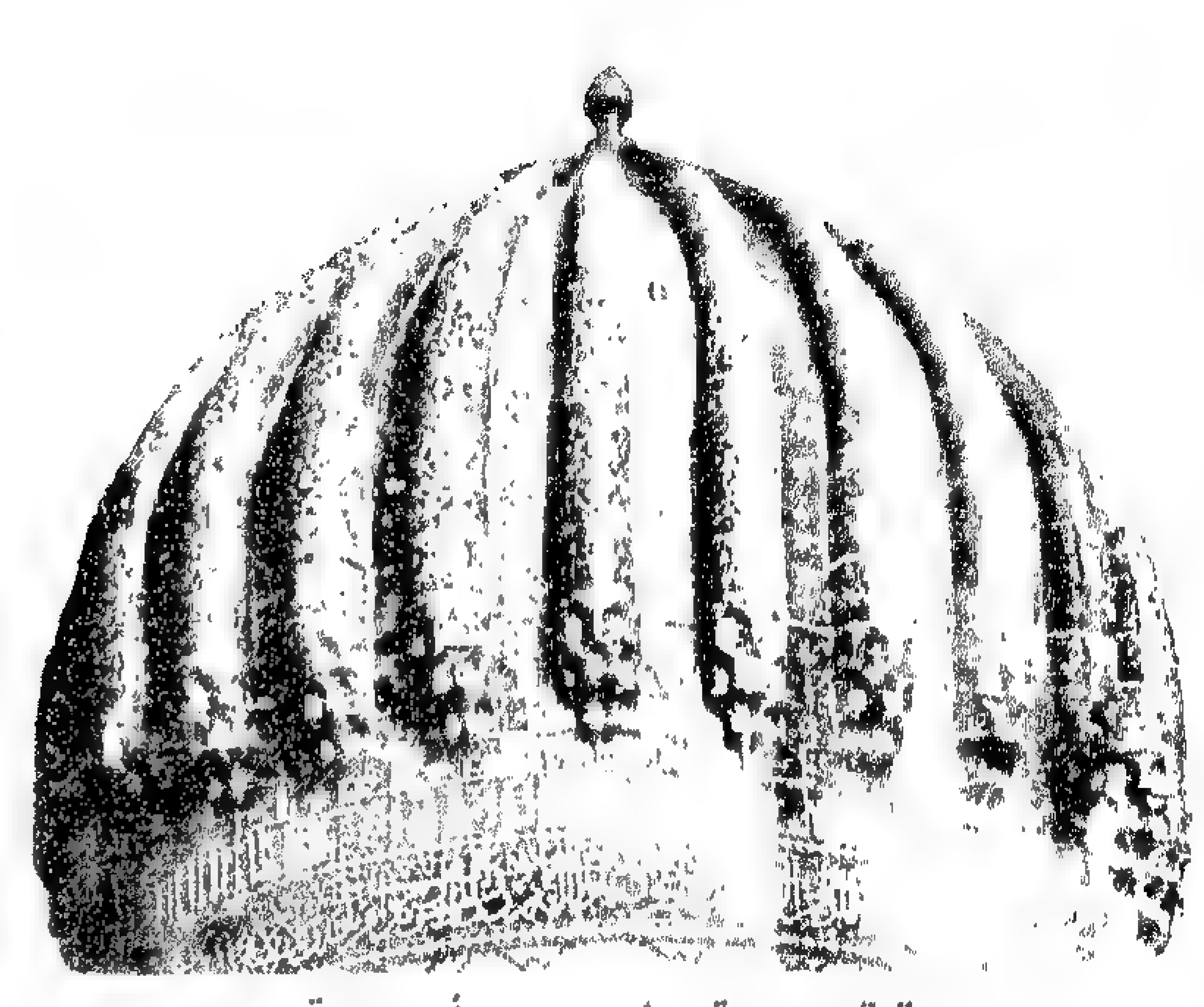
وهناك عدد من المآذن كانت محل اهتمام الدارسين نظرًا إلى ما تمتاز به من قيمة أثرية ولما لها من خصائص فنيّة. ومن المآذن المشهورة مئذنة سيدي عقبة في القيروان، ومنارة المنصور في اشبيلية (لا خيرالدا)، ومنارة الكُتُبيّة بمراكش، وصومعة حسّان بالرباط، والمئذنة الملوية في سامراء.

٦ ـ القبّة: هي من الأجزاء المكمّلة للمسجد، وبناؤها محدودب على شكل نصف كرة، وقد تتخذ القبة الشكل البيضوي أو المخروطي أو الحلزوني أو البصلي. وهي من الملامح التي تمتاز بها أغلب المعابد الدينية، وهي من الأشكال الدخيلة على المساجد. وأول قبّة بنيت في الإسلام هي قبّة مسجد الصخرة المشرفة في بيت المقدس، وقد شيّدها عبد الملك بن مروان سنة (٦٢هـ/٦٩١م). وفكرة هذه القبّة مأخوذة عن الكنائس النصرانية التي كانت معروفة في الشام. ثم حذا المسلمون في الأمصار حذو الخليفة الأموي وشرعوا في اتخاذ القباب المتنوعة لمساجدهم.

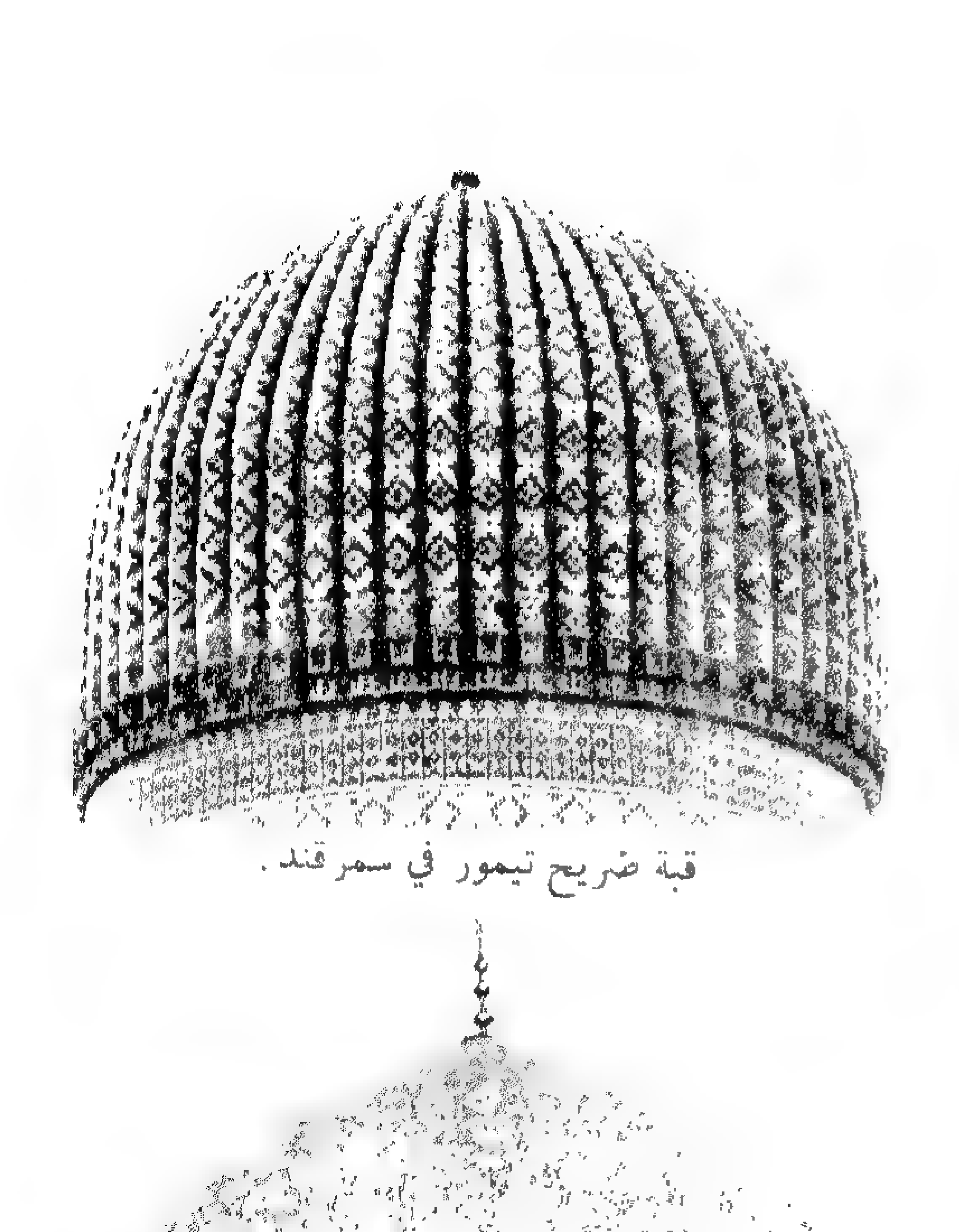
وأغلب المساجد تتعدد فيها القباب، تبعًا لاتساع بنائها، وقد جرت العادة أن يرفعوا قبة فوق المحراب، وكذلك فوق المنبر لتظلل مكان قعود الإمام. كما جرت العادة أن تُبنى القباب فوق أحواض الوضوء لوقاية المتوضئين من حرّ الشمس أو المطر. ولم يقتصر بناء القباب على الجوامع وحدها وإنّما بُنيت كذلك فوق مقامات الأولياء، وغالبًا ما يعلو الهلال القبّة، كما قد يعلو المئذنة.

٧ ـ المقصورة: هي حجرة تبنى في صدر المسجد، على يمين القبلة أو يسارها، ولم تكن معروفة في أوائل عهد المسلمين. ويرى بعض المؤرخين أنّ أول من اتخذ المقصورة لصلاته هو الخليفة عثمان بن عفان، ويرى بعضهم الآخر أن المقاصير عُرفت في أيام معاوية بن أبي سفيان. والمعروف أن المقصورة أُعدّت في الأساس لكي يصلي فيها الخليفة أو الحاكم. وفيما بعد بادر الولاة في الأمصار إلى بناء المقاصير في المساجد: إلاّ أن قسمًا كبيرًا من المساجد خلا منها.

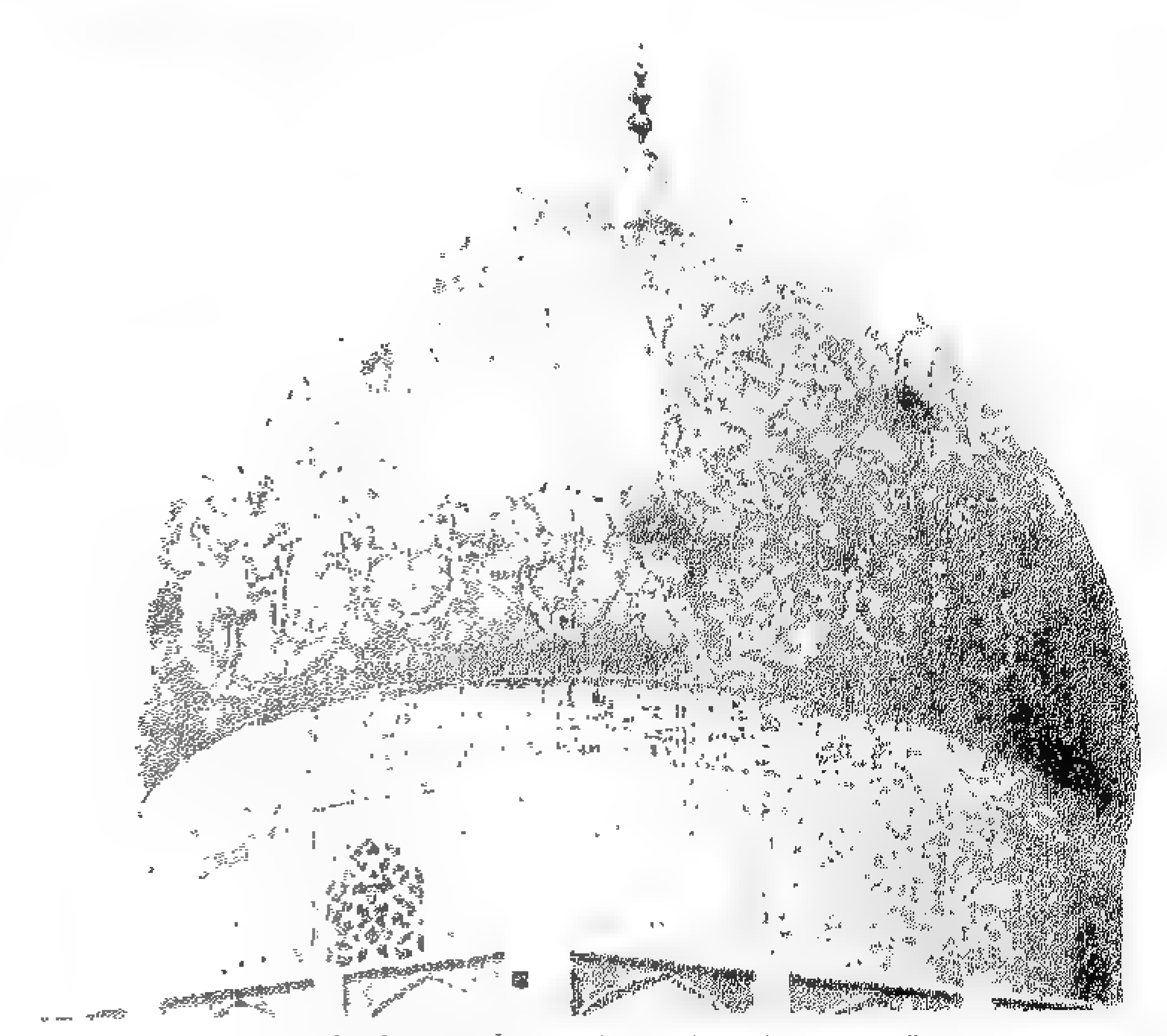
٨ ـ السُدّة: هي السقيفة التي تبنى في حائط المسجد قبالة المحراب والمنبر، وتكون عادة من الخشب وتُرفع فوق أرض المسجد على أعمدة عالية ثابتة. ولم يُعرف أنّ أحدًا بنى سدّة نقّالة على نحو ما عهد عن بعض المنابر والمحاريب. والغرض من بناء السدّة على



قبة مدرسة « شيردور » في سمرقند.



قبة ضريح تيمور في سمرقند.



قبة مدرسة والدة الشاه في اصفهان.



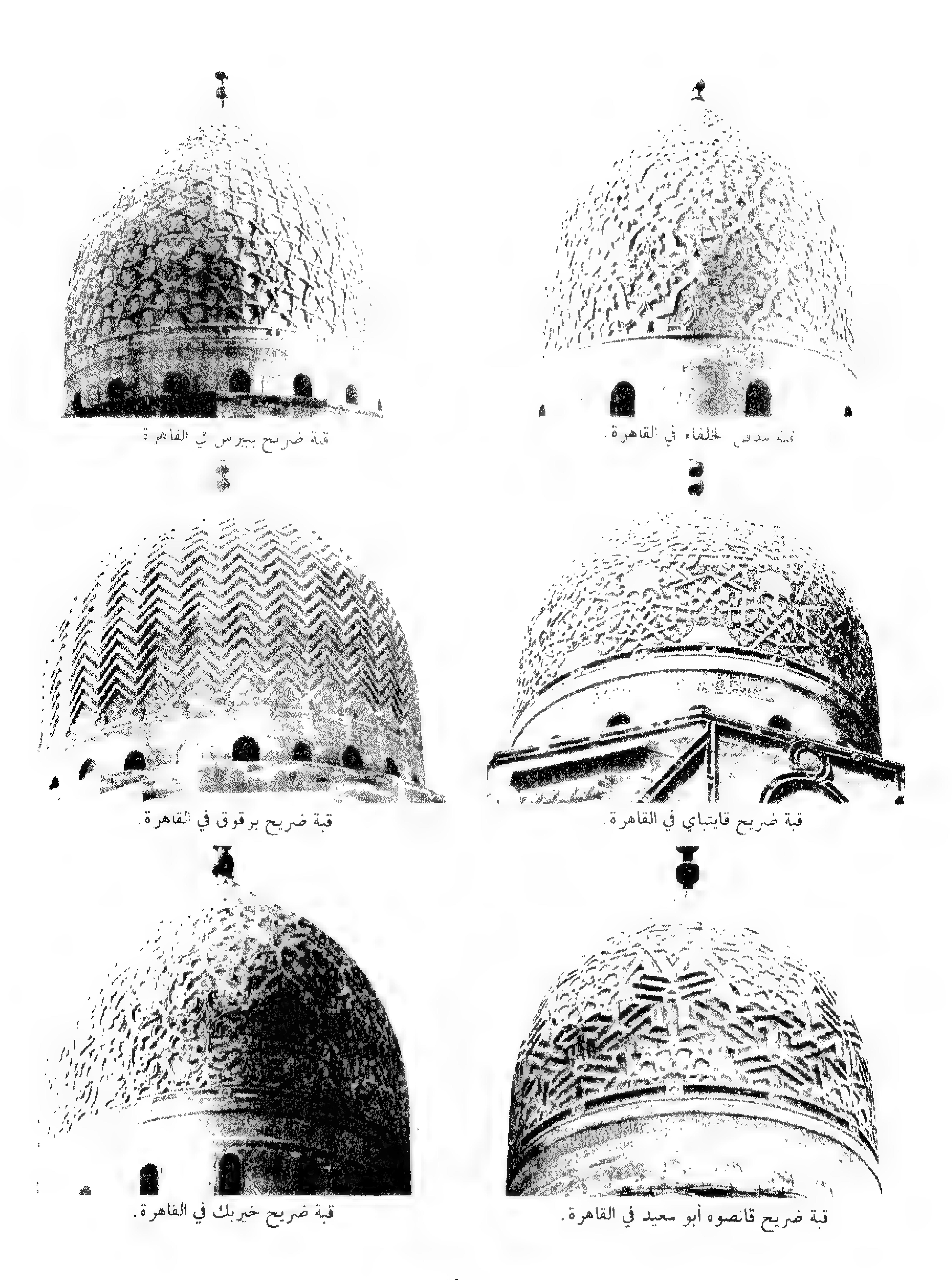
قبة مسجد الشاه في اصفهان.



قبة ضريح الشاه أردبيل.



قبة المسجد الجامع في نايين.



قبة مدفن الخلفاء في القاهرة.

قبة ضريح بيبرس في القاهرة

قبة ضريح قايتباي في القاهرة.

قبة ضريح برقوق في القاهرة.

قبة ضريح قانصوه أبو سعيد في القاهرة.

قبة ضريح خيربك في القاهرة.

هذا النحو هو تمكين المؤذّن من الاطلاع على حركات الإمام فيرفع صوته بالتكبير والتحميد من بعده كي يضبط الناس صلاتهم مع صلاة إمامهم فلا يتقدمون عليه ولا يتأخرون عنه.

٩ - الميضأة: هي المكان المخصص لعملية الوضوء. ولما كان الوضوء، أي الاغتسال، من أعمال النظافة الجسدية التي لا بدّ منها لأداء الصلاة، استكمالاً للطهارة قبل التوجّه إلى الله عزّ وجلّ، فوجود المرافق الصحية والميضأة في كل مسجد هو ضرورة لا يستغنى عنها وتكون الميضأة غالبًا في أحد جوانب الصحن بعيدًا عن بيت الصلاة، وتأتي على شكل حوض كبير يتحلّق الناس حوله ويتوضأون بمائه الدافقة من الزلاّقات. وقد تغيّرت طرق الوضوء في أيامنا مع وجود الأنابيب المعدنية والحنفيّات وغيرها من الوسائل التي لم تكن من قبل متوفرة.

لا شك في أنّ المساجد من أكثر العمائر تجسيدًا للفن الإسلامي. والمعروف أنه برز أولاً في شبه الجزيرة العربية والأقطار المجاورة، ثم امتدّ إلى مصر والمغرب العربي والأندلس. ورافق الدعوة في انتشارها فشمل بلاد فارس والهند والصين وتركيا ومناطق الشرق الأقصى التي تدين بالإسلام.

على صعيد آخر نشير إلى أن المسجد الذي أُدرج بين المساجد الأولى، إن لم يكن الأول، هو «مسجد قباء» الذي أقامه المهاجرون، عملاً بنصيحة رسول الله ﷺ: «من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتًا في الجنّة».

ومن يتتبع تاريخ الإسلام يلاحظ اهتمام المسؤولين باستحداث المدن مع حركة التوسّع لنشر الدين خارج شبه الجزيرة العربية، من أجل أنْ تكون معسكرًا ومقرًّا للجند في البلاد المفتوحة. وقد كانت المدن المستحدثة على نوعين: المدن المعسكرات والمدن الملكية.

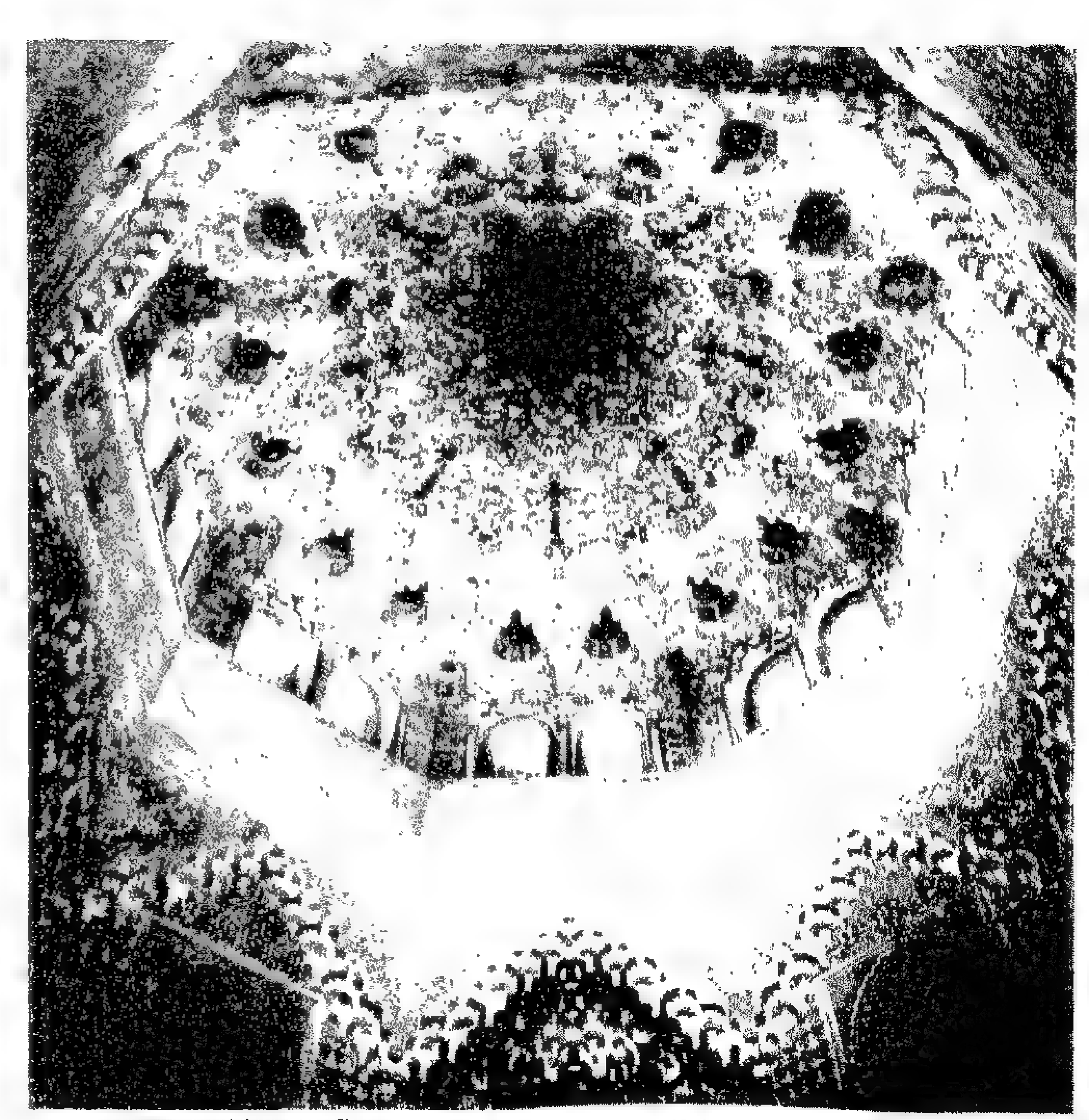
من «المدن المعسكرات» البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، وهذه المدن التي سكنها أولاً جماعة عسكرية تحولت فيما بعد إلى حواضر مشهورة. ونلاحظ في المدن المعسكرات أنّ المسجد هو أوّل ما يقام في المدينة، وقربه تُشاد دار الإمارة، وهذان البناءان يقعان عادة في وسط المدينة. ففي بناء البصرة جعل عتبة بن غزوان المسجد الجامع المحور والأساس في تخطيط المدينة، وقد تمّ بناء المسجد سنة ١٤هـ وجاءت دار الإمارة قربه،

ومن حولها أقام الجند وعيالهم دورهم ومساكنهم. واتبع الاسلوب نفسه سعد بن أبي وقّاص عندما بنى الكوفة سنة ١٧هـ، فقد بيّن حدود المسجد أولاً وبجواره أقام دار الإمارة. وبعد فتح الاسكندرية اختار عمرو بن العاص موقع الفسطاط سنة ٢١هـ وجعل مسجدها وسطًا ومن حوله تفرعت الطرقات. وفي القيروان اهتم عقبة بن نافع قبل كل شيء بالمسجد ودار الإمارة، وجهد في تحديد اتجاه القبلة نحو مكة المكرمة وبيتها الحرام لأن جميع أهل المغرب سيضعون قبلتهم على مثل مسجده، وما تزال القبلة الأولى لهذا المسجد قائمة حتى اليوم. والذي نستنتجه أن المسجد الجامع كان المركز الذي تدور من حوله الحياة الاجتماعية والدينية والفكرية والاقتصادية.

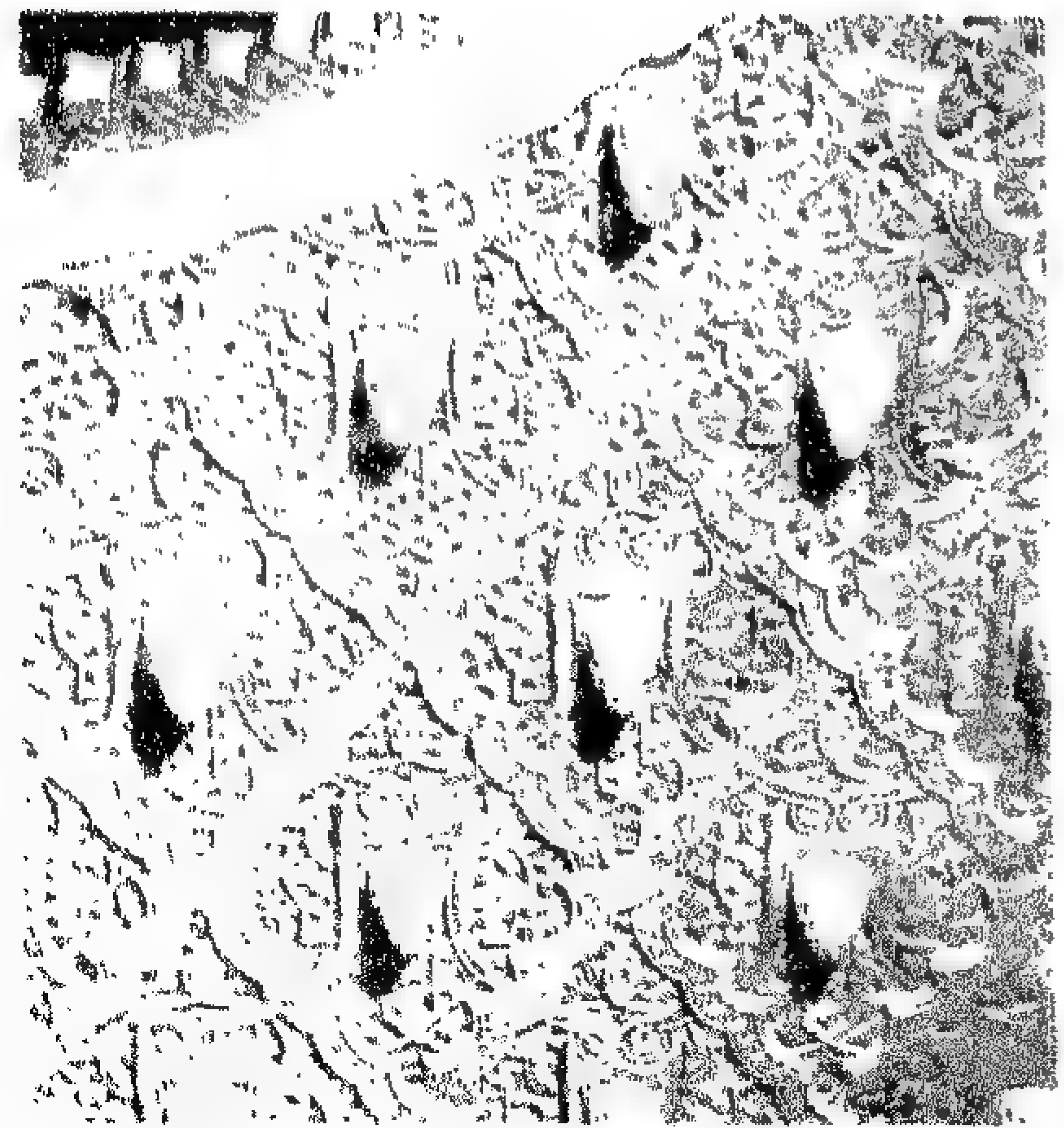
فضلاً عن المدن المعسكرات أقام المسلمون عددًا من «المدن الملكية»، وهذه المدن لا يقيمها أصحابها إلاّ بعد الوصول إلى شيء من الترف في حياتهم. فبعد استتباب المُلك يتّجه صاحب الدولة إلى اختيار مكان يجد فيه الراحة فيحصّنه ويسوّره ويبني فيه المباني التي تحتاجها دولته. مثال ذلك ما فعل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين الذي عمد، بعد تركيز ملكه، إلى بناء مدينة مراكش في مرج فسيح حوله الجبال. ونلاحظ في نشأة «المدن الملكية» أنّ الإقامة فيها كانت في معظم الأحيان قاصرة على الحاكم وأهل بيته وحاشيته وجنده، من غير السماح لعامة الشعب بسكناها، وذلك من أجل الحرص على المظهر اللائق ولضمان الأمن والسلامة. وهذا ما كان، في البداية، أمر بغداد وسرّ من رأى والرباط ومراكش وسواها. وكما في المدن المعسكرات كان اهتمام الحكام، في إنشاء المدن الملكية، يتركز قبل كل شيء على المسجد ثم على دار الإمارة.

واللافت في المساجد التي كانت محورًا في المدن أنها كانت مساجد جامعة. والمعروف أن المساجد الجامعة كانت في معظم الأحيان أكبر مساحة وأكثر شهرة وأبعد أثرًا، في مختلف ميادين الحياة، من المساجد العادية الأخرى. فالمسجد الجامع أهم معالم المدينة الإسلامية وهو صاحب الفضل في إضفاء صفة المدينة على أي مركز إسلامي، وقد كان الخليفة بنفسه، أو من ينوب عنه، مؤهلاً لإمامة المسلمين وقت الصلاة في هذه المساجد، خصوصًا يوم الجمعة. والمسجد اكتسب صفة «الجامع» من اجتماع المسلمين فيه لأداء هذه الفريضة وما يتبعها من مراسم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ تشييد المساجد الضخمة والقصور الشامخة لم يظهر إلاّ بعد انتقال



مقرنصات قبّة قاعة الاختين داخل قصر الحمراء في غرناطة



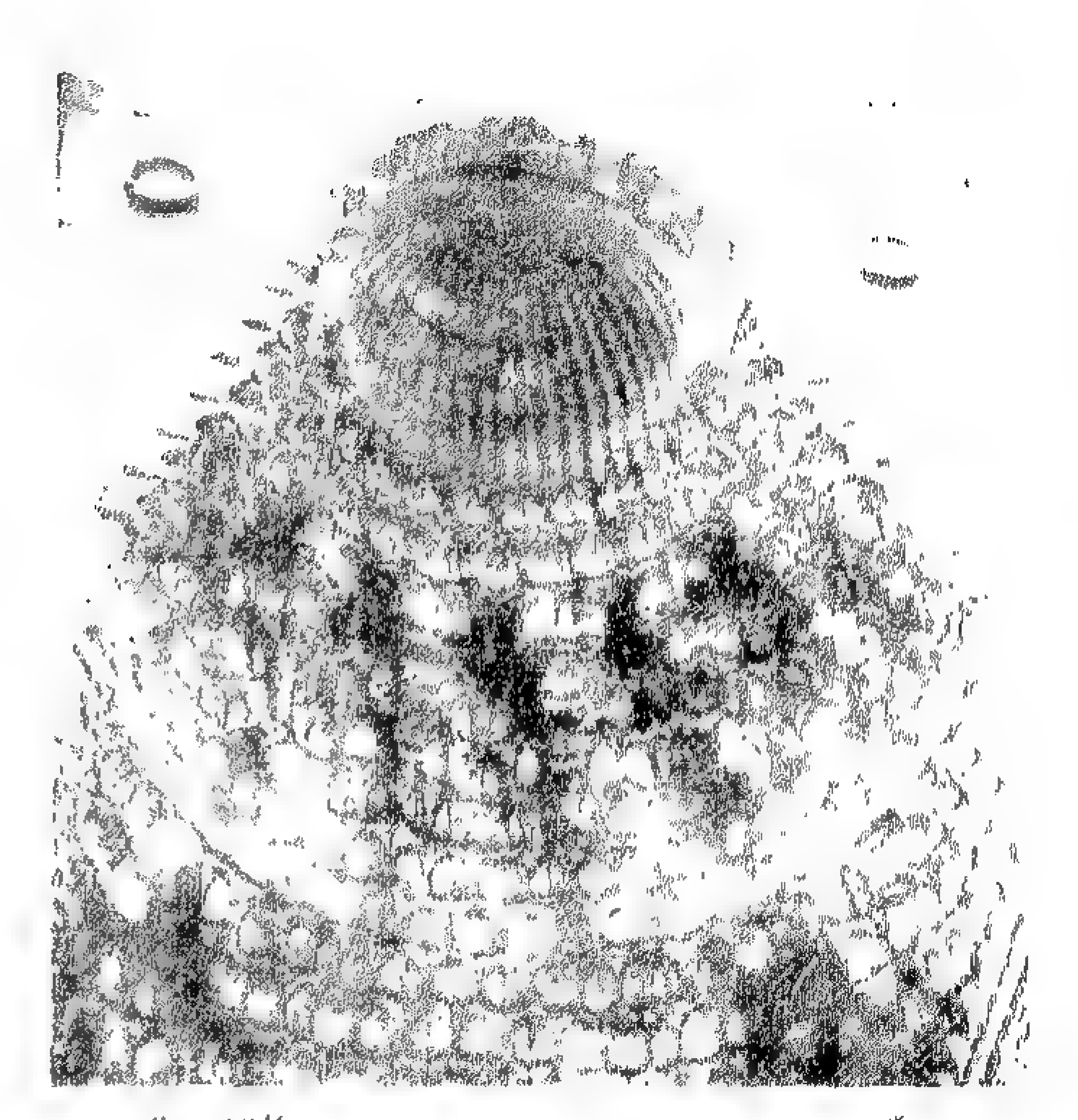
تفاصيل لزخرفة قبة في أحد الأبنية العربية بمدينة طليطلة.



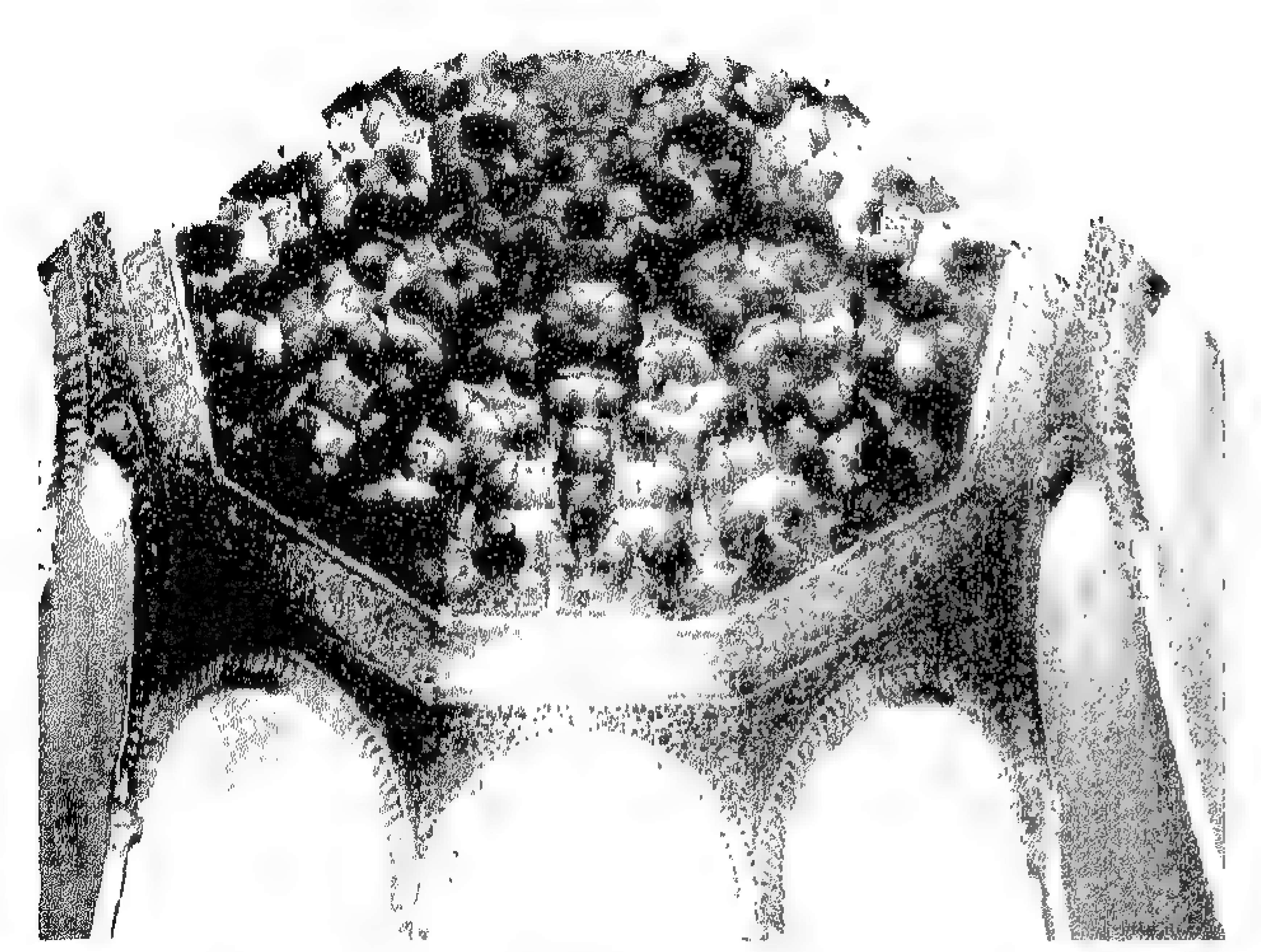
القبة ومقرنصاتها في قاعة بني سراج داخل قصر الحمراء في غرناطة.



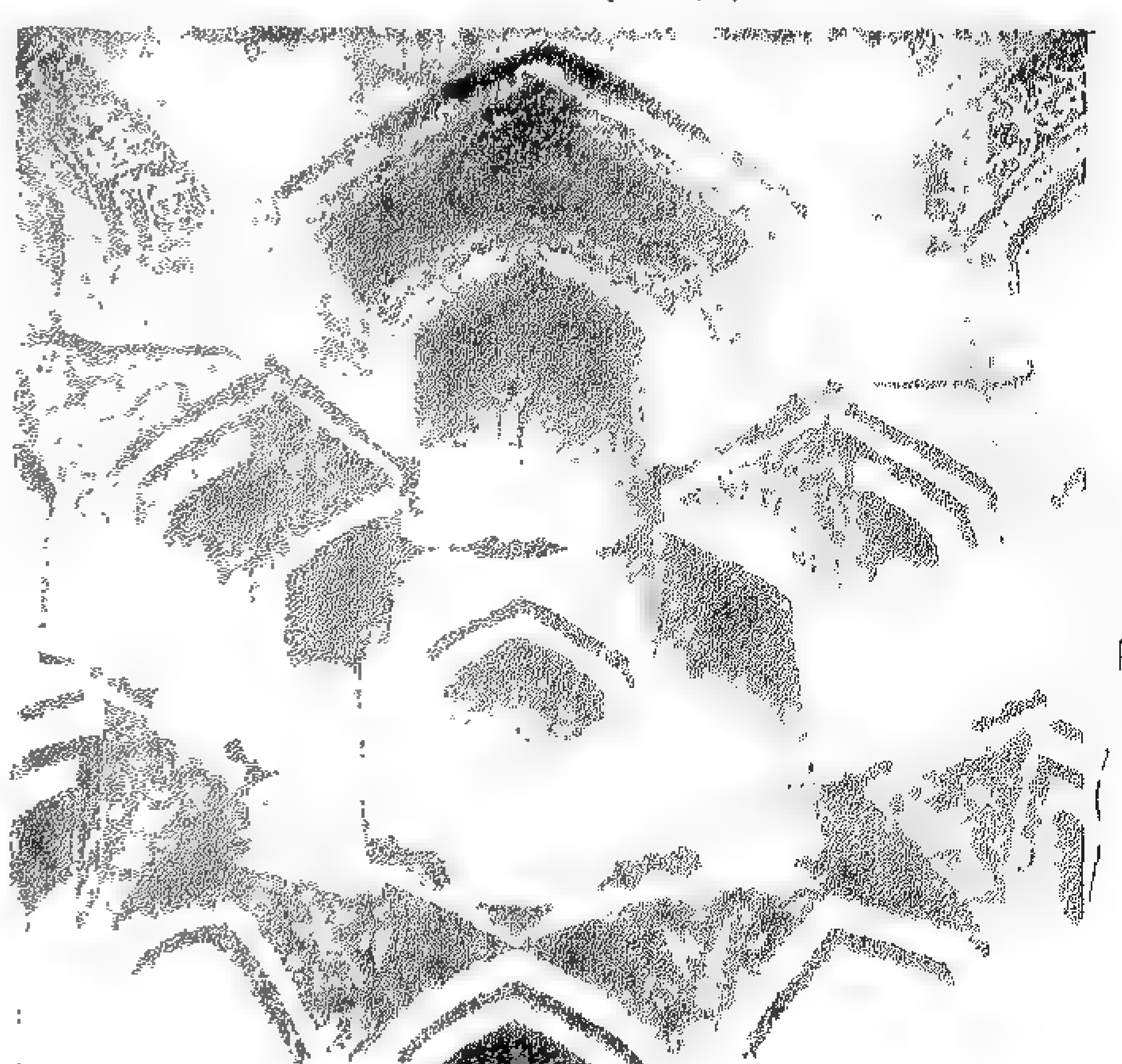
قبّة المحراب في المسجد الأزرق، القاهرة.



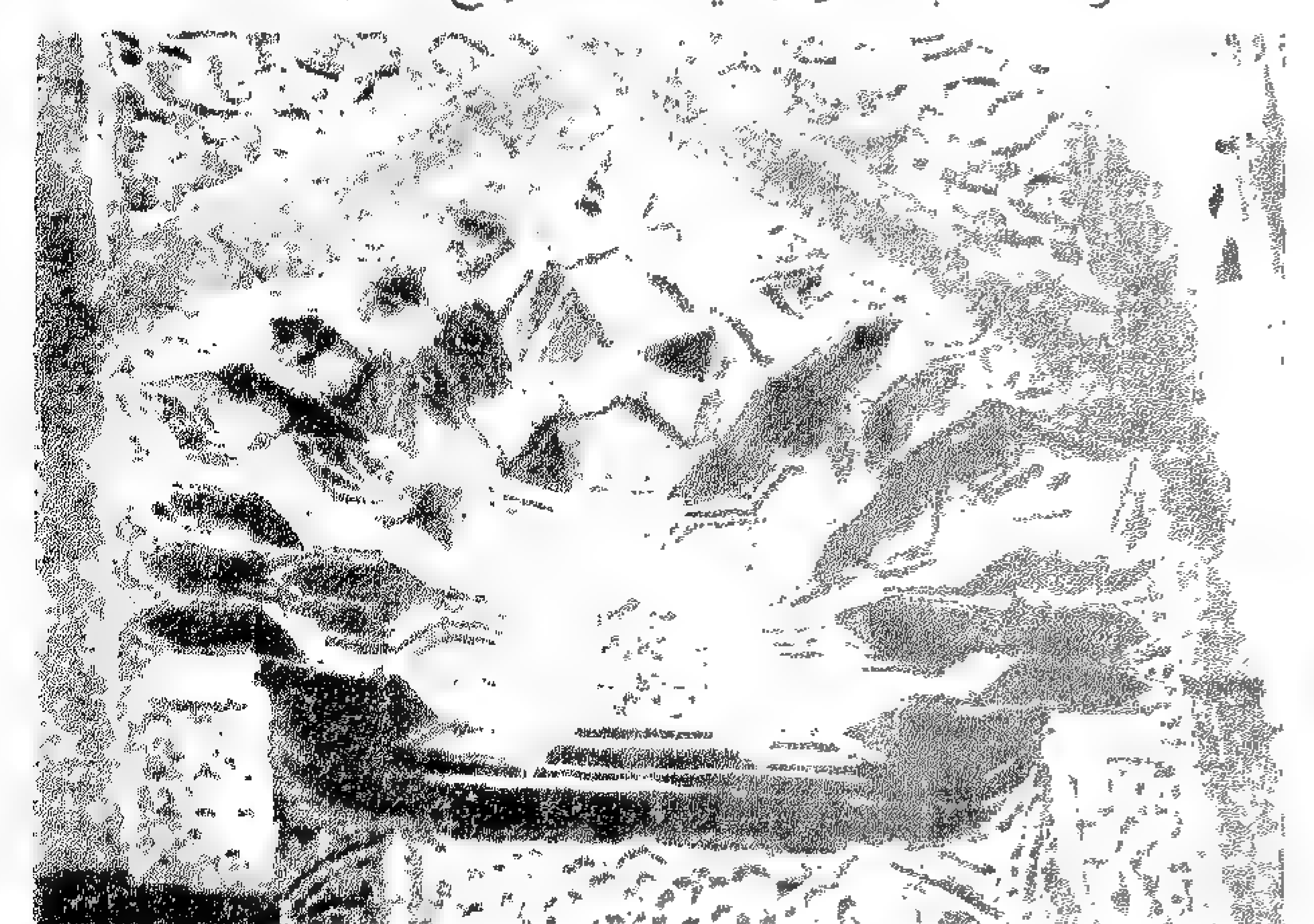
كنّة ذات هوابط في مدرسة حسن بالقاهرة



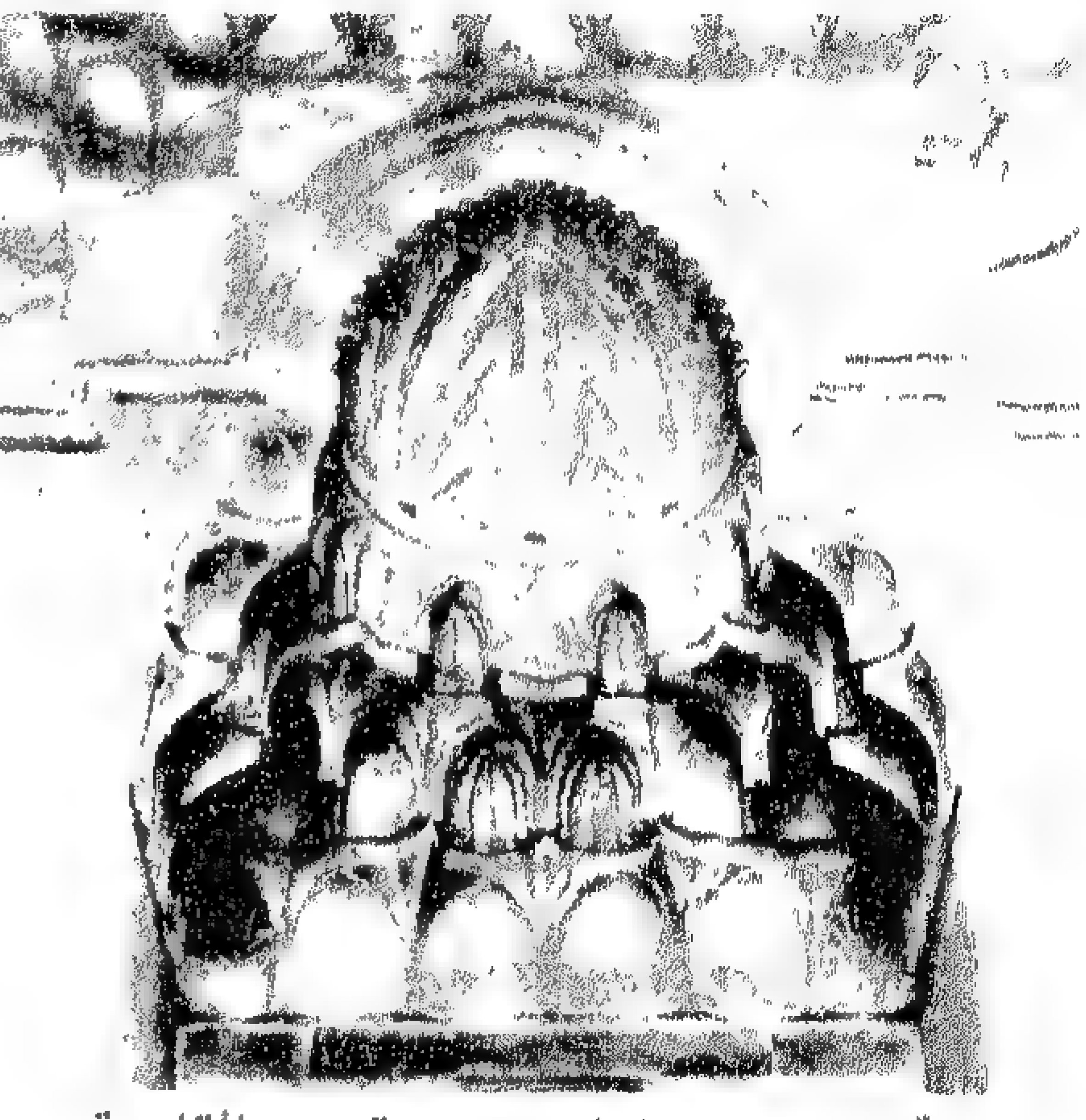
مقرنصات قبة المحراب في مسجد ضريح سيدي بومدين.



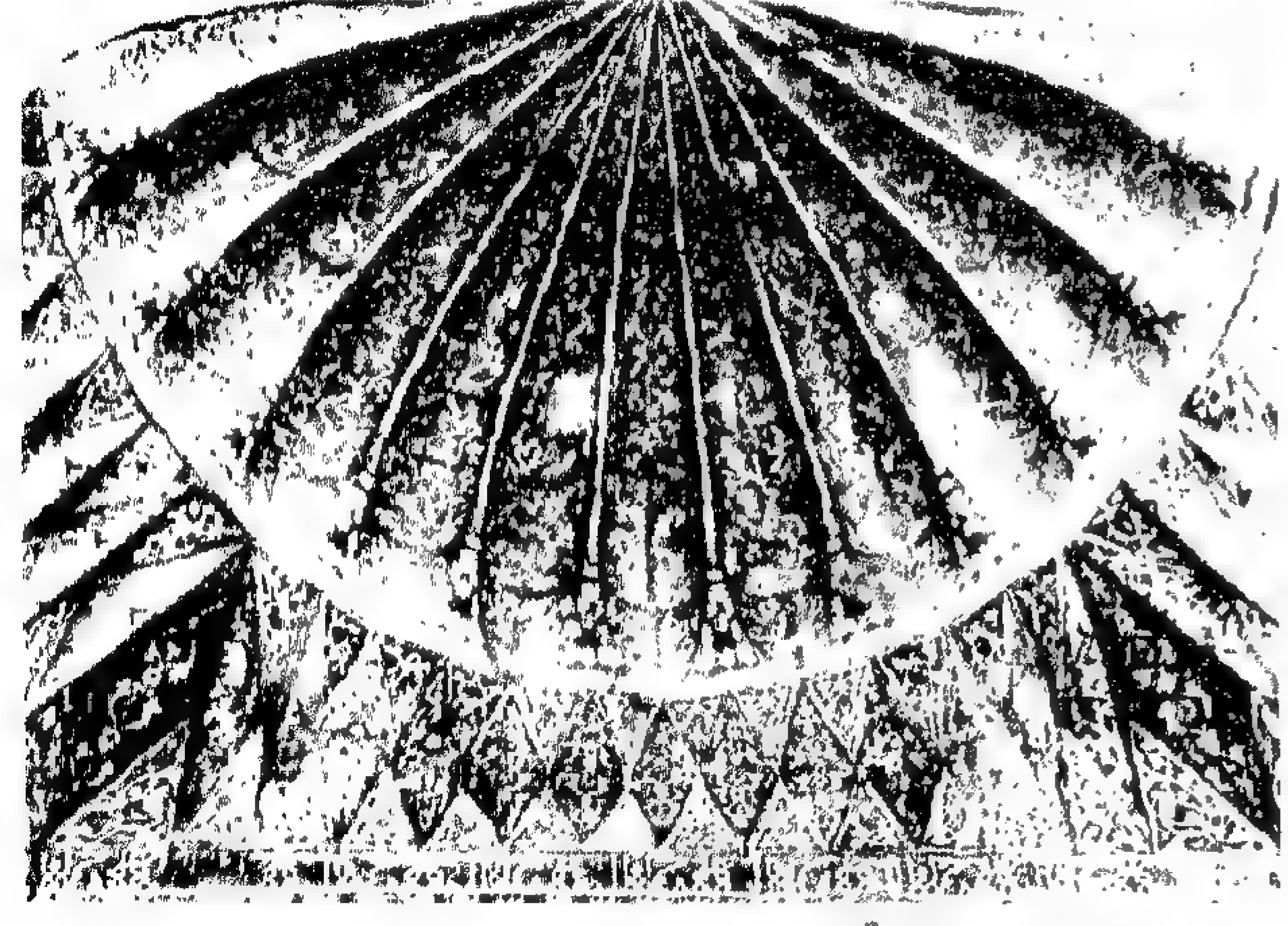
كنة في قبة ضريح الامام الشافعي في القاهرة



مشكاة في مدرسة الأمير أزبك يوسفي في القاهرة.



كنّة ذات هوابط في إحدى قصور القاهرة.



نصف قبة مضلّعة في الضريح الاخضر بمدينة بروس.

الخلافة إلى دمشق سنة ٤١هـ(٦٦١م) على يد معاوية مؤسس الدولة الأموية. وقد حرص الخلفاء الراشدون، كما حرص النبي عليه السلام على تجنّب مظاهر البذخ والترف. فلما تسلم معاوية أمر الخلافة رأى أنّ الأمر يتطلب تشييد مساجد لا تقل فخامة عن معابد أصحاب الديانات الأخرى، وأنْ تكون له قصور لا تقل روعة عن قصور بيزنطية. وعندما رأى المسلمون أنّ الخليفة في دمشق بنى مسجداً ضخماً وجعل فيه النقوش وزيّنه بالرسوم، راحوا يقلدونه في الأمصار. والمعروف أنّ عبد الملك بن مروان حرص على أنْ يكون مسجد الصخرة المشرّفة أعظم من الكنيسة الكبرى التي كانت للنصارى.

من أجل ابراز الملامح الفنية في المسجد فإنّ المسلمين لم تعوزهم الوسيلة للتعبير عمّا كان محرّماً، إذ إنهم لجأوا إلى الطبيعة المجردة فنقلوا منها ما يبدو جميلاً وصوّروها بدقائق الفسيفساء التي علّقوها في قباب المساجد وجدرانها وأعمدتها. وقد انفقوا في هذا السبيل الجهود الكبيرة والأموال الكثيرة. والمتاحف الإسلامية وغير الإسلامية غنيّة بنماذج من قطع الفسيفساء التي تعود إلى أيام الأمويين والعباسيين والدول الإسلامية الأخرى.

والمعروف أنّ العناصر الزخرفية الإسلامية استُمدت من ا لفنَّين الساساني والبيزنطي، إذ اقتبس المسلمون منهما ما يلائم دينهم وذوقهم. فقد استخدمت الأشكال الهندسية المربعة والمثلثة والمستديرة، كما برزت العناصر النباتية في السقوف والجدران. واتخذ المسلمون من الخطوط العربية أداة لزخرفة المساجد، واختاروا من القرآن الكريم والحديث الشريف نصوصاً معينة ورقموها في المساجد منقوشة بحرف بارز أو مجوّف، أو مرسومة بالأصبغة الملوّنة أو بماء الذهب، وأثبتوها في القباب وفوق المحاريب وعلى جوانب الجدران.

أمّا تزيين المساجد بالقناديل فعادة قديمة تعود إلى عهد النبي ﷺ. وكانت المساجد وما تزال تتلقى من أهل الخير نفائس الزينة من القناديل المتنوعة وما يلزمها من الفتائل والشموع والزيوت وسوى ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أنّ العلماء كانت لهم مواقف متنوعة من مسألة الزخرفة. فقد شنَّ بعضهم حملة عنيفة على الزخرفة واعتبروا أنَّ صرف الأموال على الفقراء والمحتاجين أولى من صرفها على التزيين، كما أنَّ منظر الزخارف من شأنه أنْ يُلهي عن الصلاة. وكان لبعضهم الآخر موقف مغاير، فتزيين المسجد في رأيهم يريح النظر ويساعد المؤمن على

التأمل والتعبّد. ومهما يكن فان المسلمين لم يستطيعوا احتمال بقاء مساجدهم عاطلة عن الزينة والزخرفة في حين أنّ معابد سائر الأديان ترفل بأبهى الزخارف. ولقد ذُكر أنّ تميمًا الداري كان أول من علق القناديل في مسجد الرسول ﷺ الذي ارتاح لهذا العمل، وأنّ عمر بن الخطاب أمر بفرش المساجد بالبسط وبتعليق المصابيح.

وفي الحديث عن المساجد راعينا التسلسل الزمني، واستعرضنا باختصار تاريخ بعض الممالك و الدول التي اهتمت بالمنشآت الدينية، ذلك أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الأحداث التاريخية والتطورات التي مرّ بها الفن المعماري الإسلامي. كما أفردنا، عند الضرورة، مكانًا للنواحي التزيينية والزخرفية، فالقيمة الفنية لا تقتصر على حجم البناء وأقسامه وإنما تشمل التفاصيل المتنوعة ومنها الزخرفية. واذا كان القيّمون على المساجد حرصوا على سلامة الجدران والأروقة والقباب والسقوف والمحاريب، فإنهم أعاروا زينتها اهتمامًا خاصًا أيضًا، ومن خلال التفاصيل والجزئيات يمكن التعرف الى تطور الفن الإسلامي.

فعسى أن يلقى القارىء ما يرضي الفضول، والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المسجد الحرام والكعبة المعظّمة

المسجد الحرام هو أوّل بيت وضع للناس، وهو قبلة ابراهيم أبي الأنبياء، وهو أوّل مسجد قام فيه رسول الله ﷺ، ويقع المسجد الحرام في قلب مكّة المكرّمة. فالمسجد، والكعبة في وسطه، وشعائر الله الأخرى التي يلمّ بها الناس في الحج والعمرة إنما هي قلب الحرم المكّي، ارض الله الحرام، وهي كلها أرض مقدسة، اذا دخلها الإنسان دخل محرمًا. وحدود هذا المسجد الأكبر تعينها أعلام الحرم المنصوبة على الطرق المؤدية إلى مكة من كل ناحية.

وأطلقت كلمة الكعبة على البيت الحرام، وسميت هكذا لأنها مكعّبة الشكل، ولأنها بناء مرتفع وكل بناء مرتفع هو كعبة. والكعبة في المفهوم الديني هي البيت الحرام الذي يحج إليه المسلمون من أنحاء الأرض مرّة كل عام. وداخل البيت الحرام يقع «الحجر الأسود» الذي اختلف المؤرخون والعلماء في حقيقة أمره، فقد نقل النويري عن ابن عبّاس قوله: «ليس في الأرض من الجنّة إلا الركن الأسود والمقام، فانهما جوهرتان من جواهر الجنّة». ومن التقاليد المتداولة بين عامة المسلمين أنَّ هذا الحجر المقدس أصله من الجنّة وكان أبيض اللون فاسودّ نتيجة ارتكاب أهل الأرض الآثام والمعاصي. ومنهم من يقول إن هذا الحجر قد يكون نيزكًا هوى من بعض الكواكب، كما قد يكون الحجر الذي رفعه ابراهيم عندما خطط المعبد الذي يحيط البيت الحرام. وتكاد تتفق كلمة المؤرخين على ان هذا المعبد هو أول حرم مقدّس شادته يد الإنسان لكي يكون حرمًا للعبادة. وهذا ما صدقه القرآن الكريم وأكّده في محكم آي الذكر الحكيم حيث قال: ﴿إن أوّل بَيْتٍ وُضِعَ للنّاسِ للّذي بِبَكّةَ مُبارَكًا وهُدًى للعَالِمَينَ﴾ (آل عمران، الآية ٩٦).

وقد تعرّض «البيت الحرام» للخراب والهدم غير مرّة، وذلك بفعل السيول ونتيجة

الحروب. والمعروف أنّ عبد الملك بن مروان هدم ما كان قد بناه ابن الزبير وأعاد البناء إلى ما كان عليه في عهد الرسول ﷺ. وكانت عناية سلاطين المماليك بالحرم عظيمة، فقد أعاد بناء الكعبة والحرم السلطانُ الظاهر بيبرس، وآخر مرّة أعاد فيها المماليك بناء الحرم المكي كانت عام ٨٦٨هـ (١٤٦٤م). وعندما دخلت الأراضي المقدسة في رعاية سلاطين آل عثمان رعوا الحرم واهتموا بصيانة بنائه منذ عهد السلطان سليم الأول. ولمّا جاء السلطان سليمان القانوني (٩٢٦- ٩٧٣هـ/ ١٥٢٠-١٥٦٥م) أعاد بناء الكعبة والحرم وأعطاهما الشكل الباقي إلى اليوم على وجه التقريب. وقد حافظت حكومة المملكة العربية السعودية على التصميم الموضوع وعمدت إلى إتقانه وتجميله. وبموجب التصميم العثماني اتسع الحرم حول الكعبة وغدت مساحته في حدود أربعين ألف متر مربّع. وأعيد إنشاء البوائك المحيطة بالحرم، كما أُزيلت الأعمدة الرخامية القديمة، وهي ترجع الى أيام السيدة زبيدة زوجة الخليفة الرشيد، ووضعت مكانها ٨٩٢ دعامة من الرخام. وبين الدعامات أُقيمت أعمدة من الحجر الرملي لحمل البوائك والسقف والقباب الصغيرة التي بلغ عددها خمسماية، وهذه القباب بنيت من الحجر بعدما كانت مصنوعة من الخشب.

أمّا زخارف الحرم وكتاباته فتمت على يد مصوّر تركي هو عبدالله لطفي الذي اتبع قاعدة خط الثلث المذهب على قاعدة من الأزرق العربي المعروف باسم الاستبرق. وفي عام ٩٩٤هـ (١٦٨٥م) بُطنت جدران الحرم بالرخام الملوّن، وجُددت قناديله وعُلّقت فيه ثريات على شكل رؤوس النخيل. كما شيدت للحرم مآذن جاءت كبراها مستديرة على الطراز العثماني.

في مطلع القرن الحادي عشر (السابع عشر للميلاد) بدا التصدّع في بناء الكعبة، وفي عام ١٠٣٩ هـ (١٦٢٩ م) هدم سيل عارم ركنين من أركان الكعبة، وهذا ما أوجب إزالة البناء وإعادته مجددًا، مع إعادة وضع الحجر الأسود في مكانه. وقد تمت عملية البناء باشراف مهندسين مصريين وأتراك. وعندما جاء وقت وضع الحجر الأسود في مكانه فعل القضاة وأشارف مكّة ما فعلته قريش عندما أعادت بناء الكعبة في عهد النبي ﷺ. فقد وضعوا الحجر في ثوب ورفعوه من الأطراف. والمعروف أنّ المهندسين استعملوا في البناء أحجار الكعبة نفسها، ذلك أن بعضها يعود إلى أيام النبي ﷺ، كما احتفظوا بالقاعدة المبنية من البازلت الأخضر والتي يقال ان تلك الحجارة بنى بها ابراهيم واسماعيل البيت المعظم.

وقد احتفظ المهندسون بالأعمدة الخشبية التي تدعم سقف الكعبة، بعدما عالجوا خللها ودهنوها بمواد واقية، وأعيد وضع الباب الصغير الذي كان السلطان سليمان قد أمر بوضعه للكعبة، وكان هذا الباب مغطى بصفائح من الذهب والفضّة. كما صنع للكعبة ميزاب من الذهب المزخرف بالمينا الزرقاء، وبُطنت الكعبة بالحرير الأحمر، وغطيت من الخارج بالحرير الأسود.

واستمر البناء على حاله حتى مطلع القرن الثامن عشر عندما قام والي مصر والحجاز محمد علي بإعادة بناء الحرم المكي كله، فجدّد أعمدته وحجارته و رخامه وأصلح مآذنه، وكان ذلك عام ١٨٢١.

والمعروف ان « البيت الحرام » تناولته التغييرات غير مرة، نتيجة تزايد عدد المسلمين الوافدين لأداء فريضة الحج. وتجديد مباني الحرم كله ليصبح على الشكل الذي نراه اليوم كان بأمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، فوُسّعت ساحته. وفي عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٨م) أمر الملك سعود بن عبد العزيز بتجديد مباني الحرم باشراف ولي العهد فيصل بن عبد العزيز، وتتسع ساحة الحرم اليوم لنحو مليون مصلّ، ويحيط بالحرم شارع عرضه ثلاثون مترًا.

من مظاهر تعظيم الكعبة المشرّفة ما جرت عليه عادة الملوك والحكام والسلاطين من تقديم الحلل الثمينة لكسوتها. وهذه العادة كانت متبعة في الجاهلية وبقيت مستمرة في الإسلام وما تزال اليوم قائمة. وعاهل المملكة العربية السعودية هو خادم الحرمين الشريفين.

ويروي المؤرخون أنَّ أوّل من قام بكسوة الكعبة في الجاهلية هو تبّع الحميري ملك اليمن. وتشير الأخبار إلى أنّ أم العباس بن عبد المطلب هي أول من كسا الكعبة المشرفة من النساء، كستها بالحرير والديباج وفاء لنذر نذرته. أمّا النبي ﷺ فقد كساها بالثياب اليمانية. وكانت كسوة الكعبة أيام معاوية بن أبي سفيان من الديباج الأحمر، وعمد الخليفة العباسي المأمون الى كسوتها ثلاث مرات في السنة. وكان الخلفاء يضعون الكسوة فوق ما وضعه من سبقهم، وعندما حج الخليفة العباسي المهدي سنة ١٦٠هـ شكا إليه سدنة الكعبة أنّ ما على الكعبة من كسوة أثقلت كاهلها وبات يُخشى من تقوّض البناء وانهياره. فأمر الخليفة بأن لا يكون عليها غير كسوة واحدة، واستمر العمل بهذه العادة حتى اليوم.

الحَرَمُ النبَويّ الشّريفُ

لم يكن للمسلمين مسجد بالمعنى المعروف قبل هجرة النبي ﷺ من مكّة المكرمة الى المدينة المنوّرة. والذين آمنوا بالإسلام كانوا يتخذون لأنفسهم مكانًا يلتقون فيه للصلاة. ولم يكن الحرم النبوي أول مسجد بناه الرسول، فقد سبقه مسجد قباء الذي أنشأه سعد بن خيثمة بإشارة من الرسول. وعندما أَذِنَ الله عزّ وجل لرسوله ﷺ بأن يهاجر إلى يثرب حيث انصاره، حاول كل واحد من هؤلاء الأنصار أنْ يكون له شرف نزول النبي ﷺ في أرضه وبين أهله. إلا أنَّه طلب إليهم ألاّ يعترضوا سبيل ناقته التي بركت في المكان الذي اتخذه أبو أُمامة للصلاة بأصحابه قبل الهجرة. وكان هذا المكان مربدًا لتجفيف التمر يملكه غلامان يتيمان من بني النجّار هما سهل وسهيل ابنا عمْرو، وإلى جانب المربد بستان لبني النجار فيه نخل وبطرفه قبور لبعض أهل الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «ثامنوني بحائطكم»، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله. ولكنه أبى إلاّ أنْ يدفع الثمن وابتاع المكان بعشرة دنانير.

جاء المسجد مساحة مستوية يحيط بها سور يعيّن حدود المكان المخصص للصلاة. ولم تكن هناك حاجة إلى تغطية هذه المساحة بسَقْف فسُقف جزء منها، إذ نصبت جذوع نخل بصفين موازيين للجدار الشمالي، ثم غطي ما فوقهما بعريش من خشب وسعف وأغصان، وفي الجهة المقابلة أُقيم عريش مماثل. لقد كانت جذوع النخل في كل من العريشين صفّين وفي كل صف ستة جذوع، ثم وُسّع المسجد في أيام الرسول ﷺ فأُضيف إليه عشرة أذرع في العرض وعشرون في الطول. وغدت مساحة المسجد في السنوات الأخيرة من حياة الرسول نحوًا من ثلاثة آلاف وخمسماية متر مربع.

وفي الركن الجنوبي الشرقي لصحن المسجد ابتنى الرسول غرفه التي عاش فيها مع أزواجه، ولم يكن للغرف أبواب فأُسدلت عليها أستار تحجب الداخل عن الخارج. وكان الرسول ﷺ يجتمع بأصحابه خارج الحجرات في صحن المسجد. أمّا السور فكانت له ثلاثة مداخل أو أبواب من الشرق والغرب والجنوب، ذلك أنّ القبلة كانت باتجاه القدس قبل نقلها لتصبح باتجاه مكة المكرّمة، كما كان المسجد من دون محراب.

في عام ٢٩هـ (٦٤٩م) جدد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان الحرم النبوي فزاد عليه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنحوتة، وطلى الجدران بالجص، كما جعل عمده من الحجارة. وقد زاد في ارتفاع جدران المسجد وفتح نوافذ في أعلى الجدار قرب السقف الى اليمين والشمال في بيت الصلاة، وأشرف على العمل زيد بن ثابت.

وبين سنتي ٨٨ و٩١هـ (٧٠٦و٧٠٩هـ) أعاد الوليد بن عبد الملك بناء المسجد على يد واليه عمر بن عبد العزيز وقد أرجعه إلى الشكل نفسه الذي كان عليه أيام عثمان بن عفان، ولم يزد إلاّ في العرض.وفي عهد المهدي الخليفة العباسي أُدخل تعديل جديد على المسجد سنة ١٦٠هـ(٧٧٨م) فزادت مساحته من جهة الشمال وزُخرفت المجنّبة الخلفية المقابلة لبيت الصلاة بالفسيفساء. وبقي المسجد على الشكل الذي وضعه المهدي مدّة أربعة قرون، إلى أن شبّ فيه حريق عام ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) فأعاد السلطان الظاهر بيبرس بناءه على الشكل السابق عينه.

وقد كانت العناية بالحرم النبوي مستمرة في عهد المماليك الذين عمدوا الى تجديده غير مرة، وقد عُينت إدارة خاصة بالحرمين المكي والمدني. وآخر من أعاد بناء المسجد، بعد بيبرس، السلطان سيف الدين لاشين سنة ٨٦٨هـ (١٤٨١م).

ثم تولى الأمر سلاطين آل عثمان، وقد رمّمه سليمان القانوني عندما جدد الحرمين سنة ٩٤٠هـ (١٥٢٩م)، وما زال جزء كبير من تجديد سليمان باقيًا الى اليوم عند باب السلام في الواجهة الغربية للمسجد. ويعتبر المنبر الذي أهداه سليمان لمسجد النبي ﷺ من آيات فن الحفر في الخشب.

وفي سنة ٩٩٤هـ (١٥٣٣م) رُمم الحرم النبوي مرة جديدة، ثم في سنة ١١٢٧هـ (١٧١٥م)، وفي سنة ١١٩٦هـ (١٧٨٢م) شُيد للمسجد محراب جديد من المرمر الملوّن

وأقيمت فوق موضع المحراب قبة جميلة. وقد أهدى الملوك والأمراء والأتقياء هدايا نفيسة ومتنوعة للحرم النبوي ما زالت باقية حتى اليوم، منها الأهلة الذهبية المرصعة بالجواهر، وفي داخل كل هلال نجم ذهبي، وهذه الذخائر معلّقة بداخل الروضة الشريفة وفي روضة السيدة فاطمة الزهراء.

في سنة ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) قام محمد علي والي مصر بإعادة بناء الحرم النبوي، وقام بالعمل مهندسون مصريون وأتراك، واشترك في العمل المعلّم ابراهيم كبير البنائين المصريين والخطّاط التركي شكرالله، وإلى هذا التجديد ترجع القبّة الخضراء الباقية إلى اليوم.

ثم قام السلطان عبد الحميد الأول المتوفى سنة ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م) بتبطين المسجد كله بالرخام الوردي. وبسبب هذا الرخام أصبح المسجد يعرف باسم المسجد الوردي.

أمّا التعديل الأخير فقد تمّ في عهد الملك عبد العزيز آل سعود. فأضيفت إلى المسجد أبواب جديدة تفضي إلى بيت صلاة رائع يقوم على أعمدة فخمة من المرمر، كما رصفت ارض المسجد بالمرمر. ويبلغ عدد الأعمدة الجديدة ٢٣٢ عمودًا، وأنشئت واجهة بديعة عرفت باسم واجهة الملك عبد العزيز، تزينها مئذنتان يبلغ ارتفاع كل منها ٧٥ مترًا. كما أضيفت إلى المسجد بهذه الزيادة مساحة كبيرة.

رأينا في الحديث عن الحرم النبوي أن قبلته كانت باتجاه بيت المقدس. إلا أن القبلة لم تبق في هذا الاتجاه إلا ستة عشر شهرًا، ثم تحوّلت إلى اتجاه الكعبة المشرّفة. وقد ذكر الرواة ان النبي ﷺ لم يكن مرتاحًا لاستقبال بيت المقدس في صلاته، وأنه كثيرًا ما كان يتمنى على ربّه ان يصرفه عن هذا الاتجاه ويجعل قبلته إلى البيت الحرام حيث الكعبة المشرفة. وبينما كان النبي ﷺ يصلي ذات يوم أشار له جبريل عليه السلام: يا محمد صلّ إلى البيت. فدار النبي إلى البيت وانزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحرام﴾ (البقرة،١٤٤).

وقد أثار تحوّل النبيّ عن الصلاة باتجاه بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة تذمرًا بين اليهود، ورأوا في عمل النبي ﷺ انتقاصًا من كبريائهم الدينية، فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ الآية الكريمة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ والمَغْرِبُ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة، ١٤٢).

الجامعُ الأُمَويّ في دِمَشق

لهذا الجامع أسماء متعددة عُرف بها، فهو جامع دمشق وجامع بني أميّة والجامع الأموي والجامع المعمور، وقد بني على بقايا هيكل قديم يرجع تاريخه إلى العهد الروماني، وكان قد تحوّل الى كنيسة للنصارى.

وعلى أثر دخولهم دمشق صلحًا عام ١٤هـ (٦٣٥م) قاسم المسلمون النصارى كنيسة القديس يوحنا المعمدان، على ما ورد في بعض الأخبار، ورُفع داخل الكنيسة جدار يفصل بينهما. وبعد تزايد عدد المسلمين ضاق القسم المخصص لهم بالمصلين، فرغب معاوية في أنْ يُلحق الكنيسة بالمسجد، ولكنه تراجع عن تلك الفكرة لئلا ينقض العهد، وكذلك كان حال الخليفة عبد الملك. وعندما تسلّم الوليد بن عبد الملك الخلافة قدم للنصارى قطعة أرض مقابل التخلي عن كنيستهم، ثم بدأت عملية الهدم والبناء والترميم وانتهت عام ٧١٥م.

جاء في كتاب «مختصر تاريخ الإسلام» لشمس الدين الذهبي: «وبنى الوليد جامع دمشق وزخرفه، وكان قبله نصفه كنيسة للنصارى ونصفه الذي محراب الصحابة به للمسلمين، فأرضى الوليد النصارى بعدة كنائس صالحهم عليها فرضوا ثم هدمه...». كما يتوقف ابن جبير عند هذا الموضوع فيقول: «والوليد هو الذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى وأدخلها فيه، لأنه كان قسمين: القسم الشرقي للمسلمين والقسم الغربي للنصارى. فصيّر المسلمون النصف الشرقي مسجدًا وبقي النصف المصالح عليه كنيسة بأيدي النصارى، إلى أن عوّضهم منه الوليد...».

بعد الفراغ من نقض البناء وهدمه حتى أساساته بقسميه الإسلامي والنصراني أمر الوليد بتأمين العمال لبناء مسجده، واستعان بحذّاق البناء والزخرفة من البلدان المجاورة. وقد استخدم المهندسون المساحة كلها فغطى المسجد الجديد المساحة القديمة. ولما كان الجدار الطولي للمساحة يتجه إلى الجنوب أي نحو مكّة فقد جعلوه جدار القبلة. وبُني جداران موازيان في الجهة الشرقية وآخران في الجهة الغربية، ثم أقيم عدد من الغرف بين هذه الجدران الأربعة، ومداخل عالية تفضي إلى صحن المسجد، وأُعدت الغرف لتكون مكتبة وأمكنة للعلم.

أصبح طول بيت الصلاة ١٣٦م وطول صحن المسجد ١٢٣م من دون المداخل، وبلغ طول جدار القبلة ١٩٠م. أمّا المداخل من الجهات الثلاثة فبلغ عرض كل منها سبعة أمتار، وجعل المهندسون باب بيت الصلاة المؤدي إلى الصحن بابًا فخمًا كأنه باب مسجد كامل، خصوصًا أنه يؤدي إلى الرواق الأوسط الذي ينتهي بالقبلة.

رصفت ارض صحن المسجد بالرخام، واحيط بأروقة ذات عقود تحملها أعمدة مربّعة الشكل. وفي هذا الصحن شُيِّدت أبنية ثلاثة صغيرة، أهمها بيت المال الذي أقيم في عهد الوليد ويعلو البناء قبّة مثمّنة الجهات. ونشير إلى أن قصر الخلافة كان ملاصقًا للمسجد الجامع، فينتقل الخليفة بذلك من قصره الى المسجد عبر باب القبلة.

أمّا بيت الصلاة فيقوم على أعمدة رخامية ضخمة وقديمة يبلغ عددها ستين عمودًا، وهي تحمل عقودًا عادية مستديرة وتقسم المسجد إلى ثلاثة أروقة واسعة ومتوازية باتجاه جدار القبلة، والأروقة متقاربة الاتساع وكل رواق يحده عشرون عمودًا. وعلى الرغم من ضخامتها وجمال شكلها فان طول الأعمدة لم يكن مناسبًا للارتفاع الذي يفرضه سقف المسجد. لذلك اقيم فوق جدارٍ مرتكزٍ على العقود مجموعة من الأعمدة القليلة الارتفاع تحمل أقواسًا صغيرة تستلقي عليها جسور خشبية مزخرفة تسند بدورها عوارض خشبية تغطي السقف بكامله.

بالقرب من الجدار الجنوبي ترتفع أعمدة ضخمة تحمل قاعدة القبّة، وهذه القاعدة مثمنة الجهات وفي كل جهة نافذتان. وتعلو القاعدة قبّة ضخمة يطلق عليها اسم « قبّة النسر ».

أظهر المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب إعجابهم بالمسجد الجامع في دمشق، واطلقوا العنان لأقلامهم في وصفه، أمثال المقدسي والادريسي وياقوت وابن جبير. وقد غدا نموذجًا لعدد من المساجد، لا سيما في حرّان والرصافة وحلب وحماه.

وقد احترق هذا المسجد الجامع عدة مرات، اولها سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) وآخرها سنة ١٨٩٣ أيام السلطان عبد الحميد الثاني، والبناء الحالي بأعمدته وشكله يرجع الى عهد هذا السلطان. على أنّ كل الترميمات التي توالت حافظت على مخططه الأول وعلى هندسته الأموية من دون تعديل.

فالبناء الذي أقامه الوليد بن عبد الملك وأكمله أخوه سليمان في أواخر القرن الأول للهجرة بقي سليمًا بهيكله ونقوشه وزخارفه حتى عام ٤٦١ (١٠٦٨م). وفي ليل منتصف شعبان من تلك السنة اندلع حريق بدار الملك وهي الخضراء، أي دار الامارة التي بناها معاوية بن أبي سفيان في الجهة القبلية من المسجد فاحترقت الدار وسرى الحريق إلى الجامع فسقطت سقوفه وتقلّعت زخارفه وصارت أرضه طينًا في الشتاء وغبارًا في الصيف، وغدا مهجورًا وبقي على هذه الحال أربع عشرة سنة. وعندما وزر نظام الملك، مؤسس المدرسة النظامية، للسلطان ملك شاه السلجوقي، عمد إلى ترميم المسجد وإلى تجديد السقف والقبّة.

وفي سنة ٥٦٢هـ (١١٦٦م) سقطت بعض أطراف المسجد بسبب حريق اندلع بباب اللّبادين انتقلت ناره الى المسجد من جهة باب جيرون. وفي سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) احترقت المئذنة المسماة بالعروس وتصدّع الجدار الشمالي ومال إلى السقوط، فلما كان عام ٥٧٥هـ (١١٧٩م) احترقت المئذنة الشرقية فأمر الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل بتجديدها. وفي سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢م) شب حريق في سوق اللبّادين وسوق جيرون وطالت النيران الجامع فأحرقت قسمًا من سقفه. وفي عام ٧٤٠هـ (١٣٣٩م)، في زمن الملك الناصر، اندلع حريق هائل داخل المسجد فهوى سقفه وتصدعت جدرانه، فأعاد الناصر بناءه.

في عام ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) اجتاح الشرق إعصار مدمّر من جحافل المغول، بقيادة تيمورلنك، ولما وصل المغول إلى دمشق أعملوا فيها النهب والقتل والهدم والحريق. وقد جاء في «صبح الأعشى» للقلقشندي: «وكان تيمور سار من دمشق في يوم السبت ثالث

شهر شعبان سنة ٨٠٣هـ بعدما أقام على دمشق ثمانين يومًا، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق، وزالت أبوابه، وتفطّر رخامه، ولم يبق غير جدره قائمة. وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسومًا خالية..». مع ذلك أعيد بناء المسجد، إلاّ أن حريقًا آخر اندلع عام ١٠٦٤هـ (١٦٥٠م) وحريقًا مماثلاً اندلع سنة ١١٣١هـ (١٧١٨م)، ولكن هذين الحريقين لم لتركا أضرارا بالغة.

أمّا الحريق الأخير فقد كان عام ١٣١١هـ (١٨٩٣م) في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. فقد أفاقت دمشق صباح السبت رابع ربيع الثاني من ذلك العام على صراخ الناس بأنّ الجامع يحترق. يقول صلاح الدين المنجد في مقاله «حريق الجامع الأموي ايام العثمانيين» والمنشور عام ١٩٥٣: «ترك التجار مخازنهم مفتوحة ووثبوا ينظرون، وتراكض الناس من كل جهة، وإذا الدخان يتصاعد من سقف الجامع، وحار الناس ماذا يصنعون، فاستبقوا الى سجاد المسجد ومصاحفه يخرجون ما يصلون إليه.

وعمد بعضهم إلى الماء يصبونه وإلى المعاول لحصر النار. ولكن النار كانت أسرع منهم اذ كان خشب السقف قديمًا جافًا وعليه من الأصبغة والأدهان طبقات، فما شمّ رائحة النار حتى التهب كله دفعة واحدة كأنما صُبّ عليه البنزين. وكانت الرياح في ذلك اليوم غربيّة شديدة، فما مرّت نصف ساعة حتى صار السقف كله شعلة واحدة، فالتهب المسجد كله ولم يعد يستطيع أحد ان يقترب منه. وكانت عمد المسجد قديمة أكثرها مكسور ومربوط بأطواق الحديد، فتشققت من النار، ثم هوى البناء كله. وامتدت النار تسوقها الرياح الغربية الى سوق القباقبية والقوّافين وزقاق الحمراوي، وانجلى الدخان عن الخراب الشامل، ولم يبق من الأموي إلا المشهدان عند باب البريد ورواق الصحن.. وهكذا ذهب المسجد كله في ساعتين ونصف الساعة، المسجد الذي أُنفقت فيه الأموال والأعمار، وعملت في بنائه الأفكار والأيدي ألفًا وثلاثماية سنة، ذهب كله في مائة وخمسين دقيقة...».

بعد انتهاء الكارثة انصرف الناس الى تنظيف الجامع، فاشترك في العمل الكهول قبل الشباب والأغنياء قبل الفقراء، وتكفّل الميسورون باطعام العاملين في المسجد، وغدا الناس

كأنهم أسرة واحدة يعمل افرادها في بيت الله وينزلون ضيوفًا عليه. ثم أُلفت في كل حي لجنة لجمع المال من أجل عمارة المسجد فتزاحم الناس على البذل. وقبل البدء بالبناء جيء بالأعمدة الرخامية من جبال المزّة، وصنعت لذلك عربة مستطيلة واطئة تجرّها الثيران، لها ملاقيط لالتقاط العمود وحمله. وقد بوشر في البناء سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) وأُنجز بناء النصف الشرقي من الجامع بعد سنتين ففُرش بالسجاد وعُلّقت فيه الثريات والمصابيح، وأقيم حاجز خشبي من جهة الغرب ووضع المنبر الى جانب محراب المالكية، وافتُتح في رمضان سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) في حفلة حضرها الوالي والعلماء والوجهاء.

ثم انتقل العمل إلى القسم الآخر فبُني محراب الحنفيّة وزُخرف على الشكل الذي يُرى فيه اليوم. واكتمل بناء المسجد كله في ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م).

لم تكن الحرائق وحدها هي التي تواطأت على تشويه جمال المسجد، فهذا الأثر الإسلامي العريق ضربته الزلازل غير مرة عبر تاريخه الطويل. ففي سنة ١٣١هـ (٧٤٨م) أطاح زلزال آخر بمنارة المسجد، كما ضرب زلزال ثالث المنطقة وتسبب في تقلّع فسيفساء المسجد. وفي عام ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) أصيب المسجد بأضرار جسيمة من جراء زلزال آخر، كما تصدعت جدرانه بسبب زلزال عام ٧٠٢هـ (١٣٠٣م)، وآخر زلزال تأثر به المسجد كان عام ١١٧٣هـ (١٧٥٩م).

على الرغم من النكبات التي حلّت بالجامع الأموي فان المسؤولين كانوا يحرصون، في مجال إعادة بنائه وترميمه، على ان يعيدوا إليه شكله الأساسي. والحكومات التي تعاقبت اهتمت بإعادة رونقه القديم بما يتناسب والتراث الإسلامي.

المسجد الأقصى

يأتي ذكر هذا المسجد في الآية الأولى من سورة الاسراء، حيث يقول تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيْر﴾.

فالمسجد الأقصى والمسجد الحرام يتشاركان في الأهميّة الدينية، ولو لم يكن الأمر كذلك لما اختار الله عزّ وجل لنبيّه محمد ﷺ العروج إلى السماء من المسجد الحرام بمكة المكرمة عبر المسجد الأقصى ببيت المقدس. فهو معبد اسلامي يتمتع بخصائص دينية مميّزة عند المسلمين.

عندما فتح الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب مدينة القدس سنة ١٥هـ (٦٤٨م) رغب في بناء مسجد حول الصخرة المقدسة، من أجل إقامة صلة بين مكانين مكرمين في الإسلام وهما مكّة المكرّمة والقدس الشريف. واقترح عليه أعوانه بجعل الصخرة من جهة القبلة، لكنه فضّل أن تكون الصخرة وراء المسجد فيكون هذا الأخير امتدادًا للصخرة باتجاه القبلة. وهكذا تألف المسجد من صحن كبير تشكل الصخرة جزءًا من جهته الشمالية، ومن بيت للصلاة في غاية البساطة ينتهي بجدار القبلة، فبدا البناء مسجدًا في العراء وكأنه من دون بيت للصلاة.

فيما بعد أراد الخليفة عبد الملك أن يرفع بناءً يليق بقدسية المكان، فبدأ بتشييد القبّة عام ٦٩هـ (٦٨٨م) وانتهى العمل بها في عهد الوليد. وكان التفكير بتغطية الساحة الكبيرة التي شكلت المسجد في عهد عمر، وبدا الأمر مستحيلاً فاكتُفي بقسم منها.

والمسجد الأقصى ليس له صحن بالمعنى المعروف في سائر المساجد، فقبّة الصخرة تشغل مساحة الصحن والمسجد المجاور يشكل معها ما يعرف باسم «الحرم الشريف». وتتوزع في الساحة الفاصلة بين القبّة والمسجد مجموعة أبنية مثمّنة الجهات، ونوافير، وما يعرف باسم قبة السلسلة ولها عشر جهات.

مرّ المسجد الأقصى بمراحل متعددة منذ أن بني في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان. ففي سنة ٧٤هـ (٦٩٣م) أمر عبد الملك بمباشرة البناء، ولكن ابنه الوليد هو الذي أتمّ البناء وأنجزه سنة ٨٦هـ (٦٩٣م). ولم يبق من مسجد الوليد إلا العقود القائمة على أعمدة من الرخام على يمين القبة الصغيرة عند المدخل ويسارها.

وفي عام ١٣٠هـ (٧٤٧م) تهدم معظم مسجد الوليد في زلزال قوي. فأمر الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بإعادة بنائه سنة ١٤٠هـ، وكان قد أمر بقلع صفائح الذهب من ابواب المسجد وسكّها نقودًا انفقت على عملية البناء والترميم. ثم تهدم المسجد مرة اخرى بفعل زلزال آخر، ورُفع الأمر إلى المهدي فقال: رث هذا المسجد وطال وخلا من الرجال، أنقصوا من طوله وزيدوا في عرضه. وهكذا تمّ انشاؤه بأمر المهدي سنة ١٦٣ هـ وأعطي المسجد الشكل والحجم الحاليين.

إلاّ أن معظم بناء المهدي تهدّم في زلزال وقع في مطلع القرن الثالث، فوزّع المأمون بناءه على أمراء الأطراف فيبني كل منهم رواقًا على نفقته ضمن هندسة موحّدة. وزُلزل البناء مرة اخرى سنة ٤٢٤هـ (١٠٣٣م)، وقد احتفظ المقدسي بوصف يبرز شكل المسجد قبل الزلزال فيقول: «إنَّ بيت صلاته كان يتكون من ستة وعشرين رواقًا تشرع كلها من جدار القبلة إلى الصحن، أما أبواب المسجد فكانت سبعًا أكبرها هو الأوسط، وكان الباب الرئيسي ملبسًا بالنحاس، وكانت تتوسط الرواق الأوسط قبة لطيفة. وفي عام ٤٢٦هـ أمر الخليفة الفاطمي الظاهر باصلاح ما خربته الزلازل، إلاّ أنه ضيّقه من جهتيه الشرقية والغربية بإزالة أربعة أروقة.

عندما احتل الصليبيون القدس الشريف حولوا المسجد الى كنيسة وجعلوا بعض أقسامه مساكن لمنظمة فرسان الهيكل، وأضافوا إليه من الجهة الغربية وعلى محاذاة حائط الحرم القبلي صفًا من القناطر المعقودة وجعلوا هذه الزيادة مخزنًا لأسلحتهم، واتخذوا من

السراديب التي تحته اسطبلاً. إلاّ أنّ السلطان صلاح الدين الأيوبي حرّر القدس سنة ٥٨٣هـ (١١٧٨م) وأمر بإعادة المسجد إلى ما كان عليه، فأزال منه الزيادات التي أضافها الصليبيون وجدّد محرابه ونقل إليه المنبر الذي كان أهل حلب قد صنعوه بأمر من السلطان نور الدين زنكي.

ثم تعاقب الملوك والسلاطين على إصلاحه وترميمه وتركوا فيه آثارًا تشير إلى عنايتهم به. فالملك عيسى أمر بإنشاء الرواق في الواجهة الشمالية، وهو يشتمل على سبع قباب مع أبواب خشبية ما تزال قائمة. والملك قلاوون أمر بتعمير سقف المسجد من ناحيته القبلية، والملك الأشرف رمّم المسجد بعامة، والملك الأشرف قانصوه الغوري، آخر المماليك، أجرى تعديلات عامة على المسجد. أمّا السلاطين العثمانيون فقد شاركوا بدورهم في العناية بالمسجد الأقصى ولا سيما منهم سليمان القانوني ومحمود الثاني وعبد الحميد الثاني.

في عام ١٩٤٥ ضرب اليهود مدينة القدس بالقنابل فدمروا الباب الأوسط للمسجد وأصابوا قبته بأضرار جسيمة. وعندما احتل اليهود مدينة القدس عام ١٩٦٧ بدأوا الحرب بقصف المدينة فأصابوا المسجد بأضرار بالغة. وفي الثامن من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩هـ (٣١ آب ١٩٦٩م) قام أحد الموتورين من التابعية الأوسترالية بوضع صفيحة من البنزين عند قاعدة منبر نور الدين في المسجد وأضرم النار التي احرقت المنبر الأثري ووصلت النيران إلى أخشاب القبّة، وقد أعيد ترميم ما أتى عليه الحريق.

والمسجد الأقصى الحالي عمل معماري يجمع بين البساطة والجلال، والبناء ليس متينًا برغم ضخامته، فالجدران التي تحمل القبّة ليست قوية، والقبّة نفسها تقوم على هيكل خشبي، كما أنَّ زينة الجدران قليلة. وترجع فخامة الجامع إلى سعة بيت الصلاة التي تملأ النفس روعة، وهذه السعة هي التي جعلت المعماري يكتفي بتسقيفه بالخشب.

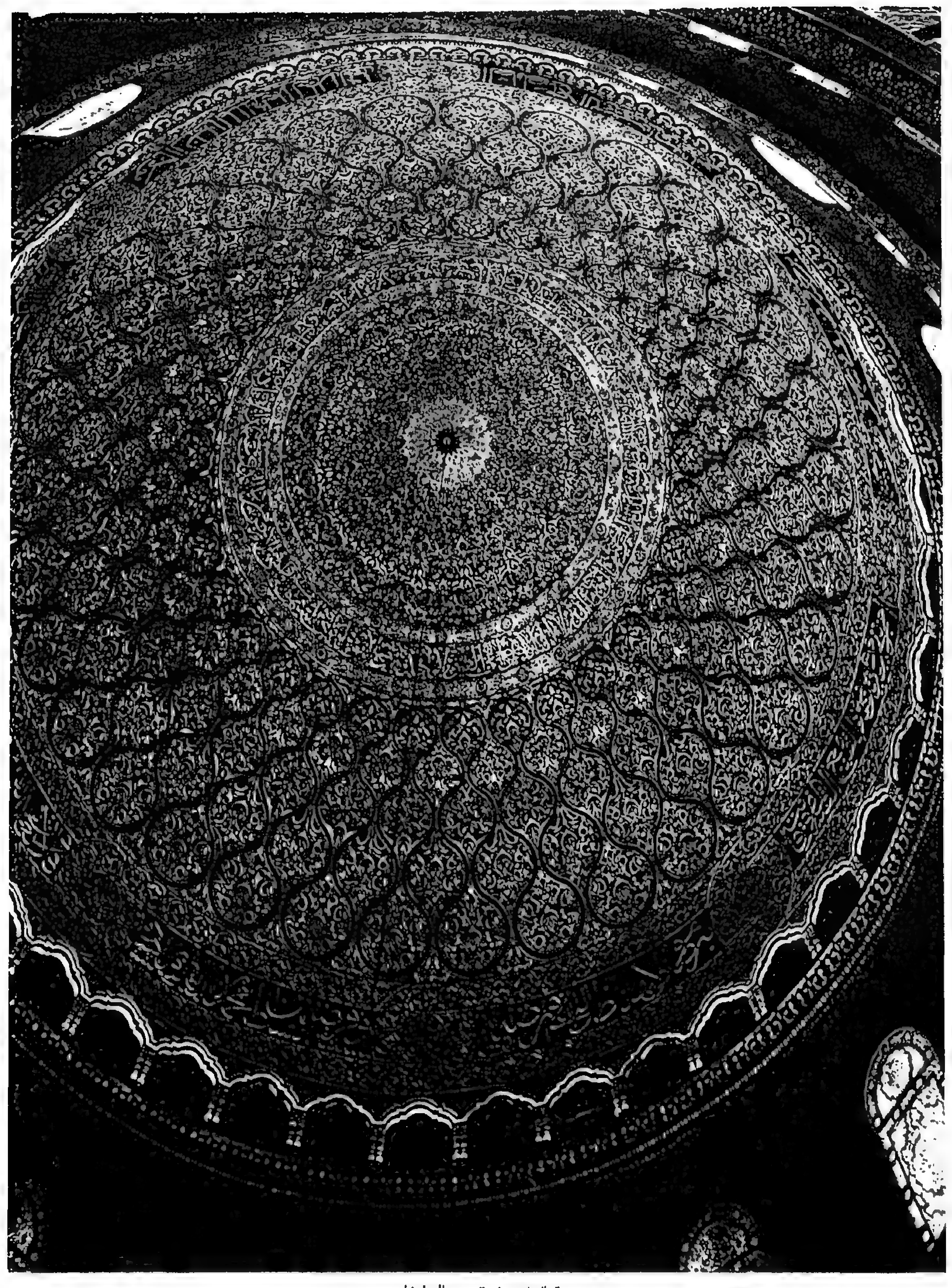
قبّة الصخرة

قبّة الصخرة مبنى خاص يختلف في شكله وغايته عن المساجد، ولا نقع في العالم على بناء رفع تكريمًا لصخرة وتخليدًا لحدث ديني وتاريخي، مع العلم ان هناك فرقًا بين الكعبة المشرفة التي تضم في ركن من أركانها الحجر الأسود ومبنى القبة فوق الصخرة في الحرم الشريف.

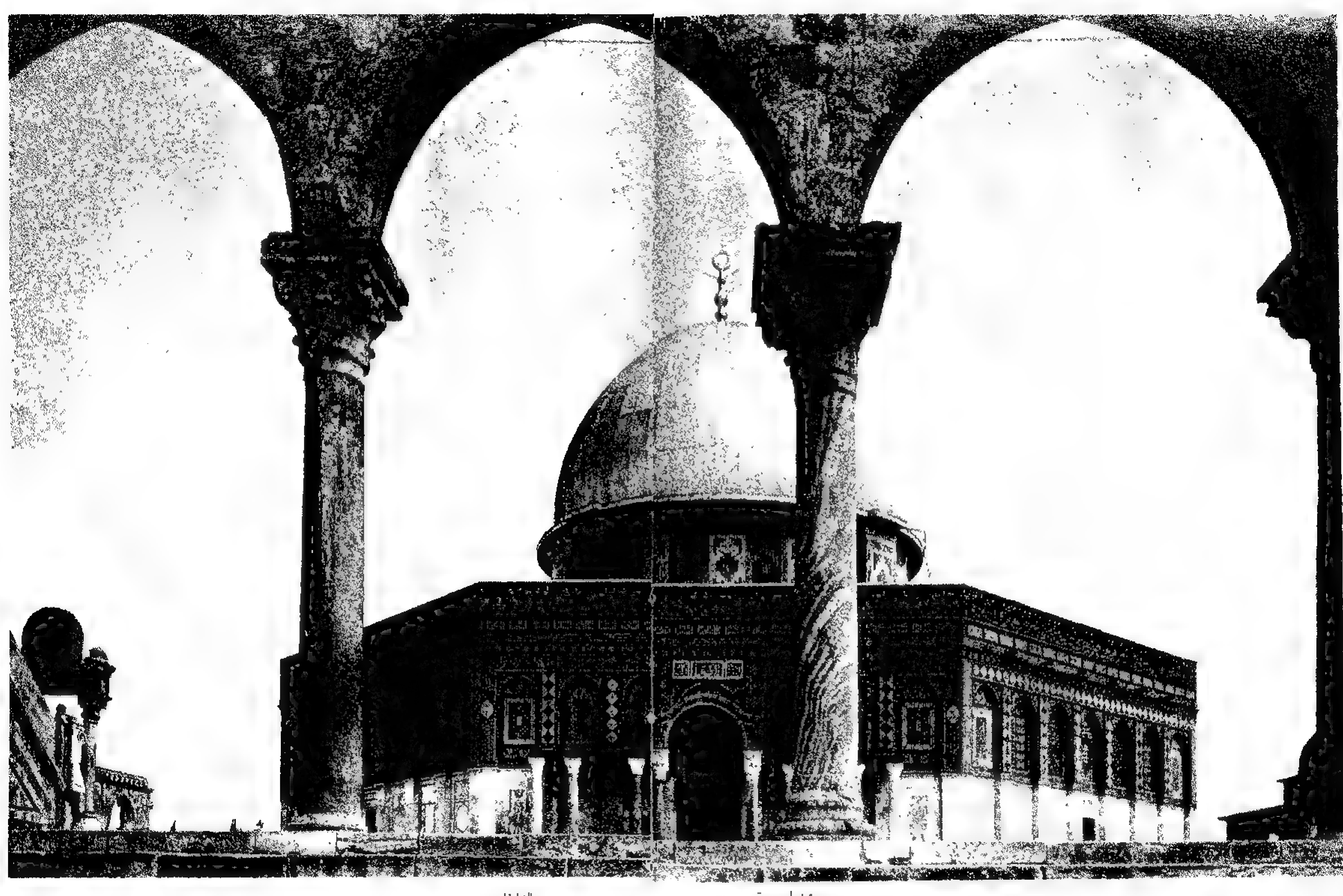
والخليفة عمر بن الخطاب كان أول من فكر في حماية الصخرة، فأمر بإنشاء ظلّة من الخشب فوقها. وبقيت الظلة قائمة إلى أن جاء عبد الملك بن مروان وقرر في عام ٦٩هـ (٦٨٨م) أنْ يستبدل بها عملاً فنيًا يتناسب مع ما لهذه الصخرة من مكانة في قلوب المسلمين، وقد انتهى العمل بالقبّة عام ٧٢هـ(٦٩١م). واستعان لعمله بمهندسين وبنّائين بيزنطيين وشاميين.

والمبنى قاعة واسعة من ستة أضلاع يبلغ ارتفاعها ١٢،١٠م وهي بمثابة قاعدة للقبة، ويتراوح عرض كل ضلع بين ٢٠،٢٣ و٢٠،٩٦م. والجدران الخارجية مكسوّة في قسمها السفلي بقطع رخامية الى ارتفاع النوافذ، والقسم العلوي مغطى بالفسيفساء المتنوعة ذات بريق زجاجي وقاشاني تركي، وهذا القسم القاشاني يعود إلى سنة ١٥٥٤. وفتحت في القسم العلوي، من كل جهة سبع نوافذ، اثنتان منها حُوّلتا إلى مشكاتين زُينتا بأنواع الفسيفساء، من كل جهة مشكاة، والخمسة الباقية شُبكت بأشكال خزفية متشابهة، وقد زُيّن الإفريز الأعلى بآيات من القرآن الكريم.

تقع الواجهة الرئيسية للقاعدة من جهة القبلة حيث المسجد، وتنفتح على صحن المسجد



قبة الصخرة من الداخل.



قبة الصخرة من الداخل.

بمدخل قائم على ثمانية أعمدة (أربعة من كل جهة) ذات تيجان خليطة وفوقها كنّة مع عقد نصف دائري يعلو البوابة الرسمية.

فوق قاعدة القبة بناء اسطواني مكسوّ بالفسيفساء الزجاجي، ارتفاعه ٥،٧٠م، وحوله أربعة دعائم تحمل القبّة، وبين هذه الدعائم ست عشرة نافذة مقفلة بمشبكات ملوّنة. أما القبّة نفسها فقد بنيت من الخشب، وكغيرها من القباب تكوّنت من قسمين، قسم خارجي صنع من النحاس والرصاص من أجل تحمّل تبدّل الحرارة وإعطاء مشهد برّاق، وقسم داخلي مغطى بالفسيفساء.

وكان بناء القباب شبيهًا بصناعة هياكل المراكب من أقفاص تجمع حول قالب خشبي مستدير، وهذه الأقفاص كانت تربط فيما بعد بألواح مقوّية. وكان القسم الخارجي بَصَلي الشكل في الجهة السفلى ومخروطيًا في الجهة العليا، أما القسم الداخلي فهو بصورة عامة على شكل نصف دائرة.

والقبّة الحالية رفعت في القرن الثاني عشر، ويبلغ ارتفاعها ٣٥،٦١م وقطرها ٢٢،٢٦م، وقد بنيت على نمط القبة القديمة بعد تجديد هيكلها الخشبي.

تقوم الصخرة داخل المبنى، تحيط بها دائرة من البوائك تقوم على عقود مدبّبة مرفوعة على دعائم حجرية وأعمدة من الرخام. وفوق العقود التي تدور حول الصخرة يقوم جدار مستدير مرتفع مجصّص ومزيّن بنقوش وزخارف بيزنطية الطابع. وعلى هذا الجدار تقوم رقبة القبة مزينة بشماسات ذات زجاج ملون، والفراغات بين الشماسات مغطاة بالزخارف والقبة تقوم فوق ذلك كله معتمدة على العقود المذكورة وليس على الجدار الخارجي وحده. وتدور حول القبة بين الأعمدة، ستارة من الخشب الملبس بالنحاس، تحول بين الناس والصخرة. وبين العقود والجدار الخارجي لمبنى القبة مطاف جميل يدور حول الصخرة. وتجدر الإشارة إلى أن البناء كله أعيد ترميمه آخر مرة في سنة ١٩٦٤.

لقد غدت قبّة الصخرة نموذجًا في الفن المعماري، وعلى غرارها شيدت قباب كثيرة في المساجد والقصور، كونها ظاهرة فريدة ولافتة. ويُعتقد أن البناء الأول الذي استقى هندسته من قبة الصخرة كان ضريح الخليفة العباسي المستنصر.

مَسْجِدُ عَمْرو بْن العَاص بِالفُسْطاط

يعدّ جامع عمرو بن العاص في مصر رابع مسجد جامع أقيم في الاسلام، بعد مساجد المدينة والكوفة والبصرة، فقد اقيم سنة ٢١هـ (٦٤٢م)، أي أنّه بني منذ أربعة عشر قرنا.

أنشأ عمرو بن العاص مسجده في الفسطاط بعد فتح مصر، وكان في أول أمره مسجدًا بسيطًا يغطي مساحة بطول ٢٥ مترًا وعرض ١٥ مترًا مغطاة بظلّة من الخشب وسعف النخل قائمة على أعمدة من جذوع النخل. وكانت قبلته الأولى غير متجهة نحو القبلة تمامًا، وبقيت كذلك الى أن صحّحها قُرَّة بن شُرَيك.

كان مسجد عمرو محاذيًا لضفة النيل، فكان النهر يقوم عوضًا عن جداره الشرقي، ولهذا لم يكن للمسجد إلا ثلاثة جدران. وعندما تسلم مسلمة بن مخلد ولاية مصر من قبل معاوية أمر بإزالة المسجد، ثم أعاد بناءه سنة ٣٥هـ (٦٧٢م) فضاعف حجمه وجعل له سورًا من الآجر وترك قسمًا كبيرًا من الزيادة صحنًا مكشوفًا. وجعل للمسجد أربع مآذن في أركانه، ويعتقد أنها كانت أقدم مآذن أُقيمت في الإسلام.

في ما بعد رمّمه عبد العزيز بن مروان سنة ٧٩هـ (٦٩٨م). إلاّ أنّ قُرّة شُريك هدمه من أساسه وأعاد بناءه سنة ٩٣هـ (٧١٠م) على مساحة واسعة، وجعل له جدرانًا عالية وسقفًا من الخشب. وقُرَّة هو الذي أنشأ له المحراب المجوّف، وهو أول محَراب من نوعه في مصر، وأضاف إليه منبرًا خشبيًا جميلاً.

في سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م) أتمّ الوالي العباسي صالح بن علي، عم أبي جعفر المنصور،

الأسرة الأغلبية الى هدم المسجد، جاشا محراب عقبة، وأعاد بناءه. فيما بعد أدخلت تعديلات متنوعة على المسجد بهدف توسيعه وتجديده، خصوصا في زمن ابراهيم بن أحمد الأغلبي سنة ٢٤٨هـ (٨٦٢م)، ثم في زمن ابراهيم الثاني تاسع أمراء بني الأغلب سنة ٢٦١هـ (٨٧٥). وهذا الأخير مدّ الرواق الأوسط باتجاه الغرب، وفي طرف هذا الرواق رفع قبّة باب البهو، ويبدو أن هذه القبة دخلت عليها تعديلات أفقدتها بعض أصالتها.

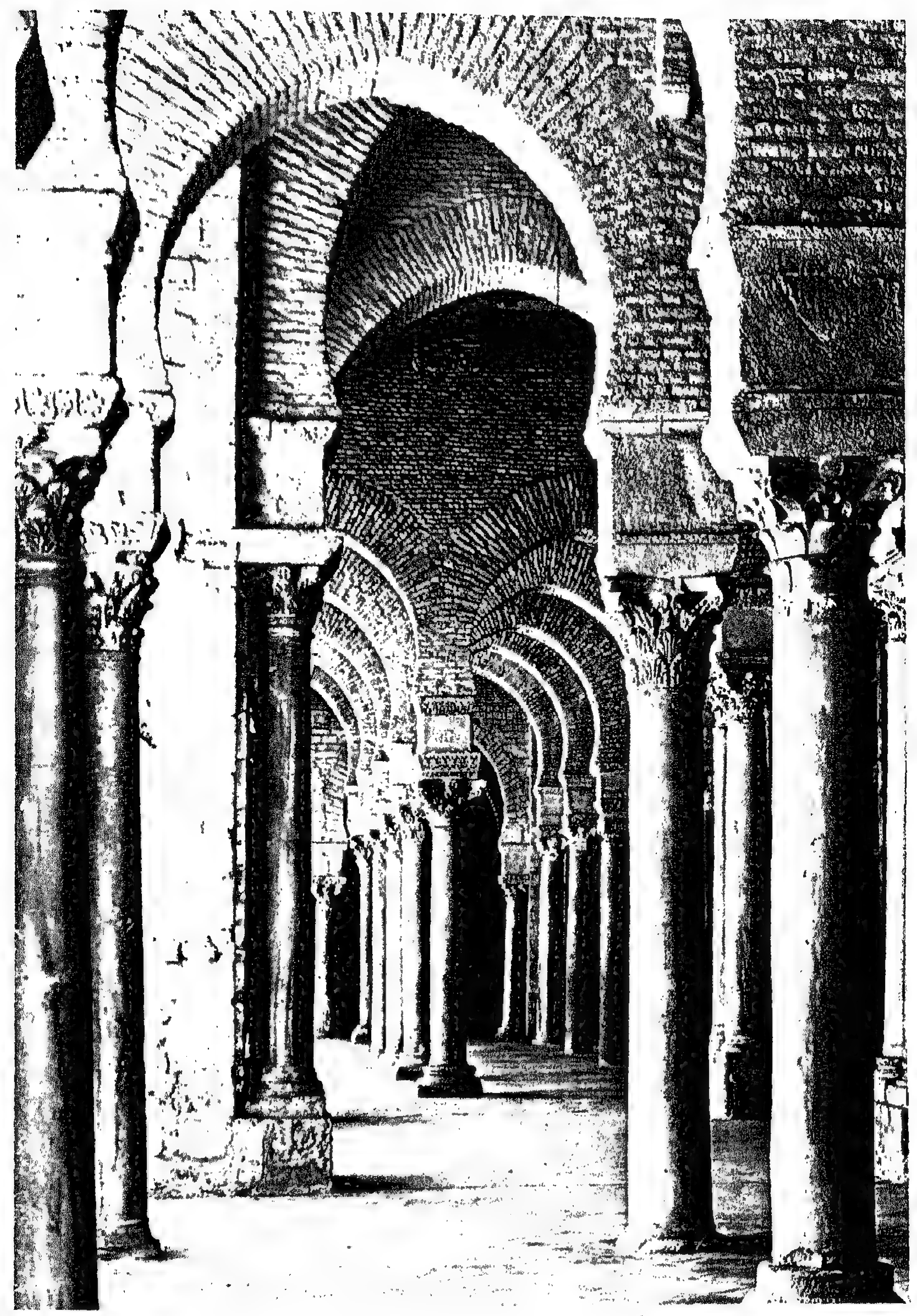
ويرجع الفضل إلى الوالي يزيد بن حاتم في الهيئة التي بقي عليها المسجد بعد ذلك، وعندماهدمه زيادة الله بن الأغلب أراد أنْ يهدم المحراب أيضًا، ولكن الفقهاء اعترضوا على ذلك وانتهى الأمر إلى تغطية المحراب القديم بحائط فلا يظهر لأحد ويظل قائمًا وبنى زيادة الله جدار قبلة ومحرابًا جديدًا وكلاهما مكسوبالرخام الأبيض المغطى بالزخارف والكتابات، وتحفّ بالمحراب أعمدة رخامية في غاية الدقة والجمال. أمّا الساريتان الحمراوان اللتان كانتا زينة مسجد يزيد بن حاتم فقد وضعتا أمام المحراب وما زالتا باقيتين حتى اليوم. وفي تعديلات ابراهيم بن أحمد وولده أُضيفت إلى المحراب كسوة من الرخام الملوّن وزُيّن إطاره بالقاشاني ذي البريق المعدني. ونشير هنا إلى أن الذين اهتموا ببناء المسجد وترميمه أفادوا من بقايا العمائر الرومانية وبقايا مدينة قرطاجة التي شكلت مقلعًا مهمًا غنيًا بالرخام وبالأعمدة وتيجانها، وقد اضطر يزيد بن حاتم إلى شراء بعض الأعمدة من الخارج، ونقشت في بعض الأعمدة الضخمة عبارة «للمسجد».

فيما بعد أعاد تجديد المسجد المعز بن باديس بن زيري، بعد انفصاله عن الفاطميين. وبعد الغزوة الهلاليّة اهتم به الحفصيون فأعادوا تجديده سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م).

جاء مسجد القيروان شبيهًا بالمساجد الأولى، أي مسجد المدينة المنورة ومسجد عمرو بن العاص في الفسطاط والمسجد الأموي في دمشق والمسجد الأقصى في القدس. هذا المسجد الذي يُعرف باسم مسجد «سيدي عقبة» ومسجد الأغالبة، يتكون من صحن ومجنّبات تؤدي إلى بيت الصلاة الذي يقوم فوق أروقة أعلاها وأوسعها الرواق الأوسط، وهذا الرواق ينتهي برواق عرضي له الارتفاع نفسه، والرواق العرضي هذا يحدّه جدار القبلة الذي يتوسطه المحراب. ويلتقي الرواق الاوسط مع الرواق العرضي عند قبّة رائعة.



صحن المسجد الجامع في القيروان.



أروقة بيت الصلاة في المسجد الجامع (القيروان).

يبلغ طول المسجد من الخارج ١٣٥م وعرضه ٨٠ م، ومن الداخل يصل طول جدار القبلة الى ٧٢م، ويتكون بيت الصلاة من سبعة عشر رواقًا بطول ٣٦م وتتجه من الشمال إلى الجنوب، وهي تؤدي إلى جدار القبلة. هذه الأروقة تحمل سقفًا دخلت عليه تعديلات متكررة، كما ترتفع في طرفي الرواق الأوسط قبتان ضخمتان.

أما صحن المسجد فيبلغ طوله ٩٠م وعرضه ٧٠، وتحدّه المجنّبات المزدوجة من كل جهاته، وهذه المجنّبات هي تكملة لأروقة بيت الصلاة وتفصلها عنهامداخل ذات أبواب ضخمة، وعقود المجنّبات مستديرة تقوم على أعمدة من الرخام مقوّاة بدعائم.

وفي جامع القيروان ميزتان نجدهما في مساجد الغرب الإسلامي، أولاهما أن بيت الصلاة عميق يغطي نصف مساحة المسجد تقريبًا، والمجنّبات قليلة العمق وكل منها رواقان. والميزة الثانية أنّ المئذنة بناء مستقل شبيه بالبرج ويقوم في الجدار المواجه لجدار القبلة، كما قد يقوم خارج السور.

إنَّ مئذنة جامع القيروان تُعتبر من نوادر المآذن وأجملها، فهي برج من ثلاث طبقات مربعة، و السفلى أكبرها حجمًا وتليها الثانية فالثالثة، وهذه الأخيرة تنتهي بقُبيبة مضلّعة ذات شكل نصف دائري. يقوم القسم السفلي من المئذنة فوق مساحة مربعة تصغر في الجزء الأعلى منه، وهذا يعني ان واجهة القسم السفلي لا ترتفع بشكل عمودي مستقيم وإنما تصغر في اتجاهها نحو الأعلى. في اسفل الطبقة السفلى ينفتح باب على صحن المسجد عرضُه متر وارتفاعه ١،٨٥م وهو ذو عقد بشكل نعل الفرس، كما يفضي هذا الباب الى درج داخلي يصل إلى أعلى المئذنة. يبلغ ضلع الطبقة السفلى من المئذنة عشرة أمتار وارتفاعها عشرين مترًا، وارتفاع الطبقة الثانية خمسة أمتار والثالثة سبعة أمتار. وقد بنيت مئذنة الجامع في خلافة هشام بن عبد الملك على يد واليه بشر بن صفوان.

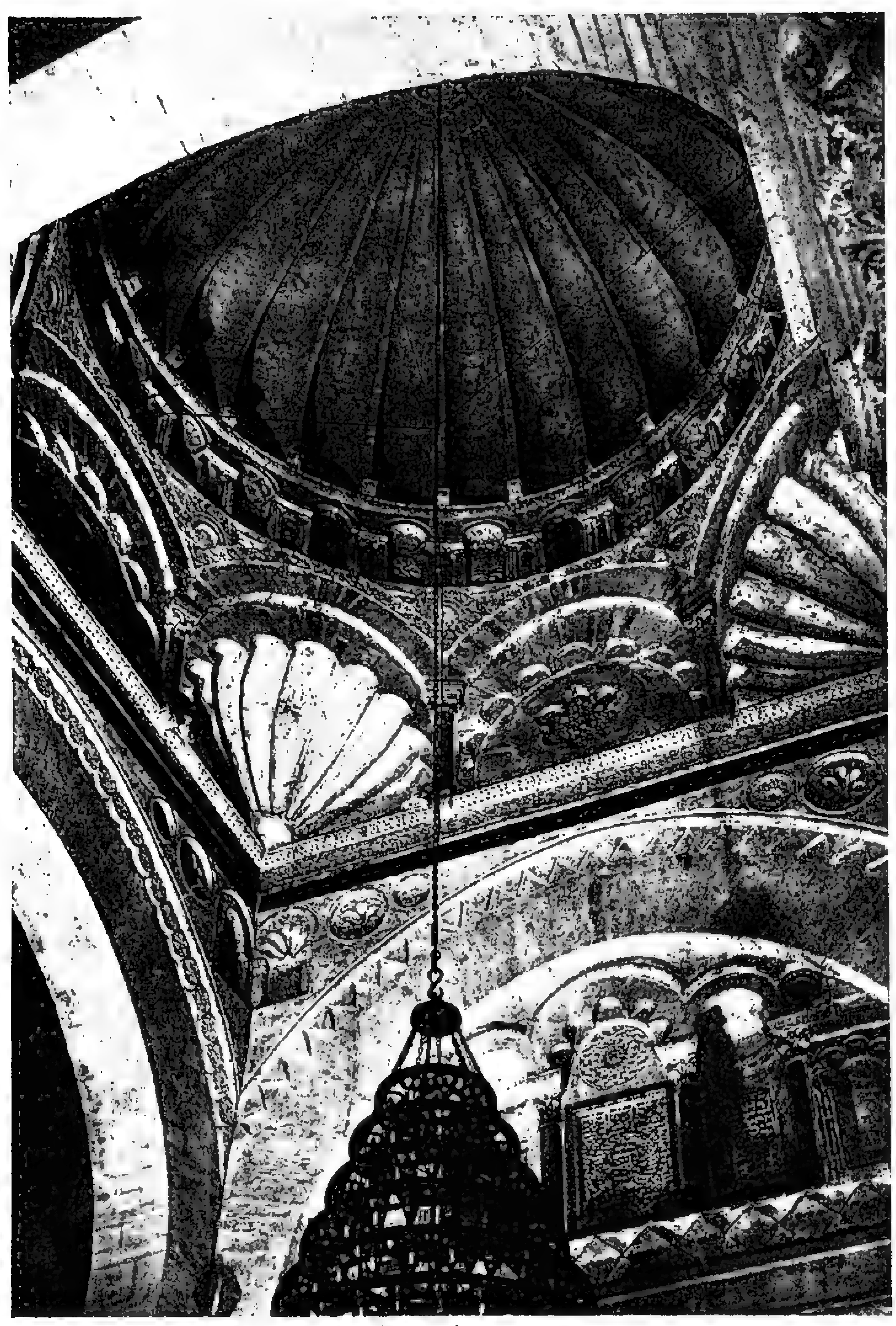
ترتفع العقود في بيت الصلاة فوق أعمدة رخامية مزدوجة أو مثلثة، وعددها ٤١٤ عمودًا. أمّا مدخل الرواق الرئيسي فيرتفع عقده فوق مجموعة من ستة أعمدة في كل جهة. وتنطلق جذوع الأعمدة من قواعد حجرية مربعة او مستديرة، وبعض هذه الجذوع لا قواعد لها. وقد جمعت الأعمدة من مناطق افريقية متعددة، وجيء بالقسم الأكبر مشغولاً من مناطق قرطاجة كما قلنا، على أن بعضها نُحت في زمن الأغالبة وحمل كتابات عربية.

ونقع بين الأعمدة على اثنين متجاورين من الرخام الأحمر، على أحدهما عبارة «لا إله إلاّ الله» وعلى الآخر «محمد رسول الله».

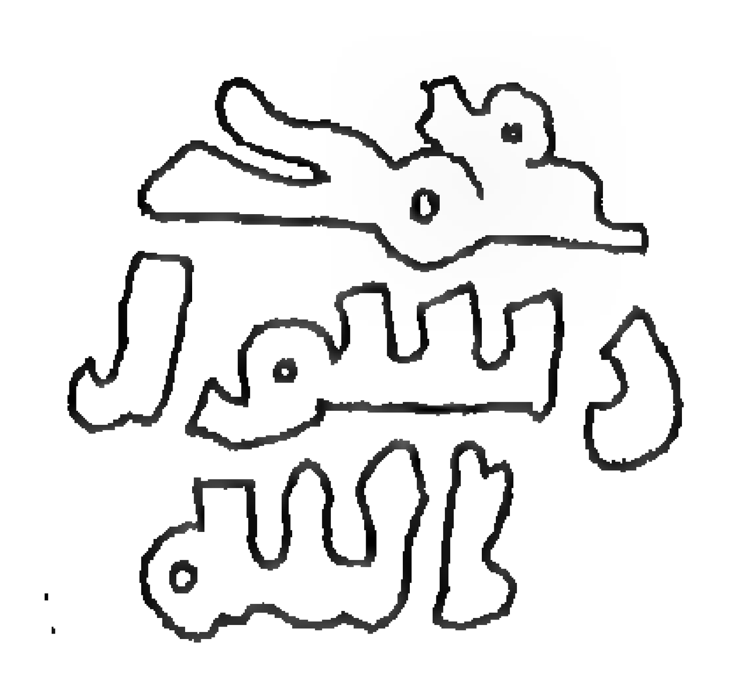
أمّا تيجان الأعمدة فلا تنتهي مباشرة عند العقود، وإنما يفصل التاج عن العمود قاعدة هي بمثابة رجْل للعقد، وهذه القاعدة تنتهي عند بدايةالقوس بإفريز مزخرف، كما تستلقي القاعدة فوق التاج على كتف مزخرف. وتتصل قواعد العقود بعضها ببعض بعوارض خشبية تساعد على تثبيت البناء وتوازنه، والعقود نفسها على شكل نعل الفرس، ومنها المنفوخ والمهموز.

تتخلل جدران المسجد سبعة أبواب، اثنان منها يُفضيان إلى بيت الصلاة والباقية تؤدّي إلى مجنّبات صحن المسجد. ويبدو المسجد من الخارج أشبه بقلعة ذات جدران سميكة، ذلك أنّ الجدار الخارجي له عدة دعائم من شأنها ان تحفظ المسجد من التداعي، خصوصًا أنّ الأرض التي شُيّد فوقها غير متماسكة.

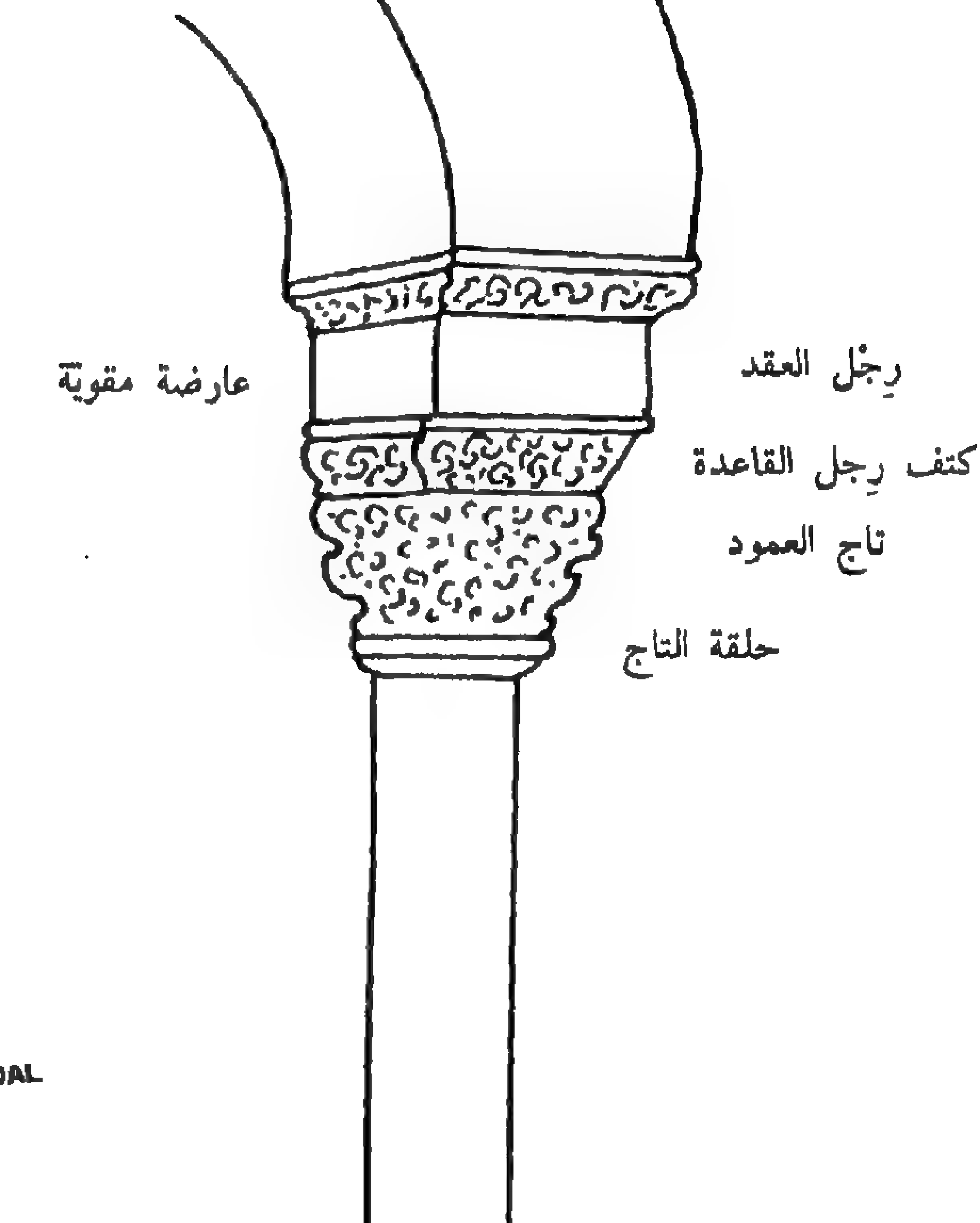
والقبّة المجاورة للمحراب تشرف على سطوح المسجد وتوحي كتلتها بالعظمة والمتانة. وهي قبّة نصف كروية مضلّعة تبدو عقودها الداخلية على شكل صدفة، والضلوع الداخلية تشكل أخاديد تلتقي عند القمة. أمّا قاعدة القبّة فاسطوانية الشكل تتخللها ثمانية نوافذ، وبينها ستة عشر متّكأً، وتحت هذه القاعدة أربعة زوايا، كل واحدة منها على شكل نصف قبّة، وتجعلها ضلوعها الكروية شبيهة ببعض الأصداف البحرية، وهذه الزوايا تفصل بين القسم الدائري للقبة والقسم السفلي المربّع. فالقبّة تتألف إذًا من ثلاثة أقسام: القسم الكروي، والقسم الأوسط بزوايا داخلية نصف دائرية، والنصف السفلي المربع، وهي أكثر وضوحًا من الخارج إذ يبدو بعضها فوق بعض.



القبة فوق المحراب في مسجد القيروان.



كتابة كوفية منقوشة في ساق
أحد الأعمدة داخل مسجد القيروان.



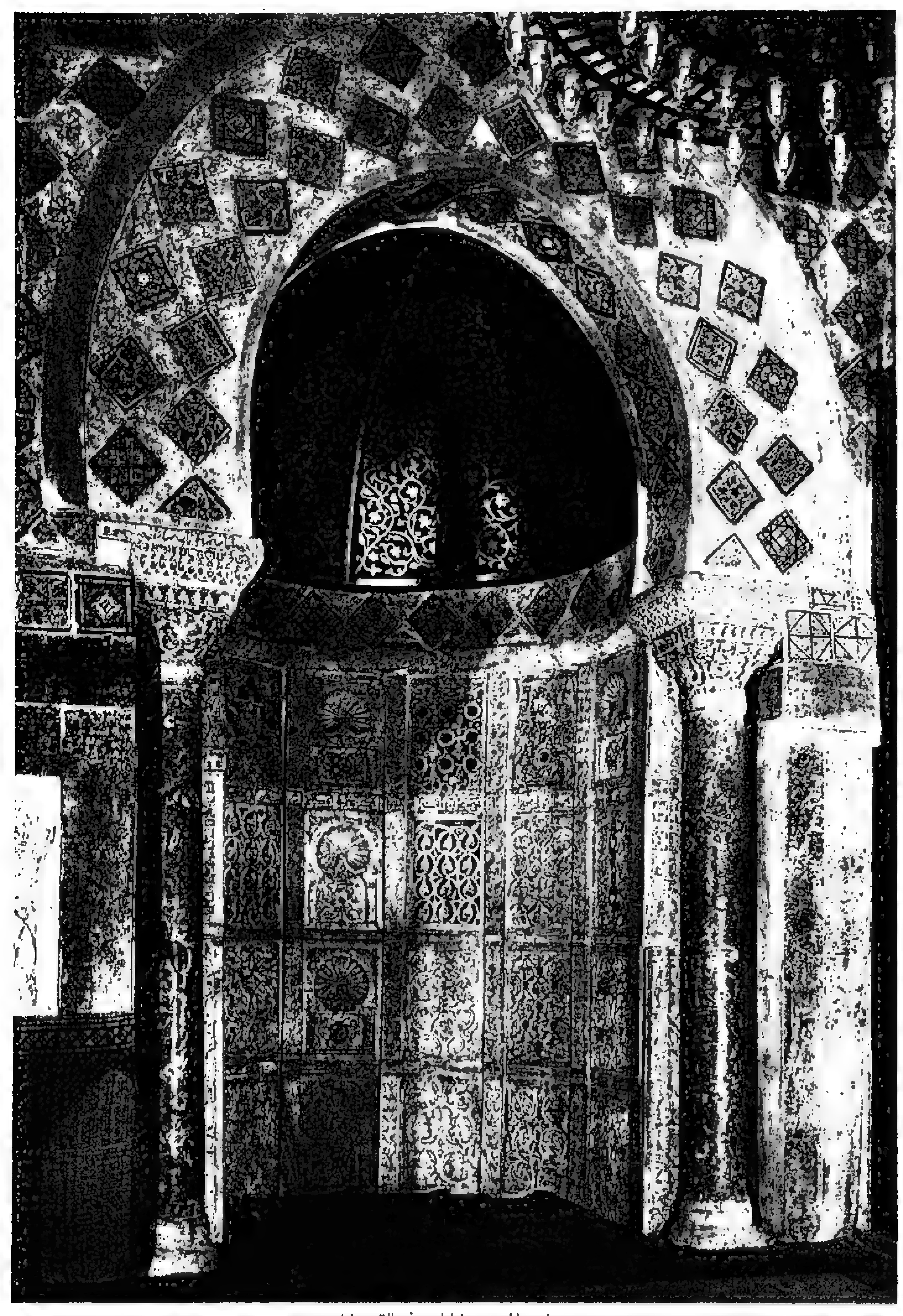
الأقسام الفاصلة بين جذع العمود والعقد
في جامع القيروان.

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

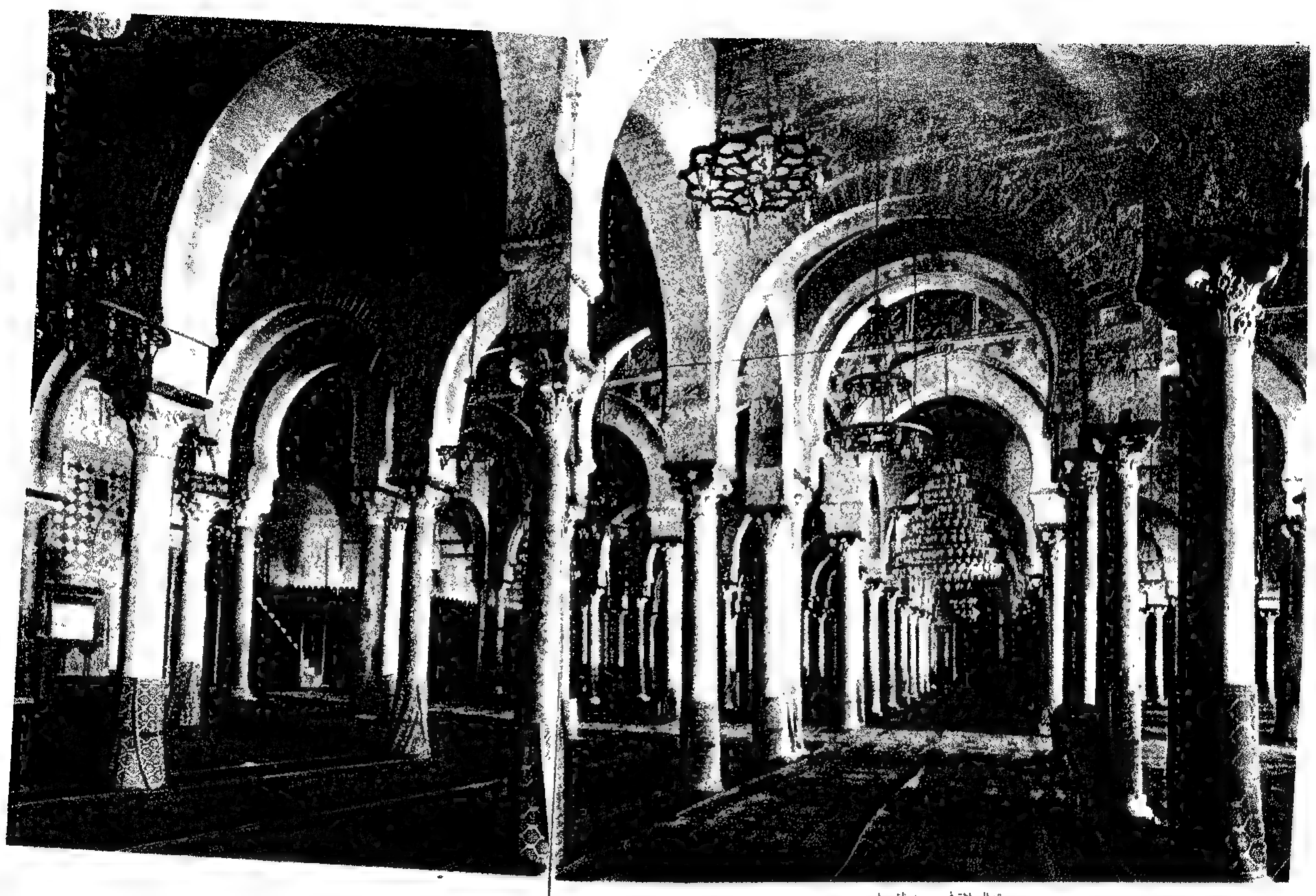
قبل اقفال الحديث عن المسجد الجامع في القيروان يبدو مفيدًا ان نلقي نظرة على المواد المستعملة وطريقة البناء. ففي المساجد الافريقية بعامة استعمل البناءون الحجارة المنحوتة والقراميد والآجر والرخام.

ويبدو أن استعمال الآجر قديم العهد في حقول البناء، وقد استُعمل أحيانًا ممزوجًا بالكلس والتراب الصلب (الطوب). ويذكر البكري في كتابه «وصف افريقيا الشمالية» أنّ جدران مسجد القيروان كانت قد بنيت عام ١٤٤هـ (٧٦١م) من حجر الطوب.

أمّا الحجر المنحوت فاستعين به لتغطية الواجهات في الجدران المبنية «بالحجر الغشيم» (غير المنحوت). وفي مسجد القيروان برز الحجر المنحوت في واجهات المداخل وفي العقود.



محراب المسجد الجامع في القيروان.



بيت الصلاة في مسجد القيروان

أمّا عناصر الزخرفة فأهمها الحجر والرخام والجص والخزف والخشب. والزخرف في الفن الإسلامي يقوم أحيانًا على اللّصق أو التلبيس، وهذا يعني ان التزيين لا يدخل أساسًا في عملية البناء إلاّ إذا كان عنصره الحجر أو الرخام. ولم يكن الجص غريبًا عن الفنانين المسلمين، فقد كان معروفًا في العصور الأولى للإسلام، ولكن الزخرفة بواسطته تطورت فيما بعد وغدت من أهم العناصر التزيينية. ثم إن الفسيفساء والخزف ذي البريق المعدني جيء بقطعه من بغداد، في القرن التاسع للميلاد، وأُلصق في محراب المسجد. وقد استعين بالنقش في الخشب للسقوف والمنابر والأبواب، وعلى عتبة أحد أبواب المسجد نقش لسعف نخيل يعود تاريخه إلى عهد الأغالبة، وهو شبيه إلى حد بعيد بالنقش في خشب المنبر.

بصورة عامة يعتبر المسجد الجامع في القيروان محطة مهمة في مسيرة الفن المعماري الإسلامي، وعلى غراره بنيت مجموعة من المساجد الافريقية. ويمتاز هذا المسجد بالضوء الذي يفيض فيه وبالإشراق الروحي الذي يحسّ به الإنسان اذا وقف تحت قبّة المحراب وتأمّل العقود الجميلة والجدران الرخامية المزينة من أعلى بوحدات زخرفية في غاية الجمال.

المسجد الجامع في تونس
جامع الزيتونة

اختط المسجد الجامع في تونس القائد الأموي حسّان بن النعمان في حدود عام ٨٠هـ (٦٩٩م)، وكان في غاية البساطة، ثم أعاد بناءه عبيدالله بن الحبحاب حوالى سنة ١١٦هـ (٧٣٤م). والمساجد التي أُطلق عليها اسم «الزيتونة» متعددة في بلاد المسلمين، ولا سيما في افريقيا وبلاد الشام. والمعروف ان هذا المسجد أعيد بناؤه في عهد الأغالبة، إذ أمر أبو ابراهيم احمد بذلك في حدود سنة ٢٥٠هـ، والقبة المجاورة للمحراب يعود بناؤها إلى هذا التاريخ كما تشير الكتابة المقرونة باسم الأمير الأغلبي.

يقع المسجد في الوسط التجاري لمدينة تونس، ومن أهم ملحقاته مكتبته الغنية، ويشكّل الكل مجموعة معمارية ضخمة. وبالرغم من التعديلات المتكررة ما يزال المسجد يحتفظ بخصائص معمارية شبيهة بما نقع عليه في مسجد القيروان. وقد أخذ المسجد مساحته وحدوده وتصميمه في العهد الأغلبي، وهذا ما يسمح باعتباره طرازاً أغلبيّاً قيروانيّاً.

يتكون جامع الزيتونة من صحن تتخلله المداخل، وبيت صلاة معمّد مع أروقة تتجه من الشمال إلى الجنوب، ورواق مستعرض من جهة المحراب، كما أنّ الرواق الأوسط أوسع الأروقة وأعلاها، وفي نهايته من جهة المحراب ترتفع قبّة بنيت عام ٨٦٤م وفي الطرف المقابل قبّة ثانية.

وعقود الأروقة لها شكل نعل الفرس، بعضها منفوخ وبعضها الآخر مهموز، وهي تتكىء على قواعد تفصل بينها وبين تيجان الأعمدة (على غرار مسجد القيروان). وتختلف القبة المجاورة للمحراب عن قبة مسجد القيروان في كون القسم الأعلى من القبّة المضلّعة

ترتكز على قاعدة اسطوانية من الحجم عينه وتتخللها مجموعة نوافذ مستطيلة الشكل، وهذه القاعدة تقوم بدورها على بناء مربّع تزينه مشكاوات مضلّعة، والشبه كبير بين هذه القبّة وقبّة مسجد الصخرة.

خضع جامع الزيتونة لتعديلات متنوعة ولترميات كثيرة، واجتهد القيمون في الحفاظ على أصالته. والذي يتجول في داخله يستطيع مرافقة تاريخه عبر الكتابات المنقوشة فيه، كما يستطيع التعرف إلى تاريخ تونس والأمراء الذين تعاقبوا على حكمها. فقد نقشت اسماء أمراء من الأغالبة والصنهاجيين والحفصيين والمراديين والحسينيين.

في أيام أبي الفتح المنصور بن زيري جرى ترميم قبة البهو سنة ٣٨١هـ (٩٩١م) وهي التي تشرف على الصحن من جهة القبلة. وفي أيام بني خراسان الذين حكموا تونس ما بين القرنين الخامس والسادس للهجرة (الحادي عشر والثاني عشر للميلاد) زيدت أبواب المسجد الى اثني عشر بابًا بعدما كان عددها ستة أبواب في عهد الأغالبة، كما أعيد بناء السور الخارجي للمسجد. وفي سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) أمر السلطان زكريا الحفصي بعمل عوارض وأبواب لبيت الصلاة، كما أمر السلطان أبو عبدالله الحفصي سنة ٨٩٩هـ (١٤٩٣م) بإنشاء المقصورة. وفي القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) تولت الأسرة البكرية إمامة المسجد فتمّ في عهدها بناء المجنّبة الشرقيّة.

في سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩٢م) تداعت مئذنة الجامع للسقوط فأمر حاكم تونس الباي علي باشا بهدمها وإعادة بنائها بارتفاع ٤٣ مترًا. وفي سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) جرى إصلاح قبّة الجامع التي يرجع تاريخها الى منتصف القرن الثالث للهجرة.

وفي النصف الثاني من القرن العشرين قامت الحكومة التونسية بترميم المسجد وأبرزت معالمه التاريخية والفنيّة، وجُهِّز بثريات حديثة اضفت على المكان المقدس نورًا على نور.

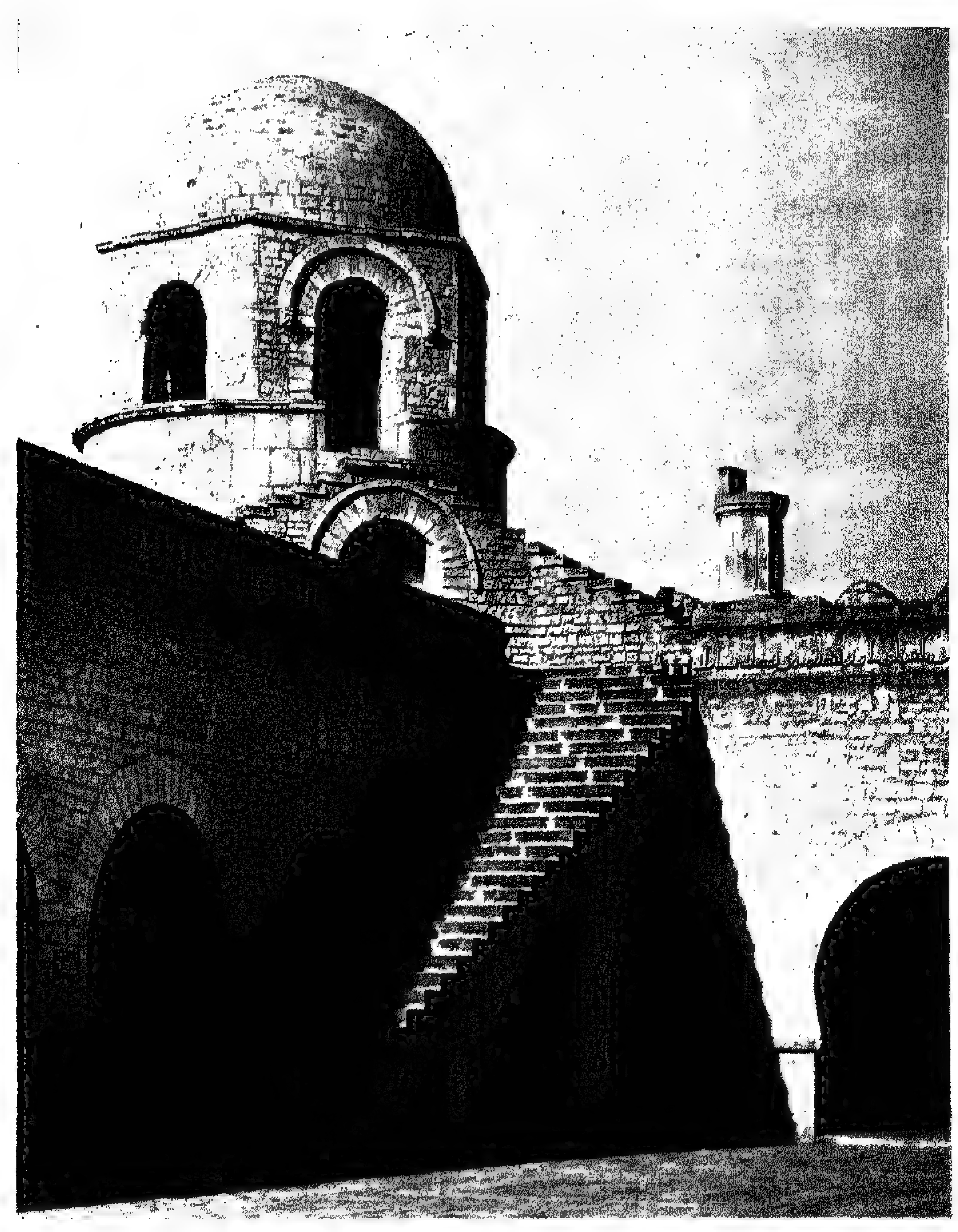
المسجد الجامع في سوسة

يعود تاريخ بناء مسجد سوسة إلى عام ٢٣٦هـ (٨٥١م)، إذ شُيد زمن أبي العباس عبدالله بن ابراهيم بن أحمد الأغلبي، ويمكن اعتباره صورة عن مسجد القيروان: قبتان ترتفعان في طرفي الرواق الأوسط وعقود تفصل بينها وبين التيجان قواعد زائدة عن تيجان الأعمدة. ويقوم المسجد فوق شبه جزيرة سوسة شمالي شرقي تونس.

ولم يدخل على المسجد تغيير كبير منذ بنائه، فهو ما يزال يحتفظ بشكله العام كما كان أيام الأغالبة. وهو مستطيل الشكل طوله ٥٧ مترًا وعرضه ٥٠ مترًا، وتحيط صحنه ثلاث مجنّبات عرض كل منها رواق واحد. وعقود بيت الصلاة والمجنّبات على شكل نعل الفرس، وتقوم على دعائم حجرية.

إلى جانب المحراب باب كان مسدودًا الى وقت قريب، وقد فتحه الأثري «الكابتن كروسويل» فوجد غرفة صغيرة فيها محراب خشبي متحرك يقوم على عجلات، ويعتبر هذا المحراب من أقدم ما عثر عليه من نوعه في تاريخ العمارة الإسلامية. وهناك محرابان آخران من هذا النوع في المغرب، الأول في مسجد الزيتونة في تونس، والثاني في المسجد الجامع بالجزائر.

وفي ركني المسجد الشمالي والجنوبي برجان مستديران يصل ارتفاعها الى مستوى سطح الجامع. والشمالي منهما كان يستعمل مئذنة لأن له سلمًا داخليًا، وفي أعلى كل من البرجين قبّة مستديرة.



المسجد الجامع في سوسه.

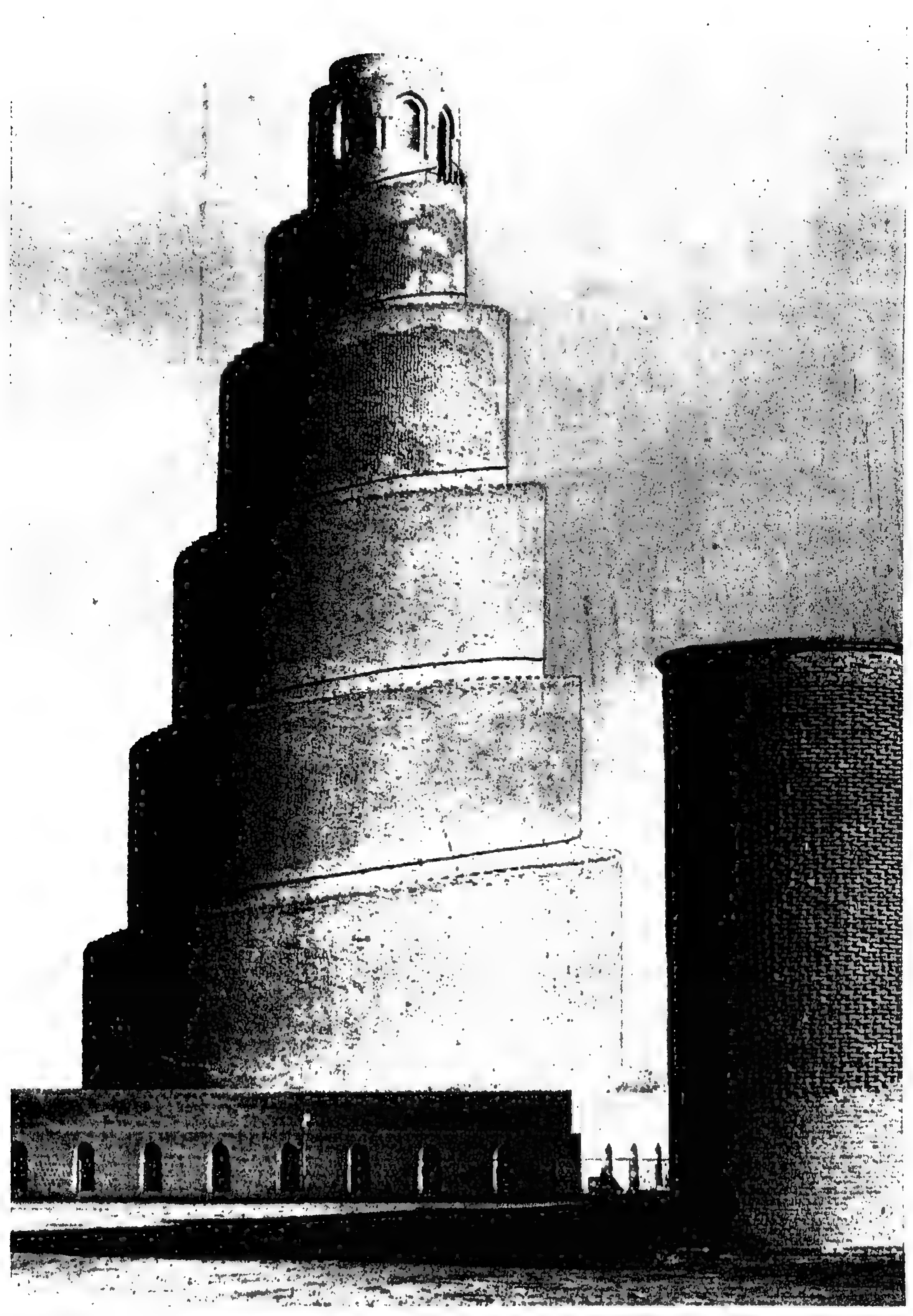
الزاوية الشمالية الشرقية من صحن المسجد.

مَسجد سَامرّاء

انتقل الخليفة العباسي المعتصم بالله إلى سامرّاء سنة ٨٣٦م، بعدما انشأ فيها مقرًا له أشبه بمعسكر يؤوي جنده الأتراك ويبعدهم عن بغداد. ولم يبق من المدينة اليوم إلاّ الأطلال. ومسجد سامراء بناه المتوكل بين عامي ٨٤٧ و٨٦١م وكان أوسع ما بنى المسلمون من مساجد.

من المعروف أن مساجد العباسيين، كمسجد الرقّة (٧٧٢م) ومسجد بغداد (٨٠٧م) كانت مربعة الشكل، ولكن مسجد بغداد أضيف إليه مربع آخر مشابه له بُني بين عامي ٨٧٣ و٨٧٤م وغدا المسجد مستطيلاً وطوله ضعف عرضه. أمّا المسجد الكبير في سامرا ومسجد أبو دُلَف (٨٥٩– ٨٦١م) فكان شكلها من البدء مستطيلاً، واتجاه اروقتها كان متعامدًا على جدار القبلة.

بقيت لنا أجزاء من مسجد سامراء، وهي تشبه أسوار الحصون، وكذلك حال جدران مسجد أبو دُلَف، وكان عرض جدران مسجد سامرا حوالى ثلاثة أمتار. وما يمتاز به مسجدا سامرا وأبو دُلَف هو منارتها اللتان جاءتا متشابهتين، فمنارة مئذنة سامرا اسطوانية الشكل وذات مصعد لولبي خارجي تذكر الناظر ببرج بابل. وفي كلا المسجدين تقوم المنارة في وسط الجدار الشمالي وفي القسم الخارجي منه، ويبلغ ارتفاع الكبرى بينهما خمسين مترًا. كما احيط المسجدان بسورين كبيرين، فبلغ طول سور مسجد سامرا ٤٤٤م وعرضه ٣٧٦م، وطول سور مسجد أبو دُلَف ٣٦٢م وعرضه ٣٥٠م. هذان المسجدان يمتازان بضخامة زائدة ويشغلان مساحة كبيرة، إلاّ أن ارتفاع السقف في كل منهما أفقدهما



المئذنة الملوية في مسجد سامرّاء .

الكثير من جمال الشكل. والجديد في مسجد سامراء هو أنّ جدار القبلة كانت تتخلله نوافذ ذات عقود مفصّصة إلى قويسات ومشكاوات.

وجدار مسجد سامرّا السميك تؤيده دعامات خارجية نصف دائرية، يزيد قطر الواحدة منها عن ٣،٥م وتبعد الواحدة عن الأخرى ١٥ مترا وتقوم أربع منها عند الأركان.

وكان عمق بيت الصلاة في مسجد سامرّاء ٦٢ مترا، ويتألف من تسعة أساكيب تقوم على تسعة صفوف من الدعامات، وفي كل صف ٢٤ دعامة. وكان المسجد كله مبنيًا بالآجر وكذلك الدعامات في الداخل، وضلع الدعامة الواحدة متران وارتفاعها احد عشر مترًا.

وكانت تحيط بالصحن مجنّبات في ثلاث جهات، وتتكون كل مجنّبة من ثلاثة أروقة، كما كان للمسجد ستة عشر بابًا.

إن مسجد سامرّاء الذي لم يبقَ منه اليوم إلاّ الأطلال والمئذنة اللولبية يشير بوضوح إلى خصائص معمارية اعتمدها العباسيون في بناء مساجدهم. وهو في أي حال يعكس عظمة الماضي وجماله.

جامع ابن طولون

يقع هذا المسجد الكبير في حي السيدة زينب في القسم الجنوبي من مدينة القاهرة، وكان أحمد بن طولون قد اختار ذلك المكان ليجعله مقرًّا له ومعسكرًا لجنده. وشرع ابن طولون في بناء هذا المسجد سنة ٢٦٥هـ (٨٧٩م) وكان تخطيطه وما يزال شبيهًا بالقلاع، على غرار مسجد سامرا. وقد تأثر ابن طولون في عمارة مسجده بهندسة سامرّا، فكلاهما منيع ولكل منهما مئذنة ملوية.

وقد توالت أعمال التجديد والترميم في جامع ابن طولون، ولكنه ما يزال اليوم محتفظًا بشكله الأصلي. وهو مربّع الشكل ويبلغ ضلعه ١٦٢،٥م، وفي وسطه صحن مكشوف ضلعه ٩٢م.

يتكون بيت الصلاة من سبعة عشر رواقًا، وعقودها مُدبَّبة من الحجر والآجر، وغطيت العقود بزخارف جصيّة، كما يدور بجدران بيت الصلاة إزار خشبي نقشت عليه بالخط الكوفي البارز سورتا البقرة وآل عمران. والجدران الداخلية للمسجد تتخلّلها نوافذ ذات عقود مدبّبة مغطاة بالجص المزيّن بالنقوش المتنوعة.

ومسجد ابن طولون متعدد المحاريب، كما هي الحال في عدد كبير من المساجد، وعدد محاريب هذا الجامع خمسة، أكبرها وأهمها الأوسط وهو محراب مجوّف صُنع في أيام السلطان المملوكي سيف الدين لاجين، وهو مزخرف بالفسيفساء الزجاجية والمذهبة وقد نقشت بينها القاشان. وأعلى المحراب مكسوّ بالخشب المزخرف، أمّا بقية المحاريب فمسطحة.



جامع ابن طولون، الصحن والمئذنة.

وصحن المسجد فسيح رفيع الجدران تطلّ عليه البوائك من كل جهة، إذ يحيط به بيت الصلاة ومجنّبتان الى اليمين واليسار كل منهما رواقان، كما أنّ مجنبته الخلفية من رواقين أيضًا. وتتوسط الصحن قبّة جميلة تقوم على بناء مربّع، وهذه القبّة أقامها السلطان سيف الدين لاجين في سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٧م).

أمّا مئذنة الجامع فهي الثاني من طرازها، وهي ذات مصعد خارجي لولبي على غرار مئذنة مسجد سامرا. وهي تتكون من أربع طبقات، الأولى مربعة والثانية مثمنة والثالثة مثمنة والرابعة كذلك وتعلوها قبة صغيرة.

وأهم ما يميّز جامع ابن طولون شكله المربع وتناسب أجزائه، والناظر إلى جدرانه تستوقفه صفوف الشبابيك المتراصة مع افريز جميل للسقف الكبير.

جامع القرويين في فاس

وصل الأمير إدريس بن عبدالله الحسني إلى المغرب هاربًا من تعقّب العباسيين، واستطاع ان يكسب ولاء قبيلة أوربة البربرية، ثم انضم إليه عدد من القبائل البربرية في حدود عام ١٧٢هـ (٧٨٩م). وعندما كثر أتباعه شرع في بناء مدينة فاس في الوادي الذي يحمل اسمها، فنشأت المدينة بربرية الطابع، أبنيتها من القصب والخشب. وفي هذه المدينة أنشأ ادريس جامعة، ثم أعاد ولده إدريس الثاني بناءه وأعطاه الشكل الذي يعرف به اليوم.

وفضلاً عن اسمها عُرفت فاس باسم «عدوة الأندلسيين» عندما وصلتها جالية أندلسية سنة ٢٠٢هـ (٨١٧م) بعد طرد أصحابها من قرطبة زمن الحكم الربضي. أمّا فاس الثانية (أو القسم الثاني من فاس) فقد أنشأها ادريس الثاني سنة ١٩٢هـ (٨٠٨م) بعدما ثبّتها عاصمة له، فجاء موضعها مقابلاً للمدينة الأولى، وبينهما الوادي، ومع الزمن اتصلت المدينتان. والقسم الذي أنشأه ادريس الثاني عرف باسم عدوة القرويين نسبة إلى جالية كبيرة من أهل القيروان نزلت بها وعمرتها. وجامع القرويين يقع في القسم الثاني، أي في عدوة القرويين، وهو أكبر من الجامع الذي يقع في عدوة الأندلسيين والذي يعرف باسم مسجد الأشياخ، ويبدو ان الجامعين بُنيا في الوقت نفسه.

ظل هذان المسجدان على حالها حتى سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩م) عندما اتسعت العمارة في العدوتين القروية والأندلسية، وكانت الدولة الإدريسية في أوجها الحضاري. في تلك السنة توفي في فاس رجل من عرب القيروان هو محمد بن عبدالله الفهري كان قد هاجر إلى

المغرب وكسب مالاً عريضًا ورثته بنتاه فاطمة ومريم، وشاءت هاتان السيدتان انفاق جزء كبير من المال الموروث في أعمال الخير.

اهتمت فاطمة الفهرية بجامع القرويين، فأعادت بناءه وضاعفت حجمه، وأنشيء للجامع محراب ومنبر جديدان، وبنيت المئذنة التي ما زالت تستوقف الأنظار بارتفاعها الشامخ وخطوطها الهندسية الجميلة. وقد أعيد بناء هذه المئذنة عندما وُسّع الجامع مرة ثانية سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م) اي بعد مرور قرن على تجديده. فأصبح كل ضلع من اضلاع قاعدتها خمسة أمتار، وارتفعت في الجو عشرين مترًا وكسيت بالقاشاني وزُين رأسها بتفافيح صغيرة موشّاة بالذهب، ويبدو ان الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمن الناصر أرسل إلى أمير فاس التابع له كمية كبيرة من المال ساعدت على توسيع المسجد باتجاه الشرق والغرب والشمال. ثم ساهم المظفر ابن المنصور بن أبي عامر، حاكم الأندلس، في بعض الأعمال داخل مسجد القرويين، منها إنشاء خزّان للمياه ونافورة في وسط صحن المسجد.

في عام ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) أعيد العمل في مئذنة جامع القرويين أيام الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق المريني، فأتقنت كسوتها ونوافذها وزُيّنت شرفاتها وجُعلت في رأسها قبّة صغيرة. وبذلك أخذت المئذنة شكلها واستقامت مشرفة على فاس على نحو ما نراه.

وفي عهد الأمير علي بن يوسف المرابطي زيدت في الجامع زيادة كبيرة بين سنتي ٥٢٨ و٥٣٩ هـ (١١٣٣ - ١١٤٣ م). وأصبحت بلاطات بيت الصلاة عشرًا بعد ان كانت سبعًا، وصنع للجامع محراب ومنبر جديدان، و أعيد بناء الأبواب وكسيت أخشابها بالنحاس، وأقيم على كل باب قبة صغيرة، كما أُنشِئَت فوق بلاطة المحراب قبّة من الجص المقرنص زينت بالنقوش الذهبية والملونة. ومن أجمل ما يميّز الزيادة المرابطية القباب الصغيرة المقرنصة في سقف رواق المحراب، وعليها زخارف نباتية في غاية الدقّة.

إنَّ جامع القرويين غدا مع الزمن علمًا من أعلام الحضارة الإسلامية، فهو كتاب حافل في تاريخ الفن الإسلامي، وقد أصبح جامعة يلقي الشيوخ دروسهم عند قواعد أعمدته، وهذا يجعله من أقدم الجامعات. وهو في هذا المجال نظير الجامع الأزهر ومسجد قرطبة الجامع وجامع القيروان وجامع الزيتونة والجامع الأموي في دمشق. وهو اليوم جامعة حديثة

تُدرّس فيها علوم الإسلام وعلوم العصر الحديث.

ويزيّن مدينة فاس جامع آخر يشبه جامع القرويين، ولكنه يقل عنه في الحجم والشهرة، وهو جامع الأندلس الذي يرجع إلى عصر ادريس الثاني، وكان يعرف بمسجد الأشياخ. عنيت بأمره مريم بنت محمد الفهري فجددته وزادت فيه سنة ٢٤٥هـ (٨٥٩م). وفي سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) رُفعت له مئذنة شبيهة بمئذنة جامع القرويين. وقد أُخذ الجامع شكله الحالي أيام الموحدين إذ عني بأمره الخليفة الموحدي محمد الناصر سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٤م). ثم دخلت عليه بعد ذلك زيادات كثيرة، ويعتبر اليوم من المعالم الكبرى في العمارة الإسلامية المغربية.

المسجد الجامع في الجزائر

تقاسم ملوك الطوائف بلاد الأندلس، بعد انهيار الخلافة في قرطبة، وانصب اهتمامهم على بناء القصور والمنى وإنشاء الحدائق، وقلّما اهتموا بالمساجد. لذلك كان على الأندلس والمغرب انتظار عصر المرابطين الذي أولوا المساجد عناية خاصة.

وقد أمر يوسف بن تاشفين، أول أمراء المرابطين، ببناء مسجد الجزائر سنة ٤٧٥هـ (١٠٧٢م)، وانتهى العمل فيه سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م) وهو التاريخ المسجّل على منبره. أعيد ترميم هذا الجامع مراراً، ويبدو أنّه كان من دون مئذنة في القرن الرابع عشر للميلاد. وإذا كان بعض زخارفه يرجع إلى عصور متأخرة فإن هيكله العام وأقسامه الرئيسية ترجع إلى عصر المرابطين، وهو في الواقع من أجمل عمائر هذا العصر.

يتألف بيت الصلاة في هذا الجامع من أحد عشر رواقًا تتجه من الشمال إلى الجنوب، وتحدّها دعائم حجرية مستطيلة تحمل عقودًا مدبّبة منفوخة، وعقود الرواق الموازي لجدار القبلة مفصّصة على شكل نعل الفرس وهي ذات فصوص متعددة تكثر فيها الزخارف. أمّا الرواق الأوسط فأكثر اتساعًا وينتهي عند المحراب المسطّح بقبّة جميلة، كما يتقدم سائر الأروقة من جهة الصحن حيث ينتهي بالمدخل الرسمي. ثم إن كل دعامة حجرية تحمل أربعة عقود، وفوق هذه العقود يمتد السقف الخشبي، والمعروف أن جامع الجزائر يغطيه سطح قرميدي من جهاته كلها.

أمّا صحن المسجد فقليل المساحة، قياسًا إلى بيت الصلاة، وتحيطه ثلاث مجنّبات مع ثلاثة أروقة في الجهتين الجانبيتين، في حين أنّ المجنّبة الخلفية فيها رواق واحد.

وبوائك المسجد المطلّة على الصحن تعتبر عملاً فنيًا فريدًا متناسق الأجزاء ويوحي بالجمال، وجدران العقود في الداخل مزينة بالزخارف المتداخلة والمتشابكة. وهذا النوع من الزخارف هو من الميادين التي تفوّق فيها الفنانون المغاربة، سواء أكانت محفورة في الخشب أو الحجر، أو الجص، أو مسطحة ملونة، وقد جعل الفنان المغربي اهتمامه مركزًا على التفاصيل والأجزاء الصغيرة.

ويبدو أن دول المغرب كانت بعامة متوسطة الغنى، استهلكت الثورات وردّ الأخطار الخارجية معظم أموالها. لذلك لم تتسع الفرصة لسلاطين هذه الدول كي يرفعوا مساجد كبيرة كما هي الحال في ايران والهند وتركيا ومصر المملوكية. وبالمقابل تركز الفن المغربي في إتقان العمل والإخلاص للفن والوصول إلى إمكانات عجز عنها كثيرون.

ثم إنَّ الشبه كبير بن هذا المسجد ومسجد تلمسان، إذ يكاد بيت الصلاة أنْ يكون نقلاً للواحد عن الآخر. إلا أنَّ بيت الصلاة يختلف بشكله وحجمه وعدد أروقته.

يعتبر المسجد الجامع في الجزائر من المساجد المرابطية القليلة الباقية حتى اليوم، والواقع أنّ مساجدهم الكثيرة في المغرب وخارجه قد زال بعضها، وبعضها الآخر أعيد بناؤه على أيدي الموحدين ومن جاء بعدهم.

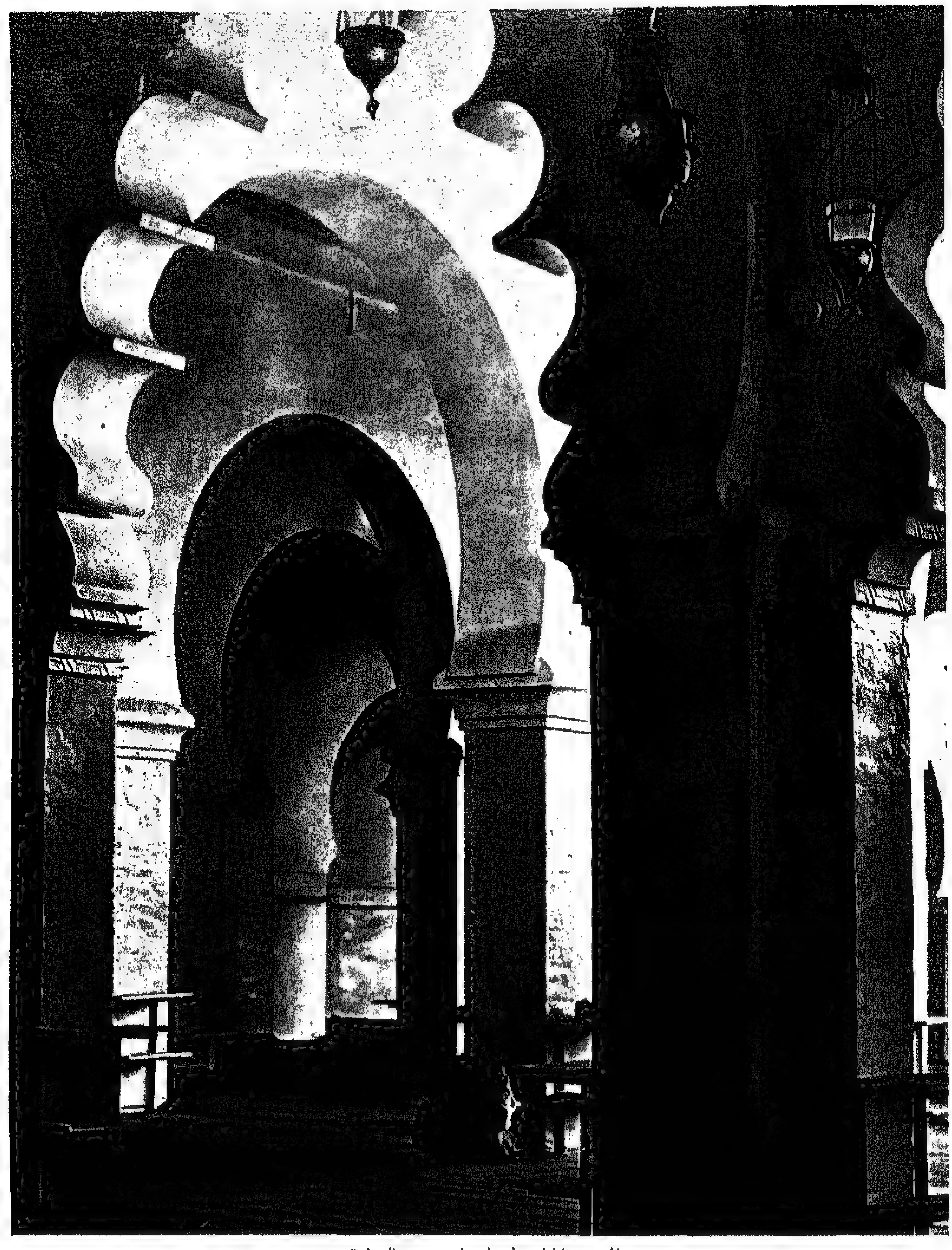
المسجد الجامع في تلمسان

تشير إحدى الكتابات في المسجد الجامع بمدينة تلمسان المغربية إلى أنه بني في عام ٥٣٠هـ (١١٣٥م)، وقد شيّد المرابطون هذا المسجد على أيام علي بن يوسف.

يبلغ عمق بيت الصلاة في مسجد تلمسان ستين مترًا وعرضه خمسين، أمّا الصحن فهو مربّع الشكل وتقطع مجنّباته الشمالية مئذنة مربّعة رُفعت بعد الفراغ من المسجد بستين سنة. وفي الجهتين الشرقية والغربية يحيط الصحن مجنّبات هي امتداد لبيت الصلاة، وهي أربعة أروقة شرقية وثلاثة غربية. هذه الأروقة المتعددة للمجنّبات نقع عليها في عدد من مساجد المغرب، وهي من خصائص الفن المعماري المرابطي، ومعها يبدو الصحن كأنه في وسط المسجد. والجهة الخلفية للمسجد، بما فيها الصحن والمجنّبات، تبدو منحرفة نحو الشرق وتشكل مع بيت الصلاة زاوية منفتحة. ويفترض بعضهم وجود بناء قديم مجاور أوجب انحراف المسجد، وهذا البناء قد يكون قصر الحاكم.

أمّا بيت الصلاة فهو أكبر من الصحن، ويتكوّن من ثلاثة عشر رواقًا تفصل بينها خمسة صفوف من الأعمدة الضخمة المربّعة. وفوقها عقود بعضها بيضوي وبعضها الآخر مفصّص أو على شكل نعل الفرس، وهذه العقود تحمل عوارض خشبية سميكة مزخرفة وعليها يرتكز سقف المسجد القرميدي. والرواق الأوسط أكثر اتساعًا من سائر الأروقة وتتخلله قبّتان، إحداهما ترتفع في الوسط وراء السدّة، والثانية قرب المحراب.

على امتداد الواجهة الشرقية للمسجد تؤيّد الجدار مجموعة دعائم، وبعض هذه الدعائم متصل ببناء قديم بواسطة العقود. هذا البناء الذي يعود إلى القرن السادس عشر كان



المسجد الجامع في تلمسان، بيت الصلاة.

مخصصًا لاستقبال المرضى ومعالجتهم.

يقدّم لنا مسجد تلمسان نموذجًا لكيفية رصف العوارض المستعملة للبناء في القرن التاسع للميلاد، وهي ما تزال في حالة جيّدة. واللافت بينها «الأقفال» وهي قطع خشبية مثلثة الشكل تحمل أطراف السقف المنحني، وهذه الأقفال متساوية الأبعاد ويربط بينها عارضة خشبية يرتكز عليها السقف وقرميده. أمّا السقالة التي يستلقي عليها القرميد فهي مجموعة عوارض متعامدة طولاً وعرضًا ومثبّتة بمسامير كبيرة.

وترتكز كل من القبّة الوسطى وقبّة المحراب على مجموعة أقواس دقيقة متداخلة وهي تبدو لدقتها خطوطًا هندسية عريضة تزين داخل القبة وخارجها. والأقواس المتداخلة تجعلنا نعتقد أنه بني قفص حجري ثم عمد الفنانون إلى ملء الفراغ بالأشكال التزيينية. وهذا النوع من القباب المضلّعة نقع عليه في المسجد الجامع بقرطبة وفي مسجد طليطلة. ثم إن كلاً من القبّتين ينتهي بافريز عريض مزخرف يفصل القبّة عن مجموعة عقود تحملها، والزوايا التي تلتقي عندها العقود غنيّة بالمقرنصات والهوابط الرائعة. واعتماد هذا النوع من العناصر التزيينية كثر، بعد القرن التاسع، في العمارة الإسلامية بالمغرب والأندلس.

لا شك في أنّ المسجد الجامع في تلمسان يمتاز بخصائص معمارية وفنية لم تكن متبعة قبل عهد المرابطين، أهمها ما يتعلق بالمآذن المربعة والقباب مع التركيز على الزخرفة والبعد عن البساطة التي نقع عليها في عدد من المساجد التاريخية التي عرفها العالم الإسلامي قبل ذلك العهد.

مَسْجِدُ تِنمال

تنمال قرية جبلية في قلب جبال الأطلس الخلفية في السوس الأدنى جنوبي المملكة المغربية، لا يصلها الزائر إلاّ عن طريق وعر. وقد اختارها محمد بن تومرت مهدي الموحدين مركزاً لجماعته. وقد لجأ ابن تومرت إل هذا الموضع بعد أن طاف بنواحي المغرب داعياً للتوحيد المطلق، وإلى العودة إلى صفاء الإسلام الأول. وقد استقرت جماعته أولاً في منازل قبيلته هرغة، ثم انتقلت معه إلى تنمال سنة ٥١٥هـ (١١٢١م).

جعل محمد بن تومرت تنمال مركزاً لدعوته، وفي حماية قبائل مصمودة التي انضمت إليه. وضع نظام جماعته وأنشأ قوّتها العسكرية، وبدأ صراعه مع المرابطين سنة ٥٢٥هـ (١١٣١م). وقد قضى عليهم سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) بعدما استولى على مراكش وقتل آخر أمرائهم اسحق بن علي بن يوسف بن تاشفين على يد عبد المؤمن خليفة ابن تومرت.

انتقلت عاصمة الموحّدين إلى مراكش، ولكن تنمال بقيت العاصمة الروحية للموحدين حتى أيام الخليفة الموحدي المأمون. وفيها دفن محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي وابنه أبو يعقوب يوسف ثم ابو يوسف يعقوب المنصور. وكان عبد المؤمن قد قرر أنْ ينشىء في تنمال مسجداً وروضة تكون مدفناً للمهدي ولنفسه وخلفائه. فقام ذلك الجامع سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وجاء من المعالم المعمارية المهمة في المغرب.

يقع المسجد في الطرف الغربي من تنمال ومقاييسه ٤٨ و٤٣م وعلى رغم اتساعه فإنه يبدو صغيراً أنيقاً. فبيت الصلاة عميق يشمل معظم المساحة، ويتألف من تسع أروقة واسعة متجهة نحو جدار القبلة وتنتهي عند الرواق المستعرض والموازي لجدار القبلة. وفوق

المحراب تقوم قبّة جميلة تزينها من اليمين واليسار قبتان صغيرتان، وتجاويف هذه القباب مزينة بالمقرنصات.

وعقود مسجد تنمال مدبّبة في غير مبالغة، وأفاريزها مزيّنة بالمقرنصات وخصوصاً عقود رواق المحراب. أمّا المحراب فمزيّن بالزخارف من كل نوع، وعقده من نوع نعل الفرس المكسور.

ومئذنة المسجد مستطيلة الشكل في قاعدتها (٩،٥٠× ٥،٥٠م)، وهي النموذج الذي اتخذه المعماريون لمئذنة جامع الكتبيّة في مراكش، وجدران المئذنة مزيّنة بالزخارف وكذلك العقود.

أمّا صحن المسجد فتحدّ الأروقة جانبيه، وفي كل جهة رواقان، وفيه ثلاثة أبواب، أحدها باب صغير في منتصف جدار الصحن الموازي للقبلة. وفي جدار القبلة داخل بيت الصلاة بابان من على جهتي المحراب، واحد هو باب الإمام وآخر للمنبر الخشبي النقال.

على الرغم من الإهمال الذي تسبب في تهدّم مسجد تنمال فإنّ البقايا الواقفة التي تعاند الزمن تشير إلى غنى المسجد، كالمحراب والجدران وبعض الأعمدة والعقود. وعلى غرار عدد كبير من المساجد التاريخية يمكن ترميم هذا المسجد وتجديده لما يتمتع به من قيمة تراثية وفنية ينبغي ألاّ تزول.

جَامِعُ الكُتُبِيَّةِ في مَرَاكش

نعلم أنّ الفن الإسلامي في المغرب العربي حقق تطوراً مهمّاً في عهد الموحّدين الذين شهدت معهم بلاد المغرب والأندلس حركة معمارية ما تزال معالمها مثار الإعجاب. ونشير هنا إلى أن عناية الموحّدين بالعمران لم تقف عند حدود البناء، وإنما تعدتها إلى حقول الحياة كافة، فقد حضنوا علماء الدين والأدباء والفلاسفة وكثرت في أيامهم أسماء المفكرين الذين ذاع صيتهم في عالم الإسلام وخارجه.

والمعروف أنّ الأمير عبد المؤمن الذي تسلّم زمام الأمر بعد وفاة ابن تَوْمَرْت عمد إلى بناء مسجد «تـازا» وفاء لذكرى مؤسس الدولة الموحدية، وكان ذلك في حدود عام ١١٣٥م. وعندما اجتاح المغرب عام ١١٤٦م وسيطر على مدينة مراكش بنى فيها جامع الكتبيّة الأول الذي تهدم فيما بعد. ولكن دراسة الأرض الواقعة شمالي مسجد الكتبية القائم تساعد على تكوين فكرة عما كان عليه المسجد الأول. وقد اتضح لعبد المؤمن أنّ المسجد لم يشيّد في الاتجاه الصحيح فأهمله وبنى جامع الكتبية الثاني الذي جاء صورة عن الأول. أمّا المئذنة فقد تمّ رفعها في عهد يعقوب المنصور.

ومسجد الكتبية الحالي جاء ملاصقاً للأول، وهو ليس مستطيلاً وإنما له شكل مربّع منحرف فالجدار الشمالي ليس موازيًا لجدار القبلة، وهو نفسه كان جدار القبلة للمسجد الأول، وانحرافه دليل على عدم صحة اتجاه المسجد، ممّا حمل القيّمين على إهماله. وعندما بني المسجد الثاني، وهو المسجد القائم اليوم، زيد رواق بمحاذاة الجدار الشمالي يحدّ صحن المسجد ويوازي جدار القبلة.

صحن مسجد الكتبيّة طويل وقليل العرض، ومجنّباته الشرقية والغربية تحدّها، من كل جهة، أربعة أروقة مكمّلة لأروقة بيت الصلاة. ومن الخصائص المعمارية التي اتبعت في المساجد، وتبرز في الكتبيّة، ارتفاع الرواق الأوسط عن سائر الأروقة، وكذلك الرواق المستعرض الموازي لجدار القبلة. وعند التقاء هذين الرواقين تقوم القبّة فوق المحراب.

فوق الرواق الموازي لجدار القبلة تقوم خمس قباب، واحدة في وسطه فوق المحراب واثنتان فوق طرفي الرواق، ثم اثنتان على مسافة وسط بين قبّتي الطرفين وقبّة المحراب، وكل من هذه القباب يأتي في طرف رواق من الأروقة المتعامدة مع جدار القبلة.

أمّا عدد أروقة بيت الصلاة فهي سبعة عشر رواقًا، منها ستة عشر مغطاة بسقوف قرميدية، والرواق الأوسط تعلوه سبع قباب بينها قبّة المحراب. وتحدّ الأروقة عقود على شكل نعل الفرس، وبعض العقود مسنّنة، وهي ترتكز على أعمدة ضخمة.

ونلفت إلى أنَّ المواد المستعملة في عملية البناء والتزيين كانت من قبل معروفة، وهي الحجر والآجر والجص والخشب والخزف. وقد أظهر المهندسون أنواعًا من العقود جديدة في مسجد الكتبية. والمئذنة المربعة ذات الطبقات المتعددة خاصة لافتة سنتوقف عندها لدى حديثنا عن مئذنة المسجد الجامع في إشبيلية والمعروفة باسم «لاجيرالدا». أمّا العناصر الزخرفية فقوامها الكتابة والتوريقات والخطوط المتداخلة.

إن جامع الكتبية يُعد من مساجد الإسلام التاريخية الكبرى التي ما تزال تحافظ على أصالتها بفضل السهر الدائم والعناية المتواصلة، وهو من المعالم الدينية الشاهدة على عظمة أصحابه ودورهم الريادي في الحضارة الإنسانية.

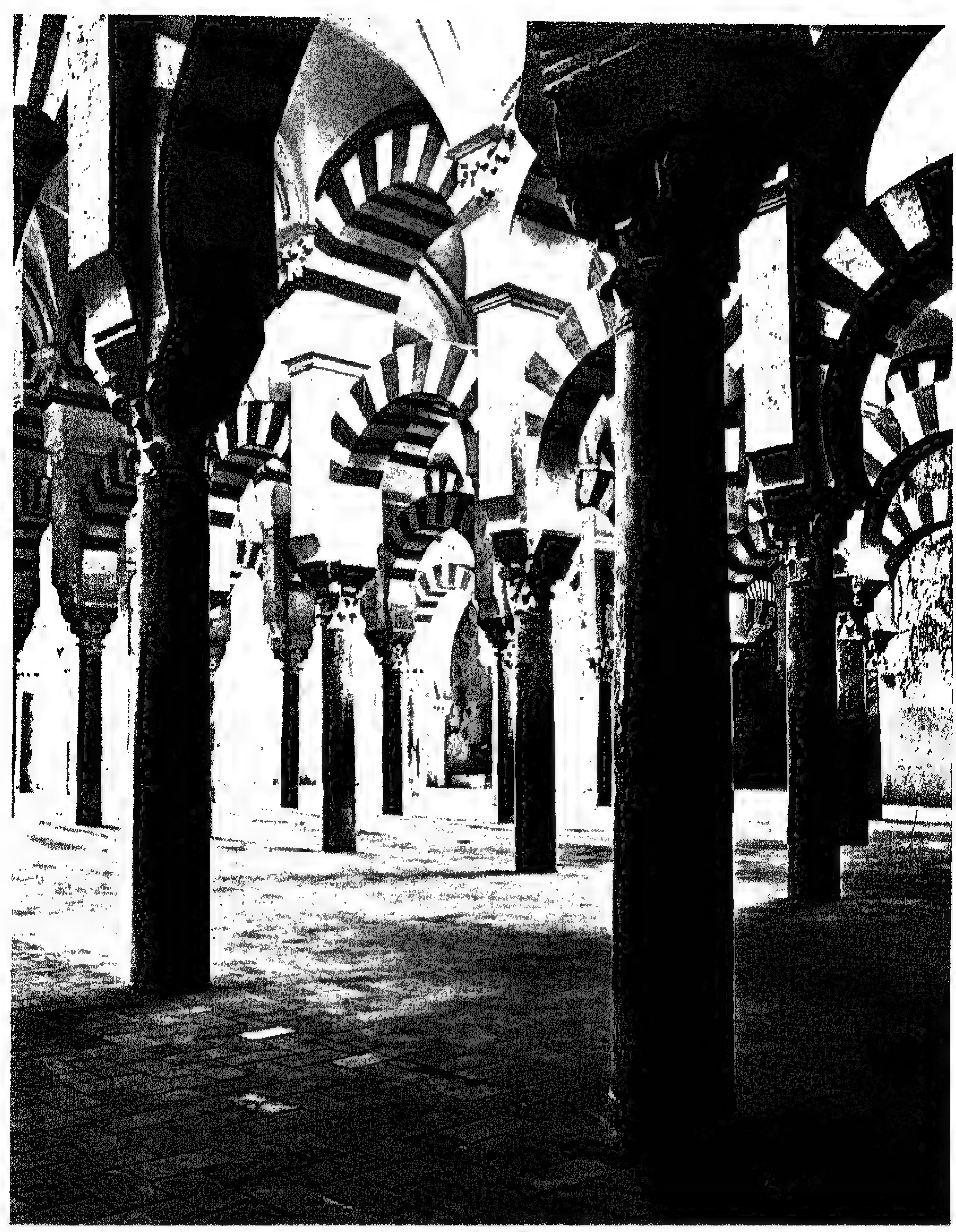
المساجد الأندلسية :

أ ـ المسجد الجامع في قرطبة

يُعدّ المسجد الجامع في قرطبة من أروع الآثار الإسلامية الباقية، ويبدو واضحًا أنّ أيدي الزمن والغالبين لعبت فيه بالتعديل والتحويل. ويحتل المسجد الجامع رقعة فسيحة من الأرض قرب نهر الوادي الكبير، ويشغل بيت الصلاة ثلثي المساحة، والثلث الباقي يشكل صحن المسجد المغروس بأشجار النخيل والليمون.

وقد أوجد المسلمون المسجد مع دخولهم بلاد الأندلس، إذ اتبع الفاتحون مع النصارى سياسة خالد بن الوليد مع أهل دمشق، فشاطر المسلمون نصارى قرطبة كنيستهم التي كانت على اسم القديس منصور (شَنْتْ بَنْجَنْت). جاء في « البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي: « لما افتتح المسلمون الأندلس استدلوا بما فعل أبو عبيدة وخالد، رضي الله عنهما، عن رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من مشاطرة الروم في كنائسهم، مثل كنيسة دمشق وغيرها ممّا أخذوه صلحًا. فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة في كنيستهم العظمى التي كانت بداخلها، وابتنى المسلمون في ذلك الشطر مسجدا جامعًا، وبقي الشطر الثاني بأيدي الروم... ».

ولما جاء عبد الرحمن الداخل اشترى القسم الخاص بالمسيحيين، وهدم البناء ورفع بناء جديدًا على أنقاض القديم، وذلك في حدود عام ١٧٠هـ. ويذكر المقرّي السبب الذي حمل الداخل على هذا العمل فيقول في نفح الطيب: « واقتنع المسلمون بما في أيديهم، إلى أنْ كثروا وتزيّدت عمارة قرطبة، ونزلها امراء العرب، فضاق عنهم ذلك المسجد، وجعلوا



المسجد الجامع في قرطبة، بيت الصلاة.

يعلّقون منه سقيفة بعد سقيفة، يستكنون بها، حتى كان الناس يلاقون في الوصول الى داخل المسجد الأعظم مشقّة لتلاحق تلك السقائف، وقصر أبوابها، حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض. ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس واستولى على إمارتها وسكن دار سلطانها قرطبة. فنظر في أمر الجامع، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه، فأحضر أعاظم النصارى وسامهم بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه».

أمّا عملية البناء فقد جعلها بعضهم في سنة واحدة، كابن عذاري الذي يقول: «وكان شروع عبد الرحمن الداخل في هدم الكنيسة وبناء الجامع سنة ١٦٩هـ، وتمّ بناؤه وكملت بلاطاته واشتملت أسواره سنة ١٧٠هـ، فذلك مدة من عام كامل». والذي ساعد على سرعة الإنجاز أنّ البنائين أفادوا من بقايا قائمة من الكنيسة، كما جمعوا أعمدة الكنائس المهدمة من أجل أروقة المسجد. أمّا المقرّي صاحب «نفح الطيب» فيرى أن الجامع كمل بالفعل سنة ١٧٠هـ ٧٨٥٠م) ولكن العمل به ابتدأ في مطلع سنة ١٦٨هـ، فيكون بناؤه استغرق ثلاث سنوات وليس سنة واحدة.

أما أبعاد المسجد من حيث الطول والعرض فقد حددها أبو سعيد البكري المتوفّى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) في كتابه «المسالك والممالك» بقوله: «وكان طول سقف البلاطات من المسجد الجامع، وذلك من القبلة إلى الجوف، قبل الزيادة، كان مايتين وخمسة وعشرين ذراعًا، والعرض من الشرق إلى الغرب مائة ذراع». وكان المسجد مكونا من تسعة أروقة عمودية على جدار القبلة، والرواق الأوسط أكثر اتساعًا من بقية الأروقة، وهو الذي يؤدي إلى المحراب.

وقد أنفق الداخل أموالاً كثيرة لإتمام عمران المسجد وإكمال زينته. وفي هذا المجال يقول الشاعر الأندلسي دحية بن محمد البلوي:

وأنفقَ في دينِ الإلهِ ووجهِه	ثمانينَ ألفًا من لجينٍ وعَسْجدِ
توزَّعها في مسجدٍ أُسّه التُّقى	ومنهجةُ دينُ النبيِّ محمدِ
ترى الذهبَ الإبريزَ فوقَ سموكه	يلوح كبرق العارضِ المتوقِّدِ



المسجد الجامع في قرطبة، القبّة فوق المحراب.

ولم يقصر عبد الرحمن الداخل اهتمامه على جامع قرطبة، بل إنّ بعض المؤرّخين، كالبكري والمقرّي والمراكشي، يرون أنّ مساجد قرطبة بلغت أيام عبد الرحمن الداخل أربعمائة وتسعين مسجدًا.

في سنة ١٧٢هـ (٧٨٨م) توفي الداخل وخلفه ولده هشام. فبادر إلى النظر بأمر الجامع وأنشأ منارته الأولى. في ذلك يقول ابن عذاري: «ثم زاد ابنه هشام صومعة بلغ ارتفاعها أربعين ذراعًا إلى موضع الأذان، وبنى بآخر المسجد سقائف لصلاة النساء، وأمر ببناء الميضأة بشرقي الجامع». وقد توفي هشام سنة ١٨٠هـ (٧٩٦م) فخلفه ابنه الحكم الذي لم يهتم كثيرًا بشؤون الجامع، وتوفي سنة ٢٠٦هـ (٨٢١م). فتسلّم شؤون البلاد عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط، وكان محبًا للعمران، مولعًا بتشييد المساجد وإقامة الجسور والقناطر. وقد عمد الأوسط إلى هدم الجدار الجنوبي بغية زيادة طول الأروقة ونَقَل المحراب الى الجدار الجديد، كما أضاف رواقين إلى المسجد.

جاء في «المقتبس» لابن حيّان: «كثر الناس بقرطبة أيام عبد الرحمن بن الحكم، وانتابوها من كل أوب، حتى تضايق عنهم مسجد جامعها، وأخل كثير منهم بشهود الجمعة. فأمر عند ذلك بتوسيعه والزيادة فيه، ورسم ان يكون ذلك من قِبَل قِبْلته، ما بينها وبين باب المدينة، فعمل بما رسَمه. ومدّ عبد الرحمن زيادته هذه طولاً من موقف حدّ المسجد الأول إلى ناحية القبلة. وكمل عدد أبهاء المسجد أحد عشر بهوًا، صيَّر سعة كل بهو من هذين المزيدين تسعة أذرع ونصف. ووصل هذين البهوين المزيدين بسقيفتين ووصلها من أبوابها بالسقائف التي قبل بجوف المسجد الأقدم المتخذة لصلاة النساء، عقد كل سقيفة منها على تسع عشرة سارية، وفُتح في هذين البهوين بابان بسور الشرق والغرب، فكملت أبواب الجامع السبع».

من أمراء الأندلس الذين اهتموا بالمسجد الجامع في قرطبة الأمير عبدالله بن محمد، وقد زاد الساباط المعقود على حنايا، وأوصل ما بين قصر الإمارة والمسجد الجامع، وهو الذي فتح إلى المقصورة بابًا كان يخرج منه إلى الصلاة. وكانت وفاة الأمير عبدالله سنة ٣٠٠هـ (٩١٢م).

مع عبد الرحمن الناصر الذي خلف جده عبدالله وصلت بلاد الأندلس إلى ذروة

مجدها على الصعد كافة. فيه يقول لسان الدين بن الخطيب في كتـابـه «أعمال الأعلام»: «لمّا تمهّد ملك الناصر زاد في المسجد الأعظم الزيادة الهائلة». وجاء في كتاب «نفح الطيب» أنّ الناصر «أمر بهدم الصومعة الأولى سنة ٣٤٠هـ (٩٥١م) وأقام الصومعة البديعة. وكانت الأولى ذات مطلع واحد فصيّر لها مطلعين فَصَل بينهما البناء فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها. وخبر هذه الصومعة مشهور في الأندلس، وفي ذروتها ثلاث رمانات ملصقة بالسفّود، وكان تمام هذه الصومعة في ثلاثة عشر شهرًا. هذه المئذنة حوّلها الاسبان، فيما بعد، إلى برج للأجراس، وآخر عهدها بالأذان كان سنة ٦٢٥هـ (١٢٣٦م).

فضلاً عن ذلك بنى الناصر الواجهة الشمالية البارزة بأعمدتها وقناطرها التي جعلها على شكل نعل الفرس. وقد خاف الناصر من انهيار الجدار الشمالي الذي بدا فيه العيب، فجاءت الواجهة الجديدة تدعم البناء وتزيّنه.

بعد وفاة الناصر عام ٣٥٠هـ (٩٦٢م) تسلّم شؤون الخلافة ولده الحكم المستنصر بالله الذي أكمل سيرة أبيه، واشتهر بحبه العلم، فجمع من الكتب ما يصعب عدها. واهتم بالمسجد الجامع في قرطبة فأضاف زيادات كبيرة ضاعفت عمرانه وزادت جماله.

يقول ابن عذاري المراكشي: «... وافتتح خلافته بالنظر في الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة. وكان قطر قرطبة قد كثر به الناس، فضاق الجامع عن حملهم ونالهم التعب في ازدحامهم، فسارع المستنصر إلى الزيادة فيه، وأحضر لها الأشياخ والمهندسين، فحدّوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء مادًا بالطول لأحد عشر رواقًا، وكان طول الزيادة من الشمال إلى الجنوب خمسة وتسعين ذراعًا».

وأنشأ الحكم المستنصر محرابًا هو الثالث في جامع قرطبة، وفيه يقول المقرّي: «والجامع الذي ليس في معمور الأرض مثله، فيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحـد على وصفـه، وبقبلته صناعات تدهش العقول، وعلى فرجة المحراب سبع قسّي قائمة على عمد، طول كل قوس فوق القامة، قد تحيّر الروم والمسلمون من حسن وضعها، وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة، اثنان لازورديان، وليس لها قيمة لنفاستها، وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا مثله في حسن صنعته».

فوق المنبر شيّدت قبّة فخمة زخرفت بالفسيفساء الجميلة. وأرسل الأمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني خبراء بوضع الفسيفساء لتعليم المسلمين هذه الحرفة الفنيّة، ويخبرنا لسان الدين أنّ المستنصر زيّن الجامع بالفسيفساء المجتلبة من قبل ملك القسطنطينية مع الصناع المحكمين لذلك، محاذيًا بفعله ما حققه الوليد بن عبد الملك في مسجد دمشق.

أمّا الكتابات التي تزيّن واجهة المحراب فبعضها يصعب فهمه، وممّا كُتب الآية السادسة من سورة «السجدة»: ﴿ذَلِكَ عالِمُ الغَيْبِ والشّهادَةِ العَزيزُ الحَكيمُ﴾. ومن الكتابات: «موفّقُ الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين أصلحه الله». كما نقرأ نص الآية ٢٣ من سورة «الحشر»: ﴿هُوَ اللهُ لا إلَهَ إلاّ هُو المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيْزُ الجَبّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللهِ عمّا يُشْرِكُونَ﴾.

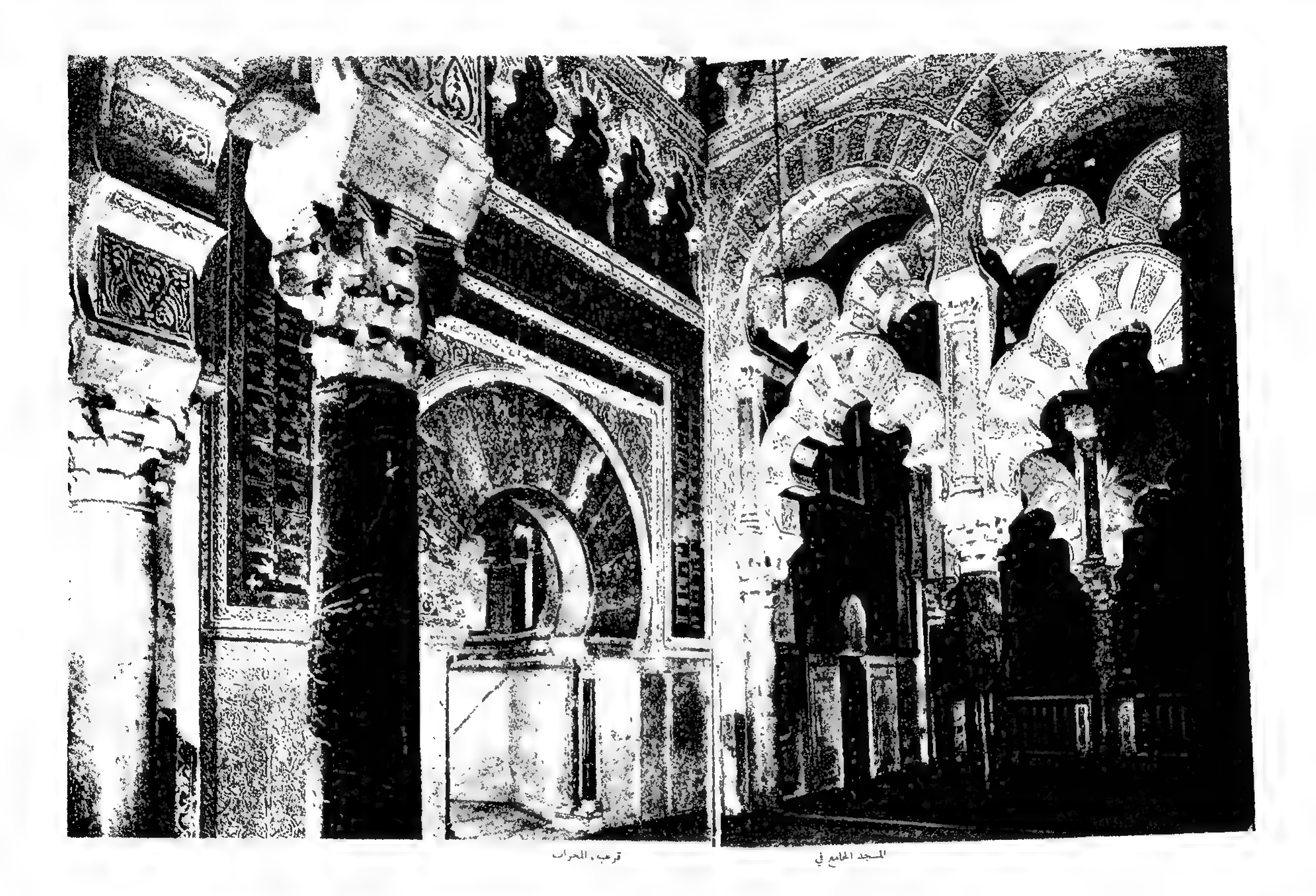
ومن أعمال الحكم المستنصر في جامع قرطبة مدّ قنوات المياه إلى السقايات والميضآت التي أحدثها. وقد أوصل الماء إلى المسجد عبر قناة مدّها من سفح جبل العروس قرب قرطبة. في ذلك يقول الشاعر محمد بن شخيص:

وقد خَرَقْتَ بطون الأرض عن نُطَف	من أعذَب الماء نحو البيت تجريها
طهر الجسوم إذا زالت طهارتها	ريُّ القلوب إذا حرّت صواديها
قرنت فخرًا بأجر قلّ ما اقترنا	في أمّة أنت راعيها وحاميها

كما أنشأ الحكم عددًا من المقاصير، منها مقصورة «دار الصدقة» غربي الجامع، وقد جعلها مركزًا لتوزيع الصدقات، ومقصورة أخرى قبالة الباب الغربي كان الفقراء يتخذونها مسكنًا لهم.

عدا الزيادات التي ذكرنا فإن هذا الخليفة جعل من مسجد قرطبة دارًا للعلم قصدها الطلاب والعلماء من مختلف الملل والنحل. وفي «جامعة قرطبة»، كما يسميها المستشرق «دوزي»، اشتهرت اسماء كثيرة، منها أبو بكر بن معاوية القرشي وأبو علي القالي وابن القوطية.

بعد وفاة الحكم المستنصر، أو الحكم الثاني، تسلّم الخلافة ولده هشام بمساعدة الحاجب المنصور ابن أبي عامر الذي استأثر بالسلطة وأصبح الحاكم الفعلي الوحيد، بعدما أفرد الخليفة من كل شيء، إلاّ من الاسم الخلافي. وقد أولى المنصور جامع قرطبة اهتمامًا خاصًا، وقرر



المسجد الجامع في قرطبة، المحراب

توسيعه بعدما لاحظ أن المؤمنين يؤدون فريضتهم بصعوبة أيام الجمع بسبب الازدحام، وزيادة المنصور هي الأخيرة في المسجد الجامع بقرطبة. فقد هدم الجدار الشرقي وأعاد بناءه بعد إضافة ثمانية أروقة جديدة مع قناطرها.

جاء في « نفح الطيب » للمقرّي: « وزاد محمد بن أبي عامر في عرضه من جهة الشرق ثمانين ذراعًا، فتمّ العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعًا، وزاد ابن أبي عامر ثمانية عُرض كل واحدة عشرة أذرع ». كما وسّع المنصور صحن المسجد المكشوف بما يعادل ثلث المساحة، وأحاط الكل بسور عظيم فيه سبعة عشر بابًا. هذا الصحن المكشوف هو اليوم رحْبة تعرف باسم « فناء النارنج ». وقد زرع هذا الشجر زمن المنصور، وما زال « النارنج » أو « الليمون » قائماً حتى اليوم. إلاّ أنّ السلطات الاسبانية أعادت تنظيم هذا الشجر ونسّقته بحسب الاسلوب العصري وأضافت إليه عددًا من أشجار النخيل، كما جعلت في أرجاء الفناء عددًا من النوافير. وفضلاً عن ذلك بنى المنصور في وسط الفناء، تحت الميضأة، خزانًا كبيرًا من تسعة أقبية تقوم على أربعة أعمدة واثني عشر قوسًا، وما زالت آثار هذا الخزان، أو الصهريج، معروفة حتى اليوم.

ثم إنّ المنصور زيّن المسجد الجامع بعدد من الثريات بلغت مائتين وأربع وعشرين ثريا، منها أربع ثريات كبيرة علّقت في البلاط الأوسط، وأكبرها عُلّقت في القبّة الكبرى حيال المقصورة.

واليوم يبدو المسجد الجامع في قرطبة مرتفعًا فوق غابة من الأعمدة مع قناطر بشكل نصف دائرة. والتعديلات التي أُجريت على البناء جعلته ذا مساحة كبيرة يبدو معها سقف المسجد قليل الارتفاع. ثم إنّ عدم تماسك أجزاء الأروقة حمل المسؤولين على إضافة قناطر جديدة رُكزت فوق أعمدة أقل ضخامة من الأولى. أمّا المزينات داخل المسجد فقد كانت بسيطة حتى عهد الحكم الثاني المستنصر الذي أغنى المسجد بالزخارف، كما قلنا، وهذا ما أعطاه طابع العظمة.

يصف المؤرخ الاسباني « ريكاردو مورينا » صحن المسجد وبيت الصلاة فيقول: « لدى ولوجنا المسجد من باحة البرتقال تنبسط أمامنا دفعة واحدة أروقة المسجد، فيعترينا شعور بأننا أمام غابة مظلمة متشابكة الأغصان متداخلة الفروع. وتمرّ أمامنا أعمدة من المرمر

الملوّن على رأسها تتدلى الأزهار المنقوشة تيجانًا للأعمدة، وفوقها القناطر ذات اللونين الأبيض والوردي، وبين الظلال تسبح في أرجاء المسجد أنوار سحرية تدعو إلى التأمل والصلاة».

وجاء في كتاب «تاريخ العرب» للمؤرّخ حتّي: «يدعم سقف المسجد ألف ومئتان وثلاثة وتسعون عمودًا لها مظهر غابة كثيفة الأشجار. وأنير فضاء المسجد بأضواء تتألق من ثريات نحاسيّة، منها واحدة كان يوقد فيها ألف مصباح».

ذكرنا أنّ المسجد الجامع في قرطبة جُعل دارًا للعلم، فيه تقام حلقات الحديث والأدب واللغة والعلوم الطبيّة والطبيعية والرياضية والفلكية والكيميائية، كما جُعل دارًا للعدل أيام الأمويين. وفي حرم هذا المسجد كانت تتم مراسم أخذ البيعة الجماعية للأمراء والخلفاء، بحضور كبار المسؤولين. فعندما توفي الأمير عبدالله بن محمد في ربيع الأول من سنة ٣٠٠هـ (٩١٢م) جلس حفيده عبد الرحمن بقصر قرطبة ليبايعه أهل البيت الأموي ووجوه البلاد. ثم انتقل إلى المسجد الجامع لتلقي البيعة من أبناء قرطبة والأقطار.

عندما وقعت قرطبة بيد الإسبان (١٢٣٦م) حُوّل المسجد الى كاتدرائية مدّة من الزمن. ويُدهش الزائر عندما يرى مذبح الكنيسة مدسوسًا بين الأعمدة. والجدير بالذكر أن الأمبراطور «كارلوس الأول» الذي أمر ببناء المذبح ندم فيما بعد عما أجراه من تعديلات داخل المسجد.

وما يزال المسجد يحتفظ اليوم بميزاته الأصلية وفتنته الأخاذة. ولدى دخولنا المسجد وتغلغلنا عبر غابة الأعمدة يسمّرنا السكون ويعترينا شعور خاص نتخيّل معه جماعة المصلّين يدخلون حفاة بملاءاتهم البيضاء. إنّ قرطبة المسلمة ما تزال حيّة داخل مسجدها أكثر من أي مكان آخر.

ب ـ مَسْجِدُ أشْبيليَّة

في سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م) أمر عبد الرحمن الأوسط ببناء المسجد الجامع في اشبيلية. وفي متحف الآثار بالمدينة قطعة من عمود رخامي فيه نقش كوفي يشير إلى ذلك: «يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير ا لعدل الآمر ببنيان هذا المسجد على يد عمر بن عبدس

قاضي إشبيلية في سنة أربع عشرة ومئتين».

وقد اشتمل بيت الصلاة في هذا المسجد على أحد عشر رواقًا، وكان الرواق الأوسط أكثر ارتفاعًا من سائر الأروقة. أمّا المئذنة فقد استندت على الجدار الشمالي للجامع. ولم يكن المسجد مربعًا بل جاء مستطيلاً يزيد طوله عن عرضه. ويعرف صحن المسجد اليوم باسم «فناء البرتقال» وكان في أواخر القرن السادس عشر مغروسًا بأشجار الليمون وفي وسطه نافورة ماء.

في عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) أصيبت إشبيلية بزلزال هدم القسم الأعلى من الصومعة، فرمّمها المعتمد بن عباد. ويبدو أن الزلزال جعل البناء يتداعى، مما استوجب تدعيمه.

ولمّا سقطت اشبيلية بيد الاسبان (١٢٤٧م) تحول المسجد الى كنيسة باسم «سان سلفادور» وفي عام ١٣٥٦ ضرب الزلزال اشبيلية فسقط القسم العلوي من المئذنة، فرُمم وجعل برجًا للأجراس. وفي عم ١٦٧١ هُدم المسجد بأكمله ما عدا المئذنة، وشُيّدت كنيسة جديدة على أنقاضه. ولم يبق اليوم من البناء الأساسي سوى القسم السفلي من المئذنة..

في عهد الموحِّدين شهدت إشبيلية حركة عمرانية شملت الأسوار والقلاع والأبراج والقصور والمساجد. وفي عام ١١٧٢م شرع أبو يعقوب يوسف في بناء جامع إشبيلية الأعظم، وكان جامع إشبيلية الذي سبق ذكره قد ضاق بأهله. فقارب الجامع الجديد جامع قرطبة في الاتساع، إذ تكوّن من سبعة عشر رواقًا، واتجاهه من الشمال إلى الجنوب، وكان طوله ١٥٠ مترًا وعرضه ١١٠ أمتار، وبلغ عرض الرواق الأوسط ثمانية أمتار، بينما كان عرض كل من الأروقة الباقية ستة أمتار. ويُعتقد أنّ ثلاثة قباب كانت قائمة فوق المحراب وتزينها المقرنصات على النحو الذي نشاهده في جامع الكتبيّة.

أمّا صحن المسجد فتتخلله ثلاثة أبواب، واحد مواجه لبيت الصلاة ويُعرف باسم باب الغفران، وبابان جانبيان. وجاء هذا المسجد شبيهًا بجامع قرطبة من جهة اتساعه ونظام عقوده وزخرفته.

بعد وفاة «أبو يعقوب يوسف» اهتم خليفته أبو يوسف يعقوب بمسجد اشبيلية. فرفع الصومعة الشهيرة التي تجاوز ارتفاعها صومعة جامع قرطبة. وكان الخليفة الموحّدي قد

انتهى من بنـاء الصـومعـة عنـدمـا انتصر على القشتـاليين في معـركـة « الأرك » المعـروفـة (١١٩٥م). ثم أمر بصنع التفاحات الأربعة المذهّبة ورُكِّبت في أعلى الصومعة.

عندما دخل « فرناندو الثالث »، ملك قشتالة، مدينة اشبيلية عام ١٢٤٧م حوّل المسجد الى كنيسة « سانتا ماريا ». وعلى أثر الأضرار التي لحقت بالبناء من جرّاء الزلزال تقرر هدم المسجد وبناء كاتدرائية على النمط القوطي.

أمّا المئذنة الشهيرة فتحولت الى برج للأجراس، ووقعت منها تفافيحها على أثر زلزال عام ١٣٥٥، كما سقط القسم العلوي من المئذنة على أثر زلزال عام ١٥٠٤. فقام المهندس الإسباني « رويث » عام ١٥٥٨، ببناء برج مكان القسم المهدوم، ونصب في أعلى البناء الجديد تمثالاً من البرونز يدور مع الريح أُطلق عليه اسم « خير الديّو » أي دوّارة الهواء. ثم تحوّر الاسم إلى « لاخيرالدا » وغدا يشمل المئذنة كلها والتي أصبحت اليوم تُعرف باسم « لاخيرالدا » أو « الجيرالدا ».

والذي يقصد اشبيلية اليوم ويزور برج « لاخيرالدا » يلاحظ أنها تتكون من طبقتين: الأولى وهي القسم الأكبر تنتهي بأفاريز أفقية، والثانية برج صغير الحجم يعلو الطبقة الأولى. وكان يعلو البرج قبيبة مقرمدة ركبت فيها التفافيح المذهّبة. أمّا القاعدة فمربّعة الشكل ويبلغ ضلعها ١٤ مترًا، وفي داخل المنارة درج يصل إلى القسم العلوي، وسبعة غرف مربعة تقع الواحدة فوق الأخرى. أمّا الزخارف المحتشدة التي تزيّن الجدران فكان لها أثرها في أبنية الموحّدين وبني مرين وبني نصر. ومئذنة « لاخيرالدا » تشهد اليوم على ما بلغه الفن المعماري الاسلامي من تطور في القرون الوسطى.

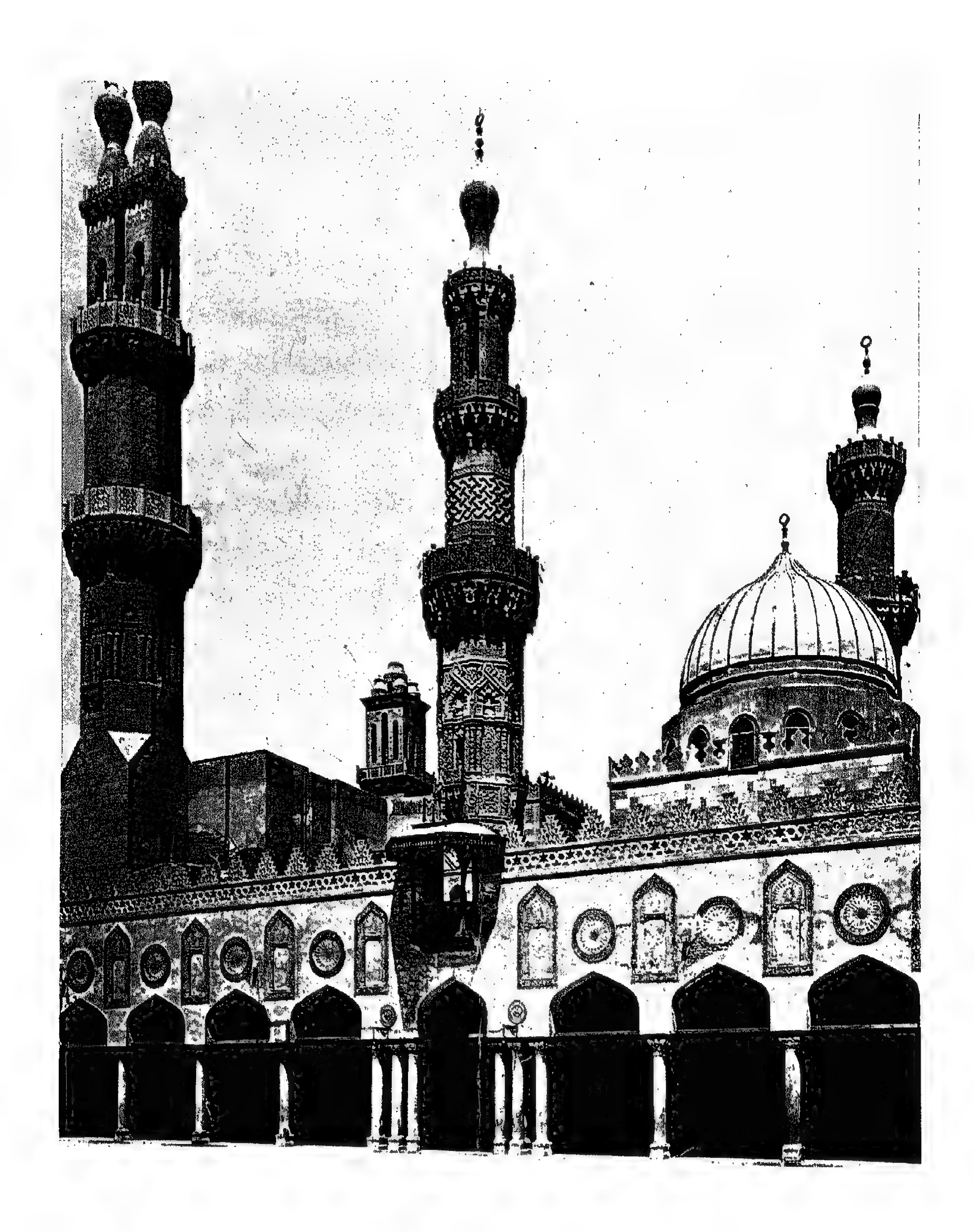
الجامعُ الأزهـــر

شرع جوهر الصقلّي، قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، في بناء الجامع الأزهر في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م)، واكتمل بناؤه وبدأت فيه الصلاة في رمضان سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م)، وكان حجمه في ذلك التاريخ نصف حجمه الحالي.

كان الأزهر مكوّنًا من صحن مكشوف تحف به العقود المدبّبة، تكتنفه ثلاثة أروقة وأكبرها رواق القبلة المؤلف من خمسة صفوف من العقود: أربعة منها محمّلة على أعمدة رخامية وتيجانها مختلفة الأشكال، والصف الخامس المشرف على الصحن محمول على أكتاف مستطيلة القطاع. ويتوسط هذا الرواق مجاز مرتفع يتجه من الصحن إلى جدار القبلة وينتهي بقبّة تغطي الجزء الواقع أمام المحراب. أمّا الرواقان الجانبيان فقد تكوّن كل منهما من ثلاث بائكات (سطح بقباب) ترتكز عقودها على أعمدة من الرخام.

أمّا بيت الصلاة فكانت له مجنّبتان: يمنى ويسرى، لكل منهما ثلاثة أروقة. وبعدما توالت الإضافات أصبح الجامع القديم محصورًا في قلب الجامع الحالي.

في حدود عام ٤٠٠هـ (١٠٠٩م) أمر الحاكم بأمر الله بتجديد مئذنة الجامع وترميم المسجد بعامة. ولم يبق من تلك الأعمال غير باب خشبي بمصراعين نقشت فيه كتابة بالخط الكوفي، ونصها: «مولانا أمير المؤمنين الإمام الحاكم بأمر الله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه» وفي عام ٥١٩هـ (١١٢٥م) أمر الآمر بأحكام الله بصنع محراب متحرك من الخشب، زُخرف بالنقوش وفي طرفيه عمودان يحملان لوحة نقش فيها بالخط الكوفي: «بسم الله الرحمن الرحيم حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله



الجامع الأزهر ، الصحن والمآذن.

قانتين». وبين سنتي ٥٢٥ و٥٤٤هـ (١١٣٠- ١١٤٩م) أُدخلت تعديلات متنوعة على الجامع الأزهر، منها مقصورة في جوار الباب الغربي. كما أضيف إلى صحن الجامع رواق يحيط به من جوانبه الأربعة، وقبّة على رأس المجاز حفلت جوانبها بالزخارف والآيات الكريمة بالخط الكوفي.

إلاّ أنّ ما شهده الجامع الأزهر من عوامل طبيعية افقده الكثير من التعديلات. ومع ذلك فإننا نقع اليوم على بعض ما يعود إلى تلك العهود، وبينها زخارف جصية وكتابات كوفية، وبعض الشبابيك الجصيّة. ومن الأشياء الباقية المحراب الكبير بكتاباته ونقوشه الجصيّة.

في العهد الأيوبي أُهمل الجامع الأزهر وتعرض للزلازل والحرائق، إلاّ أنّه استعاد مكانته في العهد المملوكي، لا سيما في أيام الملك الظاهر بيبرس. فقد رُمِّم الجامع وبنيت فيه مقصورة برسم الفقهاء، وغطي عقد المحراب بكسوة خشبية.

في سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٣م) ضرب القاهرة زلزال شديد تسبب بتصدّع عدد من المساجد ومن بينها الجامع الأزهر. فبادر الأمراء المماليك إلى تجديد المساجد المتضررة، في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م).

ثم أُلحقت بالأزهر المدرسة الطيبرسية الواقعة على يمين الداخل من الباب المعروف بباب المزيّنين بميدان الأزهر. وهذه المدرسة أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش في دولة الناصر محمد بن قلاوون. وألحق بها ميضأة تم إنشاؤها سنة ٧٠٩هـ (١٣٠٩م). وفي سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) انشئت المدرسة الأقبغاوية، نسبة إلى منشئها الأمير علاء الدين أقبغا، وذلك خلال ولاية الملك الناصر قلاوون الثالثة، وجعل بجوارها قبّة ومنارة من حجارة. وقد امتازت هذه المدرسة الملحقة بالأزهر بمدخلها الجميل وبمحرابها الذي لا يقل روعة عن محراب المدرسة الطيبرسية.

وفي سنة ٨٧٣هـ (١٤٦٨م) اعتنى الملك الأشرف قايتباي بالأزهر، فجدد بابه العمودي الواقع بين المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية والذي يؤدي مباشرة إلى صحن الجامع، وبنى المئذنة القائمة إلى يمينه. وفي سنة ٩١٥هـ (١٥٠٩م) شاد السلطان قانصوه الغوري مئذنة عالية تنتهي برأسين وفيها سُلّمان.

في العهد العثماني استمر الاهتمام بالجامع الأزهر، فالولاة الذين عينهم العثمانيون على مصر عمدوا باستمرار إلى تجديد المسجد وترميمه. ففي سنة ١٠١٦هـ (١٦٠٥م) عمد الوالي علي حسن باشا إلى رصف صحن الجامع بالبلاط وأنشأ رواق اليمن، وفي سنة ١١٤٨هـ (١٧٣٥م) بنى عثمان باشا زاوية للعميان خارج الأزهر أمام المدرسة الجوهرية وكانت تشتمل على أربعة أعمدة رخامية مع محراب وميضأة وثلاث غرف، وقد هُدم هذا البناء فيما بعد. كما بنى رواق الأتراك ورواق الأفغانيين.

في سنة ١١٦٧هـ (١٧٥٣م) بنى الوالي عبد الرحمن قازدوغلي الأروقة وراء محراب الجامع، وفي هذه الأروقة بنى محرابًا جديدًا من الرخام مع منبر خشبي، كما أنشأ «باب الصعايدة» وأقام فوقه مكتبًا لتعليم الأطفال القرآن الكريم. وفي داخل الباب أقام صهريجًا داخل رحبة كبيرة مع سبيل ماء، وفي الرحبة عينها بنى لنفسه مدفنًا بقبّة رخامية. وعمد عبد الرحمن كذلك إلى تجديد واجهة المدرسة الطيبرسية وجمع بينها وبين واجهة المدرسة الأقبغاوية بالباب الكبير المشرف على ميدان الأزهر.

وفي عهد الخديوية والملكية استمرت العناية بالأزهر فكانت الترميمات متواصلة. ولا شك في أنّ الجمهورية تولي اليوم الجامع الأزهر عناية خاصة.

لقد غدا الجامع الأزهر محطة مهمة في تاريخ مصر، والذي يتصفح تاريخ هذا المسجد لا يستوقفه عدد الخلفاء والسلاطين والأمراء والولاة والملوك الذين اعتنوا به فحسب، وإنما تستوقفه كذلك اسماء مفكري مصر والعالم الإسلامي ممن وعوا الحياة الدينية والعلمية بعامة في هذا الصرح الكبير.

ومن الذين تولوا التدريس في الأزهر القاضي أبو الحسن بن النعمان بن محمد المتوفّى سنة ٣٧٤هـ (٩٨٤م)، وعبد الملك بن عبدالله الحرّاني المؤرخ (٤٢٠هـ/١٠٢٩م)، وأبو عبدالله القضاعي المؤرّخ الذي أخذ عنه المقريزي. وفي عهد صلاح الدين توقّف التدريس في الأزهر بعدما أبطل صلاح الدين المذهب الاسماعيلي. ورغب في إحلال تدريس الفقه السُّنّي، إلا أن الأزهر بقي خاملاً حتى نهاية الدولة الأيوبية.

في العصر المملوكي تحوّل الأزهر إلى جامعة حقيقية تضم المدرّسين والطلاب والباحثين، ويجري فيه العمل وفق نظام محدد. لذلك اتسع الجامع فقامت فيه الأروقة والزيادات

المتنوعة حتى وصل إلى حجمه الحالي، وهو يكاد أن يكون مدينة قائمة بنفسها. وضمت ملحقات الجامع التعليمية ما يشبه اليوم المدينة الجامعية، وتكوّنت هذه المباني من أروقة يجتمع فيها الطلاب الوافدون من مناطق مصر وأقطار العالم الإسلامي. وتشير أسماء الأروقة إلى بعض تلك الأقطار: رواق الأكراد، رواق الهنود، رواق البغداديين، رواق اليمنية، رواق السودانية، رواق الجاوية، رواق الصعايدة، رواق الفيوميّة... وأشهر هذه الأروقة الرواق العباسي الذي بناه الخديوي عباس حلمي. وكان شبيهًا بإدارة عامة للأزهر يضم إدارة الأزهر ومشيخته ومكتبته ومحفوظاته.

وكان الطلاب الوافدون من الأماكن البعيدة يسكنون في حارات حول الأزهر، مثل حارة العفيفي والزرافة والسليمانية وغيرها.

وقد قام بالنهضة الفكرية في مصر والعالم العربي عدد كبير ممن كانوا طلاب الأزهر. ويضيق المجال أمام تعدادهم، ونكتفي بذكر بعضهم، مثل عبد الرحمن الجبرتي، ورفاعة رافع الطهطاوي، وعلي مبارك، ومحمد عبده، وسعد زغلول، ورشيد رضا، وعبدالله النديم، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وأحمد حسن الزيات، ومحمد مصطفى المراغي وسواهم.

في عام ١٩٦١ دخل الأزهر في مرحلة جديدة، إذ تحول إلى جامعة حديثة تحتفظ في الوقت نفسه بالدراسات التقليدية اي دراسة الإسلام واللغة العربية، إلى جانب فروع الاختصاص الحديثة في مختلف حقول المعرفة. فازداد عدد الطلاب وأصبح الأزهر اليوم مؤسسة دينية علمية فريدة.

المساجد المملوكية في مصر

من التقاليد القديمة في بعض دول الإسلام إنشاء المساجد الكبرى على الأضرحة، أو إقامة الأضرحة المساجدية. وقد جرت العادة أن تبني الجماعة مسجدًا لمن ترى فيه الصلاح والتقى، وتعتبر الصلاة في هذا المسجد نوعًا من التماس البركة.

عندما توفي الإمام الشافعي أقيم له ضريح وتمّ ترميمه غير مرّة. وفي العصر الأيوبي أقيم على قبر الشافعي سنة ١٢١١م مسجد كبير ذو قبّة جميلة تحتل الجزء الأكبر من سقف بيت الصلاة. ولم يكن قبر الإمام الكبير تحت القبّة وإنما كان وما يزال في صحن المسجد وحوله سياج من حديد والمبنى الجديد انشىء في عصرنا على أساس المبنى القديم.

وقد تطورت أشكال الأضرحة المساجدية خلال العصر المملوكي ابتداءً من سنة ١٢٥٠م. فتحوّل الضريح شيئًا فشيئًا إلى مجموعة مساجدية تضم مسجدًا ضخمًا وضريحًا صغيرًا يكون في الغالب في صحن المسجد على أحد جانبيه، ومدرسة. وقد يضاف إليه مارستان، أو مستشفى، كما هي الحال في المجموعة المساجدية البديعة التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون. كما قد يبنى سبيل ماء لتشرب منه المارة. وكانت سبل الماء واسعة الانتشار في عالم الإسلام بعامة وفي مصر بخاصة، وهي قطع معمارية تدخل ضمن نطاق العمارة الدينية. ولم يبق من السبل التاريخية في مصر إلاّ قليل، منها سبيل أم عباس وهو مبنى حديث ما يزال قائمًا في الطريق من حي السيدة زينب إلى حي القلعة.

وفي أحيان أخرى كانت تلحق بالمجموعة خانقاه أي دار للصوفيّة والمتعبدين. وأول



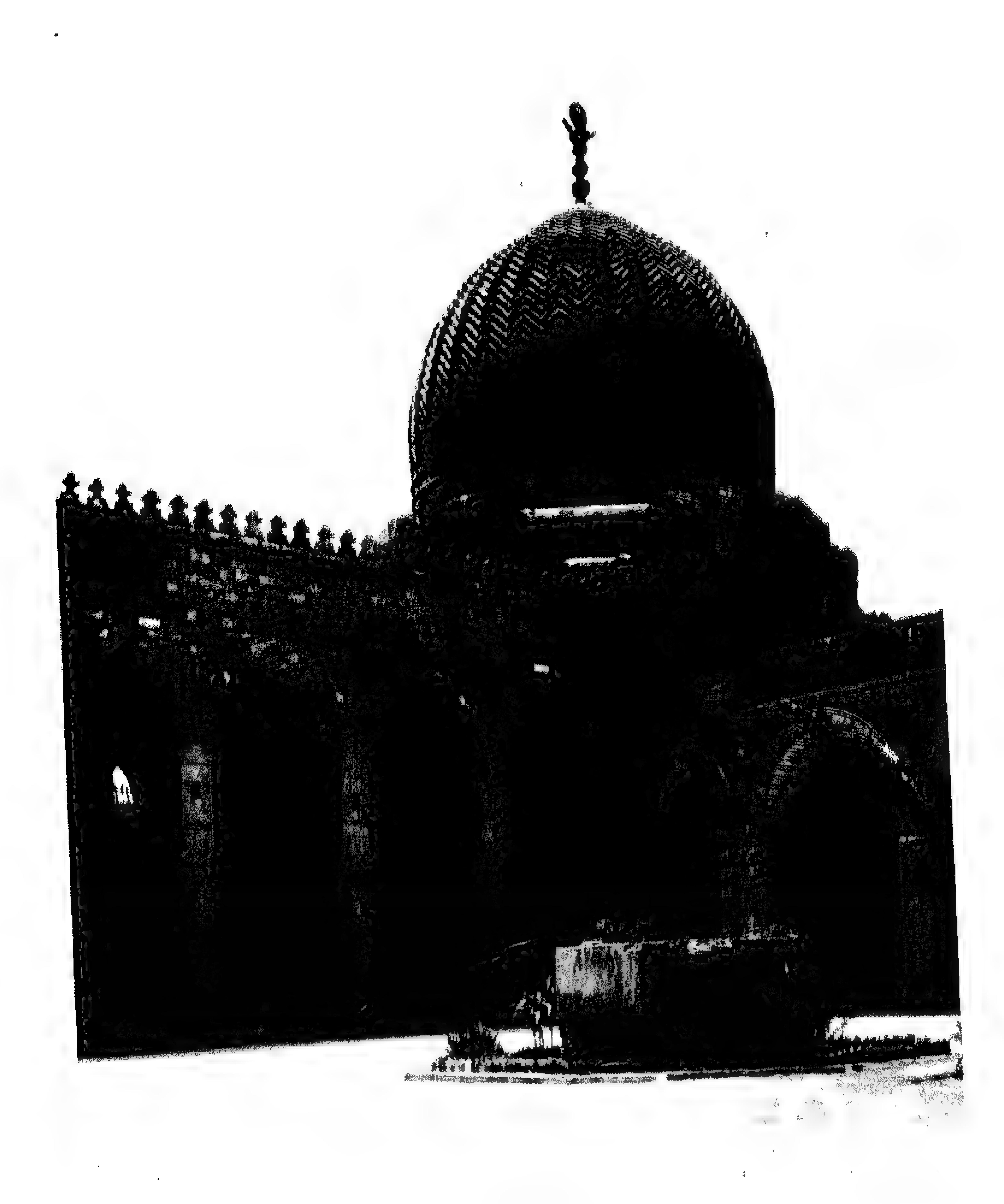
مسجد محمد ناصر بن قلاوون في القاهرة.

من بدأ بذلك كما يُظن صلاح الدين الأيوبي، إذ أقيم على تربته في القلعة مسجد وأُلحق به سبيل وخانقاه.

ثم تطور هذا الشكل من المجموعة المساجدية في سنة ١٣١٠م عندما أنشأ السلطان الظاهر بيبرس مسجده الباقي إلى اليوم، وهو مسجد فسيح جميل وإلى جانبه مدرسة لتعليم القرآن والحديث. والمعروف أنّ الظاهر بيبرس توفي في دمشق عام ٦٧٦هـ ودفن فيها، وقبره قائم اليوم في البناء الأثري الذي تحوّل إلى دار الكتب الظاهرية. وتطور الأمر بعد ذلك عندما جعل كبار أمراء المماليك قبورهم على شكل أضرحة تقوم فوقها قبّة كبيرة، ويلحق بالضريح كتّاب لإقراء القرآن الكريم وسبيل ماء. ونجد أمثلة كثيرة لذلك في ما يعرف اليوم بمقابر الخلفاء المنتشرة في مساحة واسعة جنوبي غربي المقطّم وتمتد إلى مشارف الفسطاط. وكانت تلك المنطقة في ذلك الوقت صحراء لا تعمّرها إلا هذه القبور.

في هذا الموقع أنشأ السلطان برقوق مجموعته المساجدية بين سنتي ١٤٠٠ و١٤١٠م وهي تضم مسجدًا وضريحًا ومدرسة وسبيل ماء ومنظرة لجلوس السلطان خارج بيت الصلاة، ومقعدًا في الطبقة العليا يجلس فيه السلطان والأمراء والفقهاء بعد صلاة الجمعة والعيدين. والمقعد في مصطلح العمارة المصرية غرفة ذات شرفة واسعة تبنى في الطبقة الثانية من الدار أو على سطح المسجد. وفي الموقع نفسه، وفي اتجاه النيل إلى الغرب، تقوم مجموعة السلطان فايتباي التي أتينا على ذكرها.

وأضخم هذه المجموعات هي التي أنشأها السلطان قلاوون في حي الجمالية بالقاهرة. وهي تضمّ مسجدًا فسيحًا تعلو بيت صلاته قبّة كبيرة تقوم على ست دعائم حجرية تؤيّدها ستة أعمدة من الرخام. وهناك قبّة ضخمة أُخرى أُنشئت على طراز قبّة الصخرة تقوم على تربة قلاوون. أمّا المدرسة والمارستان فقد شيّدتا مكان قصر فاطمي قديم، واستعملت حجارة القصر وأعمدته وأخشابه في البناء القلاووني. والمارستان من أضخم المستشفيات التي أقامها المسلمون في العصور الوسطى، وما يزال قسم منها مستشفى للرمد. ويذكر المؤرخون أنّ هذا المارستان كان في الوقت عينه مدرسة للطب والصيدلة.



ضريح السلطان برقوق في القاهرة.

هذه المجموعة تشكل كلاً معمارياً تتشابه فيه العقود والدعامات والأعمدة، ومعظم العقود من النوع المدبّب. وقد توخى المعماري هذا النوع من العقود نظراً إلى صلابته وقوة تحمّله، ومباني المجموعة كلها مبنية من الحجر المنحوت، ويتجلّى بوزنه وضخامته.

على هذه المجموعة تشرف أضخم مئذنة بنيت في مصر، وهي وحدها بناء قائم بنفسه وفيه شَبَه بالمآذن المغربية. والمئذنة بناء ضخم مربع يرتفع قرابة عشرين متراً حتى شرفة الأذان الأولى وهي شرفة واسعة أنيقة. وبعد الشرفة يستمر بدن المئذنة صاعداً نحو ثمانية أمتار وصولاً إلى شرفة أذان ثانية حولها سياج من حديد، وفوق الشرفة الثانية يرتفع جوسق ضخم علوّه ستة أمتار من الحجر المزخرف، وفي أعلى الجوسق مظلة حجرية تقوم فوقها عمامة المئذنة.

وجدران المئذنة الأربعة مزينة بنوافذ كبيرة تعلوها عقود مدبّبة، وهذه النوافذ تضيء داخل المئذنة وسلمها العريض. أمّا واجهة المبنى فهي ذات أدوار يميّز كلاً منها صف من الأبواب والنوافذ في الدور الأرضي، ثم عقود ضخمة مدببة الرؤوس تغطي الواجهة كلها وفي داخلها صفوف من النوافذ مختلفة الأحجام والأشكال.

وقد جرى عددٌ كبير من المماليك على هذا التقليد كالسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي بنى مسجدا وروضة في الجانب الأيسر خلف القلعة، والسلطان المؤيد الذي شيّد في حي زويلة مسجداً فخماً فيه بيت صلاة فسيح وهو ذو جدران عالية مبنية بالحجر الجيري المنحوت، ويمتاز هذا المسجد بجدار قبلته المكسو بالرخام وبمحرابه الذي يعتبر من أجمل ما صنعه المصريون من المحاريب المكوّنة من قطع الرخام الملوّنة والمتداخلة. وهو ذو أعمدة متناسقة وفي آخر الرواق الأوسط من جهة المحراب ترتفع قبة عالية، ومئذنتا المسجد تلفتان نظر من يدخل باب زويلة. أمّا مدرسة المسجد فتقع في الجهة الخلفية وفيها ضريح السلطان المؤيد.

ونظراً إلى حرص المماليك على بناء مساجدهم في شارع المعز الذي يمكن ولوجه من باب زويلة، فقد اكتفى الكثير من المماليك بمساحات صغيرة لمجموعاتهم المساجدية التي تكونت من مسجد وروضة ومدرسة، واستغنوا عن الصحون في كثير من الحالات.

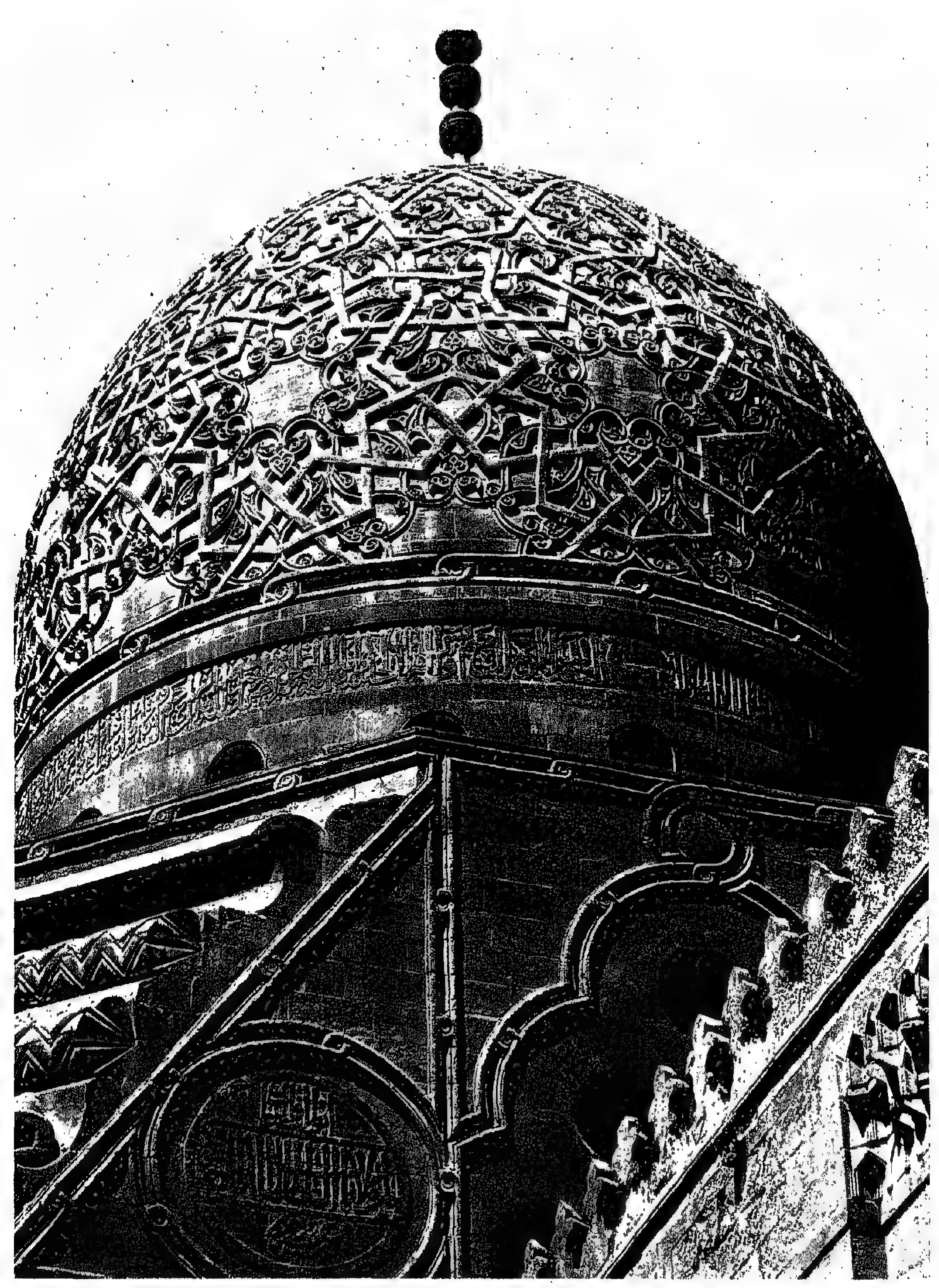
إلاّ أن السلطان حسن (٧٤٨-٧٥٢هـ/ ١٣٤٧-١٣٥١م) وهو من صغار أولاد الناصر محمد بن قلاوون، اختار لمسجده مساحة كبيرة تصل إلى ثمانية آلاف متر مربع عند سفح القلعة، وفيها أنشأ مسجدًا من أجمل مساجد القاهرة. وهو عبارة عن مجموعة من المباني يتوسطها مسجده الفسيح. ويتكون المسجد من بيت صلاة أنيق مرتفع الجدران تزينه الدعامات والأعمدة وترتفع فوقه قبّة عميقة التجويف، ويفضي بيت الصلاة إلى صحن فسيح تتوسطه ميضأة بديعة. وتحيط بالمسجد أربع مدارس خصصت لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة. أما روضة السلطان فصغيرة وتقع جنوب المسجد، فتبدو كأنّها امتداد لبيت الصلاة، وفي هذه الروضة مسجد صغير تعلوه قبّة صغيرة. أمّا المدارس الأربعة الملحقة بالمسجد فان كلاً منها يتألف من رحبة صغيرة مكشوفة وقاعة للدرس، وفي جوانب الرحبات وقاعات الدرس خلوات صغيرة يستذكر فيها الطلاب أو يعتكفون لقراءة القرآن الكريم. ومن أجمل ما في هذا المسجد واجهته العالية يزينها مدخل يتكون من عقد واحد مرتفع، وهي من أجمل واجهات مساجد مصر.

أمّا مسجد الرفاعي المقابل لمسجد السلطان حسن فمبنى حديث أقيم في عهد أسرة محمدعلي ليكون مسجدًا وضريحًا لأفراد الأسرة. وقد جاء في تصميم واجهته ومآذنه مشابهًا لمسجد السلطان حسن. والمسجد يمتاز بصحنه الواسع، وقد اشترك في الاشراف على بنائه مهندسون من أوروبا.

ويضيق المجال أمام استعراض مساجد مصر المملوكية، لذا اكتفينا بأهمها وبما له من مكانة في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر. وآخر المساجد المملوكية المهمة هو مسجد السلطان قانصو الغوري، وهو قطعة فنّية جمع فيها هذا السلطان أطرافًا من أجمل ما امتاز به العصر المملوكي. وكان الغوري سلطانًا فقيرًا تولى الحكم وهو شيخ مثقل بالمتاعب، فجاء مسجده صغيرًا، إلاّ أنّ واجهته وبيت صلاته يمتازان بجمال فريد. والمدرسة الملحقة به تستخدم اليوم مرسمًا للفنانين، وإلى جواره واحدة من الدور الباقية من عصر المماليك تُعرف باسم «المسافر خانة».



أضرحة السلاطين المماليك في القاهرة.



ضريح السلطان قايتباي في القاهرة.

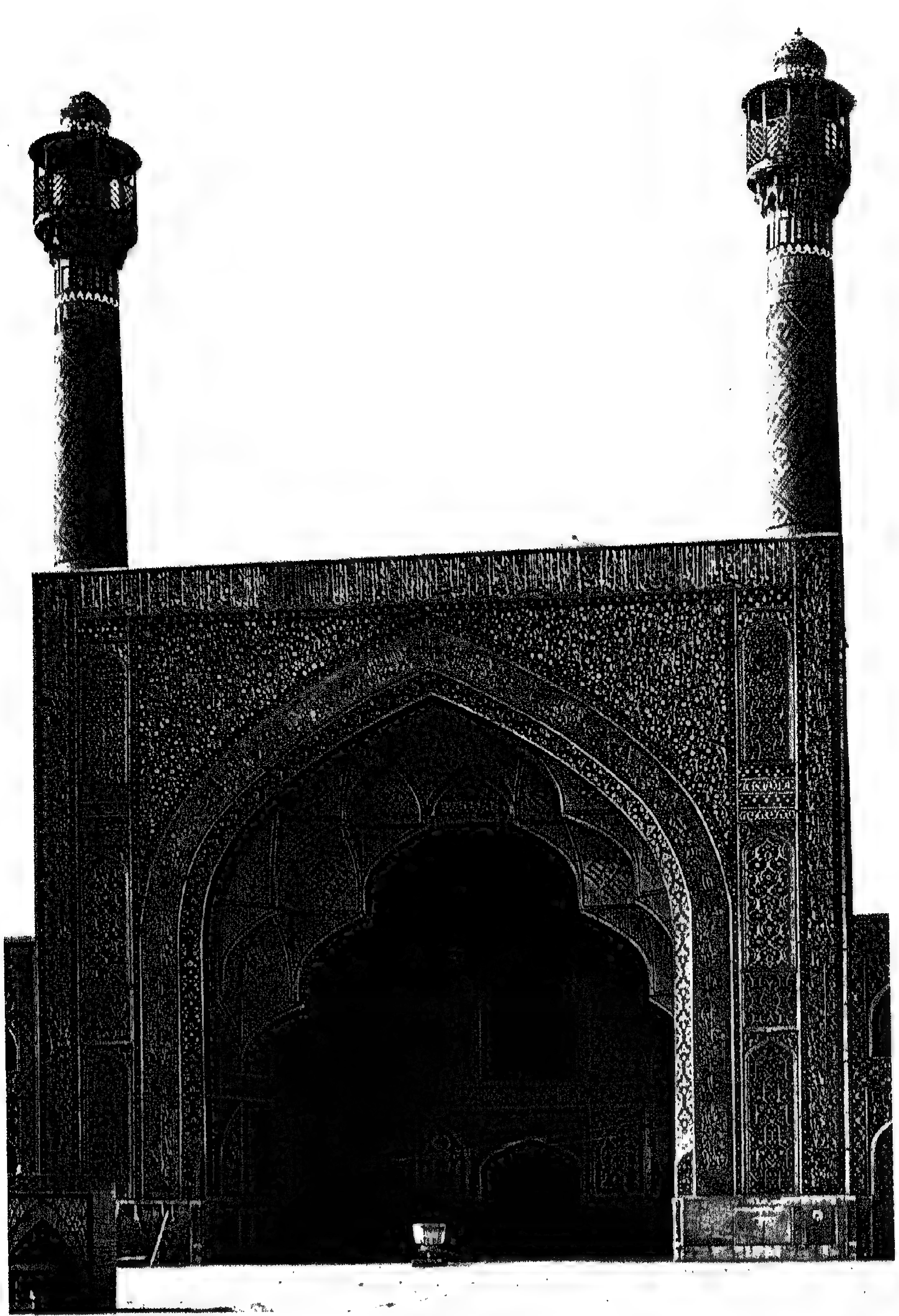
المساجد السلجوقية

شرقي العراق تمتد مناطق شاسعة تصل إلى غرب الصين، وهذه المناطق دخلها الإسلام وشملها قبل نهاية القرن الأول للهجرة، وهي المعروفة اليوم باسم إيران وأفغانستان والباكستان والجمهوريات السوفياتية الإسلامية. وقد كانت فيما مضى مسرحًا كبيرًا للحروب والاضطرابات، وهذا ما تسبب في قيام دول متعددة. وتتابع الحوادث طوال العصور الإسلامية جعل من الصعب على المؤرخين العرب تتبعها بدقة، اذ تنقلت العواصم من مدينة إلى أُخرى مع قيام الدول وسقوطها. وبعض المدن الكبرى مثل مرو ونيسابور وطوس تعاقب عليها العمران والخراب مرة بعد مرة فتغير موقعها وشكلها.

وبصورة عامة نقول إنّ تلك البلاد كانت تنقسم، عند الفتح العربي، إلى إقليمين كبيرين: اقليم تسكنه الشعوب الإيرانية وآخر تسكنه الشعوب التركية، والحد الفاصل، على وجه التقريب، يقع قرب نهر جيحون. وإلى شرق بحر قزوين يقع اقليم خوارزم حيث تختلط العناصر التركية والايرانية والقوقازية. أمّا منطقة ما وراء النهر، وبين نهري سيحون وجيحون، ففيها سمرقند و بخاري وترمذ وبلخ، ووراء جيحون تمتد بلاد التركستان، وبعدها تأتي هضبة پامير ثم بلاد الصين.

وفي مدرسة الإسلام تخرج في هذه المناطق كبار العلماء، ومنهم محمد بن اسماعيل البخاري، وأبو عبدالله الترمذي، وأبو زيد البلخي، وأبو الريحان البيروني. وفي طوس دفن حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي.

في سجستان قامت الدولة الصفارية، وفي خوارزم الدولة السامانية، وفي أذربيجان دولة



المسجد الجامع في أصفهان.

بني الساج، وفي طبرستان بنو زياد، وفي أفغانستان دولة الغزنويين. وهذه الدول تعاقبت على تلك المناطق في القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد).

في منتصف القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) ظهر السلاجقة الأتراك، فانطلقوا من تركستان واجتاحوا المناطق واستقروا في إيران. ثم دخلوا العراق وأزالوا دولة البويهيين ودخلوا في خدمة الخلافة. وفي عام ١٠٧١م تصدّوا للدولة البيزنطية وانتصروا بقيادة «ألب أرسلان».

لقد قامت دولة السلاجقة سنة ١٠٣٧م عندما احتل «طغرل بك» مدينة مرو، وسادوا شرق العراق وبلاد فارس إلى سنة ١١٩٤م. وأصبحت تلك الأقاليم دولة واحدة يحكمها السلاجقة. ومن أعمال السلاجقة إنشاء المدارس، لا سيما على يد نظام الملك وزير السلطان «ألب أرسلان» الذي أنشأ المدرسة النظامية في بغداد والنظامية في نيسابور. وهذه المدارس كانت تعد من المنشآت الدينية.

أمّا المساجد ذات الطراز السلجوقي فأقدمها يرجع الى القرن السابع للهجرة، وهو جامع «أولو» والمارستان الملحق به في بلدة «دفريجي» في الأناضول، وقد بني هذا المسجد عام ٦٢٦هـ (١٢٢٨م). وهو من الحجر المصقول المتقن الرصف، وسقفه محمول على عقود حجرية متشابكة، وعقد البلاطة الثالثة في رواق القبلة يقوم فوق حوض رخامي تصب فيه نافورة. وهذه البلاطة ذات النافورة رمز للصحن الذي استغني عنه في ذلك المسجد بسبب برودة الجو. والباب الشمالي لهذا المسجد مشهور بزينته الجصية وكثرة زخارفه، وهي شبيهة بالزخارف المحفورة في الخشب. أمّا المارستان فيقوم سقفه على عقود حجرية تستلقي على دعائم وأعمدة.

وكانت مدينة أصفهان، أيام السلاجقة، قد أصبحت عاصمة ايران، إذ دخلها «طغرل بك» عام ١٠٥١م وجعلها عاصمته، فازدهرت حتى غدت من أجمل مدن الإسلام. ولم يقلّ اهتمام السلطان ألب أرسلان والسلطان «ملك شاه» بأصفهان عن اهتمام طغرل بك، وخلّد السلاجقة حكمهم بمنشآت كبيرة، من أهمها المسجد الجامع في أصفهان.

هذا المسجد في اصفهان يروي قسمًا كبيرا من تاريخ ايران بما مرّ عليه من أحداث

فقد أنشأه الفاتحون المسلمون سنة ٦٤٤م في معبد للنار المجوسية عندما دخلوا البلاد، وكان أول أمره مسجدًا صغيرًا. ثم هُدم وبني مرارًا حتى جاء السلاجقة فأعادوا بناءه على الصورة التي بقي عليها إلى اليوم، على الرغم من التعديلات الكثيرة التي أُدخلت عليه. والذي أمر ببنائه هو السلطان ملكشاه السلجوقي.

لم يبق من المسجد الجامع في أصفهان إلاّ جدرانه، أمّا القاشاني والقباب والمآذن التي تزيّن المسجد فتعود إلى العصور التالية. ونعلم أنه مرت بأصفهان دول التيموريين والصفويين والقاجاريين والبهلويين وسواهم.

والمسجد مبني من الحجر والآجر، وينقسم بيت صلاته الى أربعة أواوين، ذلك أن عددًا كبيرا من المساجد الايرانية استغنى عن تكوين بيت الصلاة بأروقة تقوم على صفوف من أعمدة تنتهي بجدار القبلة، واتخذت الأواوين وهي قاعات فسيحة تقوم سقوفها على عقود واسعة مستديرة، وتتصل الايوانات بعضها ببعض عن طريق عقود مدببّة. وقد سارت المساجد الايرانية والعثمانيةوالهندية على هذه الهندسة، ويقوم المحراب عادة في الإيوان الأوسط.

والمبنى الحالي يرجع إلى عصر السلطان «ملكشاه» (١٠٧٢- ١٠٩٢م) وهو الذي أقام قبته البديعة سنة ١٠٨٠م. واجتهد خلفاؤه في تزيين هذا المسجد بالقاشاني الملوّن، وأضافوا إليه زيادات كثيرة حتى غدا كأنه متحف للفن الايراني. وقد أضاف إليه السلطان «أولجايتو محمد خدابنده» قسمًا كبيرًا بين سنتي ١٣٠٣ و١٣١٦م، وعهد إلى وزيره محمد صافي بإنشاء محراب يعتبر من أجمل المحاريب الايرانية وهو مزين بالخزف والقاشاني.

ومن المساجد السلجوقية جامع «جوك» في سيواس، وقد أمر ببنائه الوزير فخر الدين عطا وهو يمتاز بالتناسق والتوازن، فالصحن تتوسطه نافورة تصب في حوض رخامي وتعلوه قبّة جميلة، والرواقان الجانبيان مقسّمان إلى مقاصير صغيرة أنيقة. وبوابة المبنى فخمة مثقلة بالزينة، وهي تتألف من عقد واسع مستدير تزينه ستارة من الرخام المنقوش. وعلى جانبي المدخل مئذنتان من الطراز السلجوقي التركي الأول. وعندما نتأمل هاتين المئذنتين نلاحظ بداية المآذن التركية ذات الشرفة الواحدة، وهي تنتهي في أعلاها بشكل يشبه قلم الرصاص، وتلك هي خاصة المآذن التركية العثمانية التي تطورت مع الزمن.

وللعمارة السلجوقية خصائص يمكن التوقف عند بعضها. فقد أحسن المعماريون اختيار الحجارة، منها الرملية والغرانيتية، ومنها المرمر والرخام. والصخور التي شيدت بها المباني السلجوقية صلبة وفي الوقت عينه تستجيب لأعمال النحت والزخرفة.

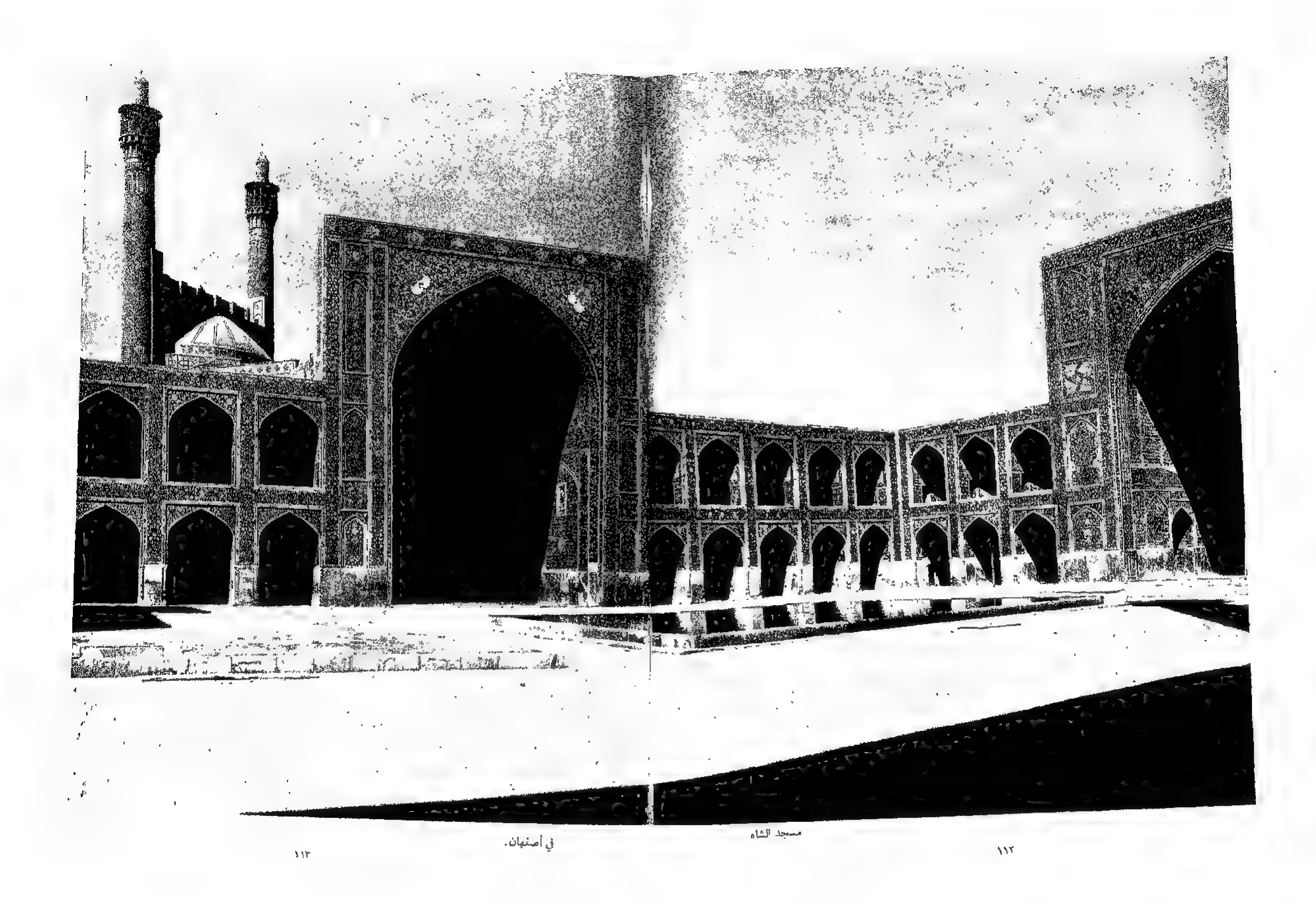
أمّا الفخار والخزف فقد ابتكر منه السلاجقة نوعًا جديدًا هو خزف الفسيفساء الذي استخدم لتغطية الجدران، وهذا النوع من الفسيفساء يكثر في سمرقند ومشهد. كذلك استخدم المعماريون في العصر السلجوقي الرسم على الخشب والمعدن والزجاج و الرخام والمرمر، وأهم الرسوم ما يتعلق بالأشكال النباتية.

والعمارة السلجوقية تمتاز بالمداخل الضخمة ذات العقود المدببة. وقد ترك المعماريون بوابات حجرية ضخمة تكثر فيها الزخارف كما هي الحال في مساجد سمرقند وطشقند وبخارى وغزنة واذربيجان والأناضول، كما زينت المداخل بمآذن عالية على الجانبين. وتبدو جدران المساجد العاليةكأنها أسوار، تتوسطها الأبواب وتزينها فتحات على شكل نوافذ معقودة. ويؤدي الباب الرئيسي غالبًا إلى صحن واسع شبيه بالفناء تحيط به البوائك المعقودة. أمّا بيت الصلاة فهو غالبًا عميق وتتجه أروقته نحو جدار القبلة، كما تقوم عقود الأروقة على دعامات حجرية.

ويُزيَّن جدار القبلة عادة بالخزف أو القاشاني، ويبرز المحراب قطعة زخرفية من الرخام. أمّا المآذن فغالبها مستدير وبعضها مضلّع، ولا يكون للمئذنة في معظم الأحيان إلاّ شرفة أذان واحدة في نهايتها.

وغالب القباب في المساجد السلجوقية مرفوع على رقاب عالية، وتكون القباب من الحجر المزخرف أو الآجر الخزفي.

وفي إيران أخذ هذا النموذج يتطور، وصولاً إلى الطرازالصفوي. أمّا في آسيا الصغرى فقد غدا أساسًا للفن المعماري التركي العثماني.



مسجد الشاه في أصفهان.

المساجد الصفوية

بلغت إيران درجة عالية من التقدم وشهدت تطوراً ملموساً في العهد الصفوي، وغدا لها طابعها المميّز في عالم الإسلام. وقد قامت الدولة الصفوية سنة ٨٩٨هـ (١٥٠٦م) على يد أحد رجال السياسة والحرب هو اسماعيل بن الشيخ حيدر. وقد كان رئيس جماعة صوفية أنشأها صفي الدين الاردبيلي، تبعت المذهب الشيعي الاسماعيلي. وعندما وجد اسماعيل حوله الأعوان الأقوياء أعلن نفسه شاهاً لايران واتخذ اسم اسماعيل الصفوي نسبة إلى صفي الدين الاردبيلي.

والتفّ الايرانيون حول اسماعيل لأن الأتراك العثمانيين كانوا قد امتدوا إلى غرب إيران وشمالها فنهض اسماعيل يردهم عن البلاد وتمكن من إيقاف تقدم العثمانيين. وقد بلغت الدولة الصفوية أقصى قوتها في عصر الشاه عبّاس (٩٩٦- ١٠٨٣هـ/ ١٥٨٧- ١٦٢٩م) وقد تصدى للبرتغاليين فطردهم من ساحل البلاد، وتحالف مع الانجليز وأقام علاقات طيبة مع الهند والصين.

وصاحبت النهضة السياسية نهضة عمرانية فنية، وكان مركزها أصفهان عاصمة الدولة واجتهد الصفويون في تزيين بلادهم بالمنشآت الجميلة وبخاصة المساجد فظهرت في اصفهان وتبريز ومشهد مساجد هي غاية في الجمال.

من المساجد الصفوية «مسجد شاه» في أصفهان، وهو من أعظم ما بناه الشاه عبّاس. يقوم هذا المسجد الفسيح جنوبي ميدان «بخشى جهان»، وهو مجموعة مبان في مبنى واحد. ومدخله الذي يقوم على جانبيه مئذنتان يعتبر أثراً فنيّاً مهمّاً، وصحنه الفسيح تطل عليه

البوائك ذوات العقود المزدوجة تبعث في النفس إحساسًا عميقًا وارتياحًا كبيرًا.

أمّا بيت الصلاة فيه فمليء بالأعمال الفنية، وأروقته ذات عقود مدبّبة، وقبلته مزيّنة بالقاشاني الأزرق، وكذلك محرابه. أمّا قبته الزرقاء السامقة فتقوم على قاعدة دائرية تكثر فيها النقوش والكتابات، والقبة نفسها مغطاة بالقاشاني الأزرق الضـارب إلى الخضرة ومحلاّة بنقوش ورسوم تعتبر قمّة في فن الزخرفة الإسلامية.

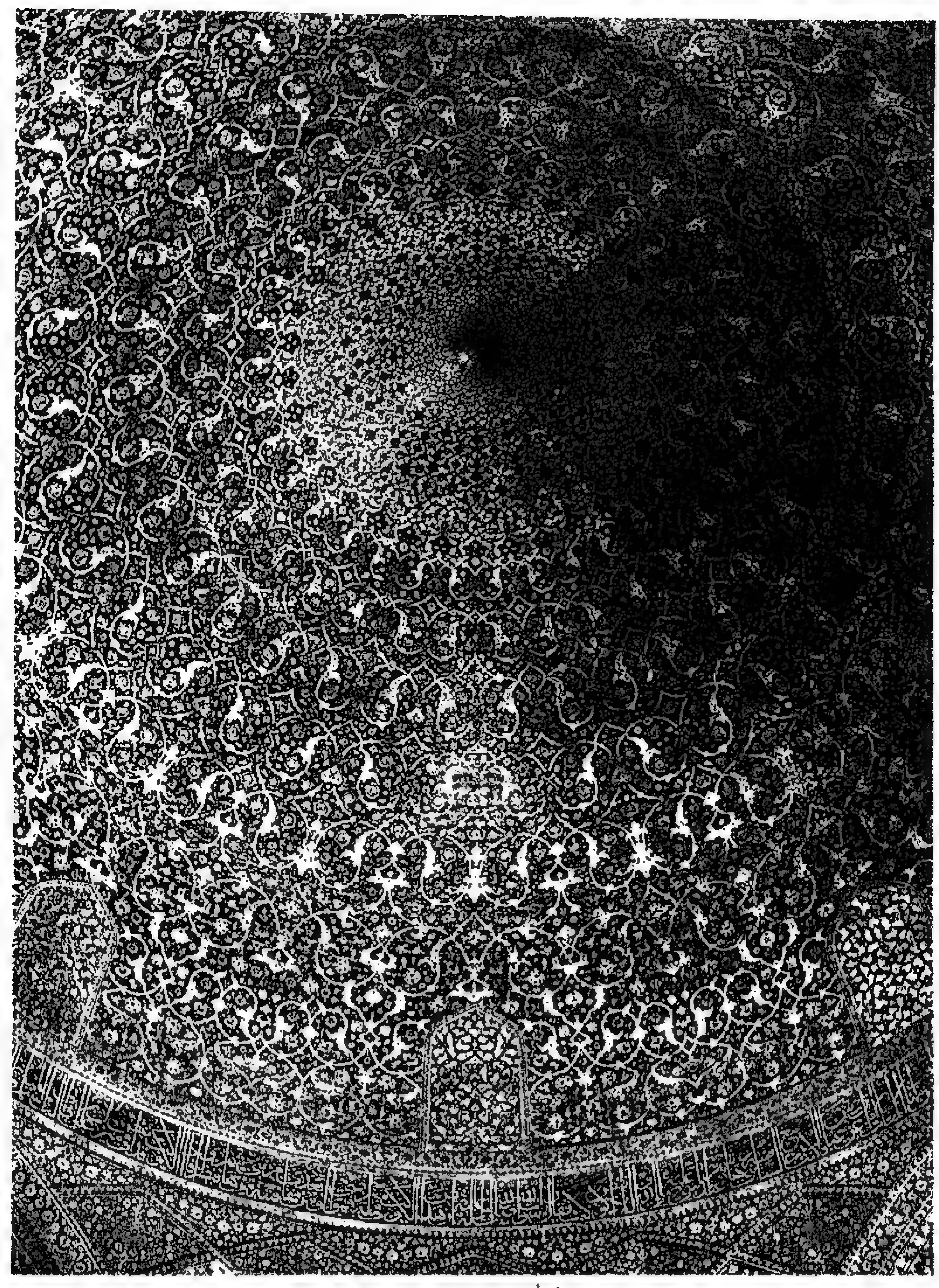
ويقوم بيت الصلاة في مسجد شاه على نظام الايوانات لا الأروقة، والداخل إليه لا يجد نفسه في غابة من الأعمدة وإنما في أبهاء فسيحة تقوم سقوفها على دعائم ضخمة تحمل العقود. والإيوان الأوسط هو إيوان القبلة والمحراب، وكل ما في الرواق مكسوّ بالخزف والقاشاني والرخام.

وصحن الجامع فسيح تطل عليه البوائك من كل جهة، وجهة بيت الصلاة مكسوّة بالقاشاني. وتزين واجهة الجامع مئذنتان مستديرتان، تنتهي كل منهما بجوسق تعلوه اسطوانة وعمامة.

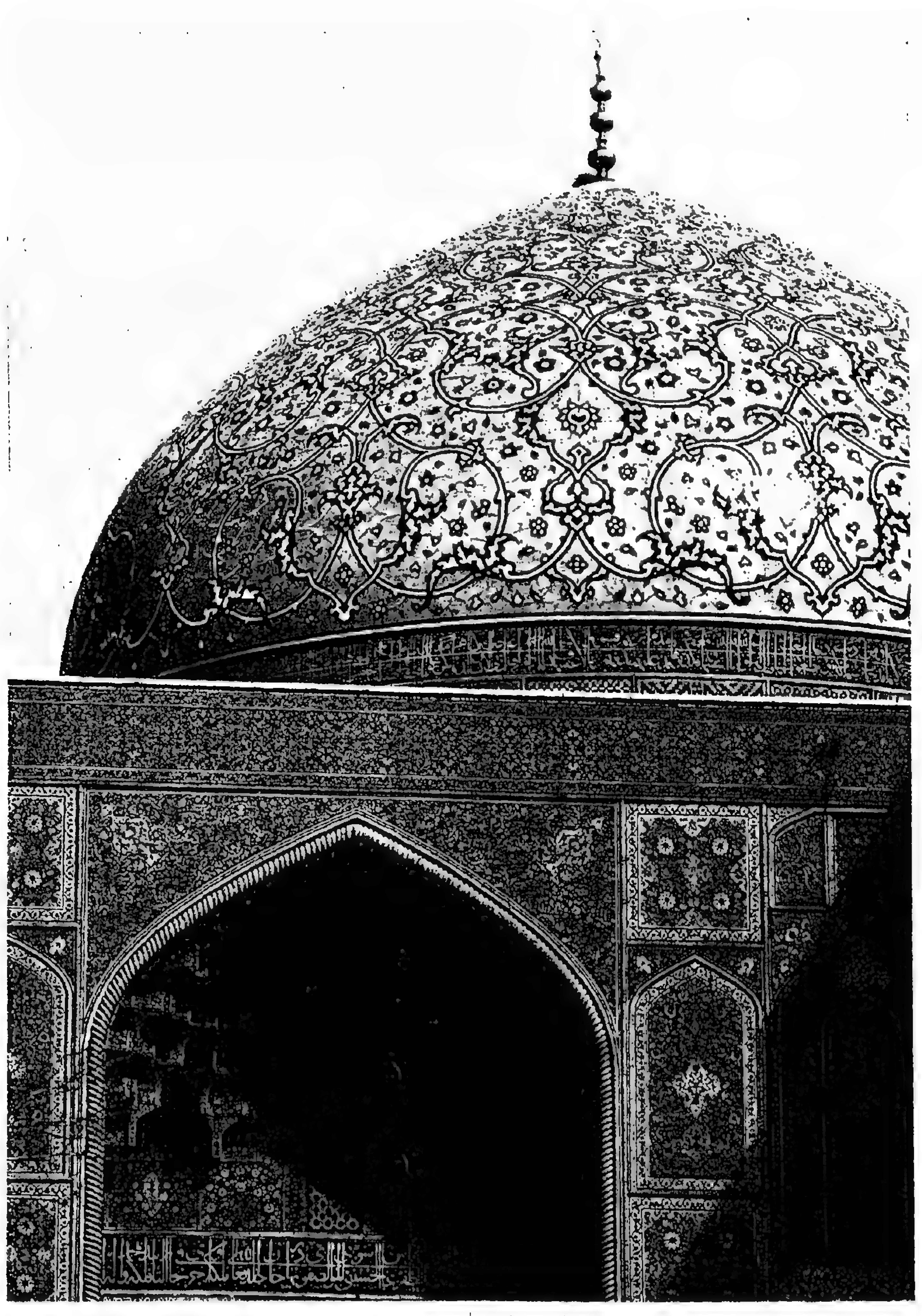
وفي أصفهان مسجد صفوي آخر لا يقل روعة عن مسجد شاه، هو مسجد الشيخ لطف الله الذي تأنّق المعماري الايراني في هندسته وزينته. وقد أمر ببنائه الشاه عباس قبالة قصره الكبير المسمى «عالي قبو» واستمر العمل في المسجد ستّ عشرة سنة (١٦٠٢-١٦١٨م).

يطلق على هذا المسجد اسم المسجد الشاهاني، لأنه في الواقع ليس مسجدًا جامعًا عاديًا، وانما هو مسجد خاص بالمناسبات الرسمية، ولا نجد في المسجد صحنًا ولا مآذن. وكان الشيخ لطف الله كبير الشيوخ في عصر الشاه عباس، وهو من منطقة جبل عامل في لبنان، استقدمه الشاه عبّاس وأحاطه بالتكريم وأنشأ له هذا المسجد.

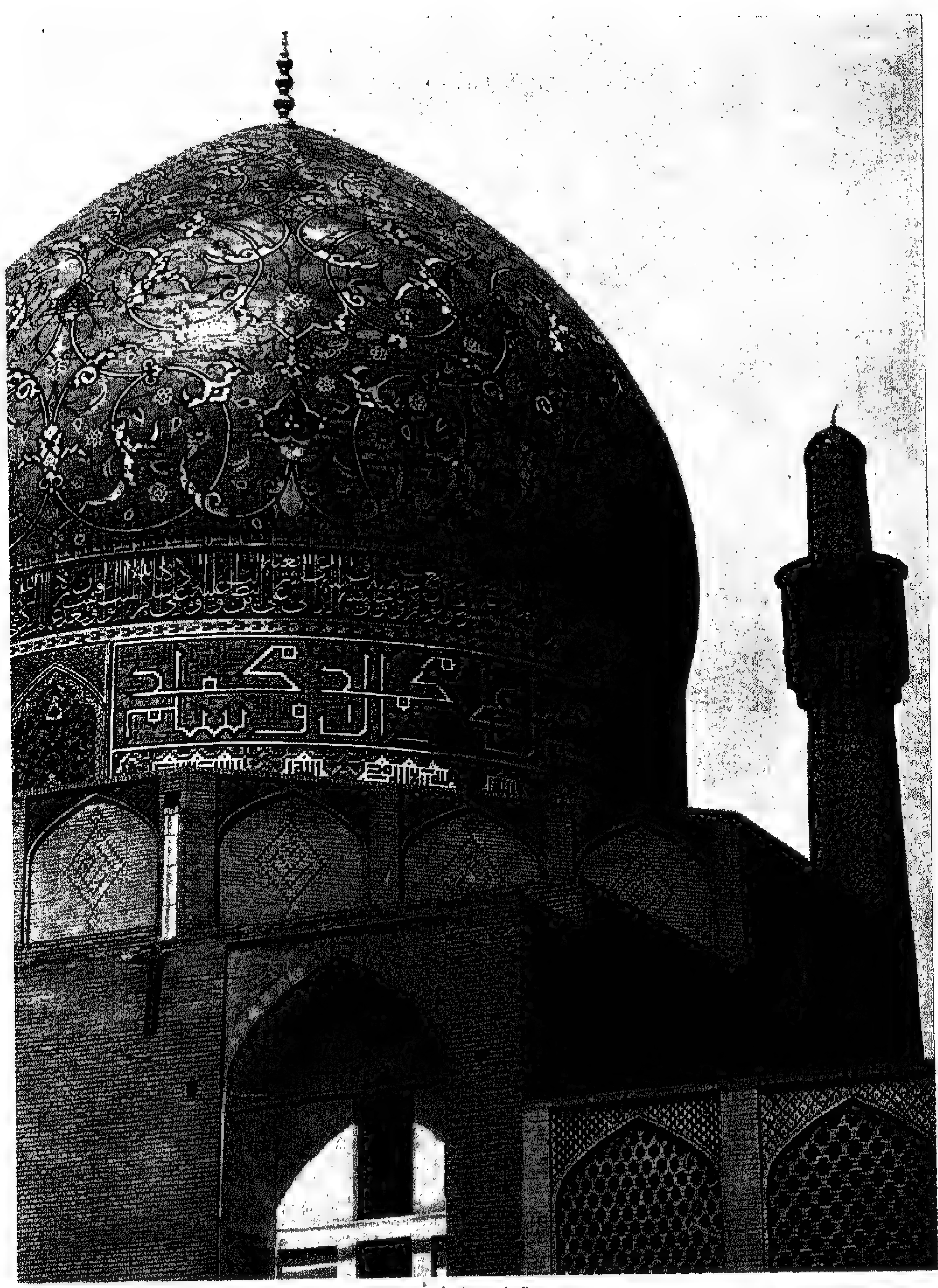
وأجمل ما في هذا المسجد الخزف ذو البريق المعدني الذي يزين جدرانه.وكل جزء فيه، وبينما نجد الخزف في مسجد شاه أزرق نجد خزف مسجد الشيخ لطف الله ورديًا، ويتجلى ذلك بصفة خاصة في قبّته، ويحيط بالمسجد روض تزينه زهور وردية تزيد من جمال المسجد اما مدخل الجامع فيزدان بالخزف الأزرق.



مسجد الشاه في أصفهان، القبة فوق المحراب.



مسجد الشيخ لطف الله، ايوان المدخل والقبّة.



مدرسة نادر شاه في أصفهان.

ومن المباني المعروفة في أصفهان مدرسة «شهر ياق» وهي في الوقت عينه مسجد. وهي مدرسة سلطانية أنشأها الشاه حسين الصفوي سنة ١٧٢٢م. ونجد فائدة من ذكرها لأن قبتها ومئذنتها تعتبران من أروع ما خلفه المعماريون المسلمون من أعمال تلبيس المنشآت بالقاشاني والخزف المزين بالزخارف والكتابات.

في حدود عام ١٦٠٠م بني في أصفهان جامع شاه سلطان حسين المعروف باسم «نادرشاه»، وهو مسحد ومدرسة من أجمل ما تركه المعماريون الايرانيون. فبيت الصلاة أشبه بقاعة كبرى تقوم فوق معظم سقفها قبة ضخمة هي من أجمل قباب المساجد، وتحيط بالصحن المستطيل محنات على شكل ايوانات ذات طبقتين، ومنظر البوائك المشرفة على الصحن آية في الجمال، وتتصل بايوانات المجنّبات أفنية صغيرة مربّعة ومستطيلة، في جوانبها غرف للسكن وخلوات للصلاة.

أمّا مدينة شيراز فلا تقل أهمية عن اصفهان في مجال الفن الايراني. وكانت شيراز إحدى عواصم ايران قديمًا، اذ جعلها يعقوب بن الليث الصفار مقره عندما استقل عن الدولة العباسية في القرن التاسع للميلاد. وعلى اثر انتصاره على الجيش العباسي سنة ٢٨١هـ (٨٩٤م) أنشأ المسجد الجامع في شيراز، وهو المعروف بالمسجد العتيق. وقد جُدد ورمم غير مرة حتى فقد شكله الأصلي، وشكله الحالي اتخذه المسجد في عصورنا الحديثة. والمسجد مبني على أساس الإيوانات لا الأروقة، وصحنه فسيح مرصوف بالرخام وتحيط به البوائك من كل جهاته. ويمتاز هذا الجامع بمداخله الجميلة وهي ستة مداخل موزعة على الجوانب الأربعة، وقد بنيت المداخل بالحجر الرملي وزينت بالقاشاني، وعلى جهتي كل مدخل مئذنتان قصيرتان.

ومن المباني المشهورة في شيراز مسجد الوكيل الذي بناه كريم خان زند، منشىء أسرة زند ومعاصر الدولة القاجارية التي أسسها نادر شاه. كما يعرف هذا المسجد باسم المسجد السلطاني. وأجمل ما في هذا المسجد بيت الصلاة الذي تزدحم فيه عقود حجرية تقوم على دعائم مزخرفة بخطوط حلزونية. ومنبر المسجد يقوم على اربع عشرة درجة ترمز الى رسول الله ﷺ وابنته فاطمة الزهراء والأئمة الاثني عشر. وقد صنع هذا المنبر في المراغة في أذربيجان ثم نقل إلى شيراز بأمر كريم خان زند.

نلاحظ مما سبق أن هناك فرقًا ملحوظًا بين مساجد أصفهان وشيراز وايران وسائر مساجد العالم الاسلامي. فالمساجد الايرانية، لا سيما الصفوية، ذات إيوانات وصحونها فسيحة تطل عليها البوائك، ومداخلها ضخمة. ويستوقف الناظر في هذه المساجد خاصتان: التلبيس بالخزف والقاشاني الملونين، وغنى المواد المعمارية كالحجر النفيس والآجر الصلب الصافي والرخام والمرمر والخشب الثمين والزخرفة بالذهب والفضة. كل هذا يشير بوضوح الى أن الذين بنوا تلك المساجد بذلوا الأموال الطائلة في سبيل الدين.

المساجد العثمانية

ينتشر في تركيا عدد كبير من المساجد التي تعود إلى العهد العثماني، لا سيما في اسطنبول وأدرنة، وهي من أجمل المنشآت الإسلامية وتتمتع بشهرة عالمية. ومن خصائص هذه المساجد أنّ بيوت الصلاة فيها ذات أحجام هائلة وسقوف عالية، ممّا لا نقع عليه في المساجد التقليدية، وقلّما يصطدم النظر بالأعمدة الداخلية، وهذا الأمر يساعد في الاتجاه المباشر نحو جدار القبلة.

أمّا الأضرحة أو الروضات فاعتمدت فيها بساطة الشكل الهندسي البعيد عن التعقيد الذي نجده في بعض الروضات الهندية، وهذه البساطة غدت طابعًا معروفًا في آسيا الصغرى. وقد جاءت الأضرحة السلجوقية في الأناضول تقليدًا للأضرحة الايرانية، إلاّ أنّها اعتمدت الحجر المنحوت بدل الآجر. والقسم الأكبر من هذه الأضرحة جاء مضلّع القاعدة متعدد الزوايا. وفي القرن الثالث عشر بدأت تظهر الأشكال الدائرية، فاتخذت الدائرة أساسًا هندسيًا بدل المضلع المرسوم داخل الدائرة.

على صعيد آخر بدأ السلاجقة بناء المدارس على الطريقة الإيرانية، فكان البناء مكونًا من أربع ايوانات حول فناء في الوسط، وخير مثال على هذا الشكل «المدرسة الزرقاء» ومدرسة المئذنتين في «أرزروم» (١٢٥٣م)، كما بني في الأناضول عدد من المدارس بإيوانين بدل الأربعة. وقد يكون البناء من طبقة أو طبقتين، مع نافورة تتوسط الفناء المغطى بقبّة. هذا النوع نجده في مدرسة «قونية» (١٢٥١م) وفيها يبلغ قطر القبّة اثني عشر مترًا مع مثلثات بين الأقواس التي تقوم عليها القبّة، والكل مزخرف بالخزف ذي البريق المعدني.



مسجد السليمانية في اسطنبول.

في العهد العثماني حافظت المدرسة على الشكل الذي عرفته في العهد السلجوقي، أي بناء مكوّن من مجموعة ايوانات تحيط بفناء مكشوف أو مقبّب. وهذا ما نجده في مدرسة مراد الثاني (١٣٦٣م)، وهي بناء بطبقتين تعلوهما قبّة ترتكز على قاعدة ذات ستة عشر ضلعًا. وأقيمت للمداخل أعمدة رخامية تحمل عقودًا مزدوجة، كما انفتحت مجموعة نوافذ في الواجهات الجانبية.

فيما بعد لم يعد العثمانيون يهتمّون بالشكل القائم على الإيوانات في المدارس، بل غدت المدرسة بناء مربعًا حول فناء مستطيل ومداخل من دون قباب، كما توزعت الغرف على الجوانب الثلاثة، والجهة الرابعة المواجهة للقبلة خصصت للمحراب. وفي القرن الخامس عشر شُيِّدت في أدرنة مدرسة على هذا الطراز.

بالعودة إلى المساجد نذكر أنَّ الصحن كان قد بدأ يختفي منذ العهد السلجوقي. ومع العهد العثماني تطورت هندسة المساجد واتخذت أشكالا لم تكن من قبل متّبعة. ففي بعض المساجد العائدة إلى نهاية القرن الرابع عشر يأتي القسم الذي يحوي المحراب في جدار القبلة بارزًا من الخارج، كما يقع المحراب في جدار القبلة داخل قاعة فسيحة عالية شبيهة بالإيوان، وهذه القاعة تزاد عليها في طرفي الجدار المواجه للقبلة قاعتان مقبّبتان مكملتان لبيت الصلاة فيبدوان كجناحي هذا البيت، كما تعلو المحراب قبّة كبيرة. ومن المساجد التي شُيِّدت على هذا الطراز مسجد بايزيد والمسجد الأخضر (١٤٢٤) ومسجد مراد الثاني (١٤٢٦).

ولم يقف التطور الهندسي عند هذا الحد، فبعض المساجد قلّ فيها عدد القباب الصغيرة، لتنهض مكانها القباب الواسعة والعالية. فمسجد «الياس بك» في «بلاط» (١٤٠٤) مربع الشكل ويبلغ طول ضلعه ١٨م، وهو قطعة واحدة من الداخل، وتعلوه قبّة قطرها ١٤م تحملها جدران تبلغ سماكتها مترين، وجدران المسجد مكسوّة من الداخل والخارج بالرخام.

والمعروف أن السلطان مراد الثاني جعل مدينة أدرنة عاصمته، وفيها بنى مسجدًا يعرف باسم «مسجد الأجنحة»، وترتفع في زواياه أربع مآذن يبلغ ارتفاع كل واحدة منها ٦٨م. ويبلغ طول بيت الصلاة ٦٠م وعرضه ٢٥م. وهو مغطى بقبّة ضخمة قطرها ٢٤م

وارتفاعها ٢٨،٥٠م، وترتكز على بناء اسطواني فيه اثنتا عشرة نافذة. ولا يعترض فسحة بيت الصلاة سوى عمودين ضخمين مسدسي الأضلاع، والأعمدة الأربعة الباقية تدخل في الجدران. كما ترتفع أربع قباب صغيرة فوق جناحي بيت الصلاة، وتعلو مداخل المسجد والمجاز ثلاث قباب يرتكز كل منها على اسطوانة.

يعتبر مسجد مراد الثاني محطّة اساسية في اتجاه المساجد العثمانية الضخمة. وهو يمتاز بالاتساع ويبدو عاليًا بواسطة قبته التي تمتد حدودها من المدخل إلى جدار المحراب.

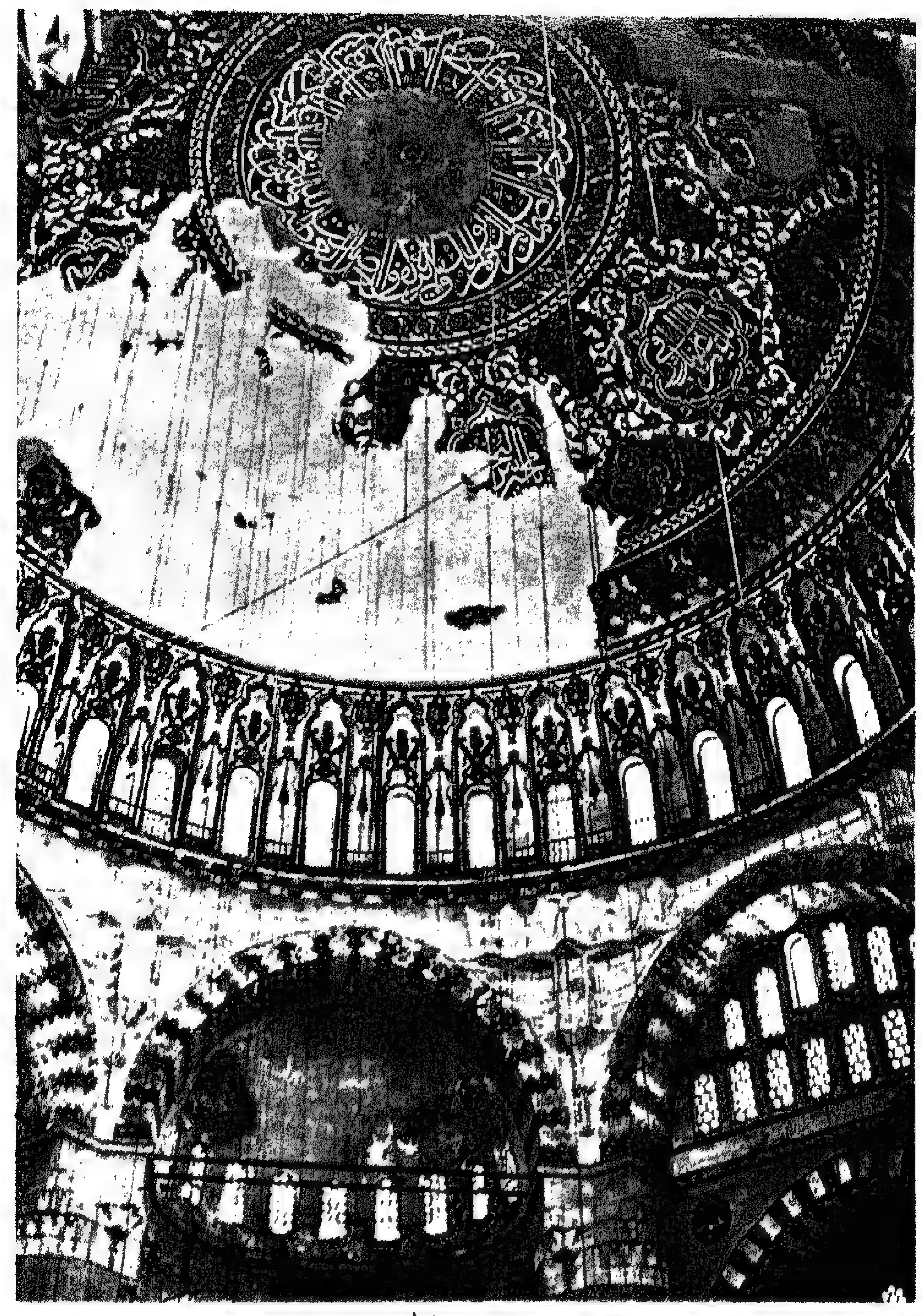
واستمر العثمانيون على هذا النمط في البناء، خصوصًا في مدارس محمود باشا (١٤٦٤) ومراد باشا (١٤٧٠) وجامع عتيق علي باشا (١٤٩٧). لكن المساجد العثمانية الكبرى التي أخذ العثمانيون ينشئونها بعد أن أصبحت دولتهم أمبراطورية كبرى أخذت تنظر إلى عمارة كنيسة «آيا صوفيا» وتتأثر بها تأثرًا واضحًا. فقد وجد المعماريون الأتراك في مبنى تلك الكنيسة الرائعة التي تحولت الى مسجد حلولاً موفّقة لمشاكل كثيرة كانت تحول بينهم وبين العمارة الفخمة، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بالقاعات الفسيحة العالية السقوف الوفيرة الضوء وفي وسطها قبة عالية. والمعروف ان المهندسين الذين بنوا كنيسة آيا صوفيا جعلوا قبتها الوسطى على دعائم حجرية ضخمة تحمل عقودًا منفرجة متينة ورشيقة في الوقت نفسه، كما تتكون القبة من عقود عالية متقاطعة، والبناء كله يمتاز بالتوازن الدقيق.

وقد استطاع المعماري العثماني ان يقلّد هذا الشكل، وقد بدا ذلك بوضوح في جامع المحمدية الذي أنشأه السلطان محمد الفاتح بين سنتي ١٤٦٣ و١٤٦٩. وقد جُدد هذا المسجد ورُمم غير مرّة ولم يعد ممكنًا التأكد من أن المبنى الآن هو المسجد الأصلي.

والمسجد العثماني الباقي على حاله منذ ذلك العصر هو مسجد السلطان بايزيد (١٥٠١-١٥٠٧) وهو الذي أنشأه المهندس خير الدين في اسطنبول. وهو مبنى من طراز آيا صوفيا، ففيه الرواق الأوسط الفسيح الذي تقوم عليه نصف قبة، وعلى جانبي ذلك الرواق تمتد اروقة جانبية، وعلى ركني الواجهة تقوم مئذنتان نحيلتان هما في الحق نموذجان للمئذنة العثمانية ذات الشرفة الواحدة التي تضرب في الجو كأنها قلم رصاص.

وقد دخلت العمارة العثمانية دور تطور ملحوظ على يد مهندس معماري هو سنان باشا المتوفّى سنة ١٥٧٨. وقد برزت عبقرية سنان في أعمال كثيرة، لكن أهمها مسجد شاه زاده

(١٥٤٣ ـ ١٥٤٨) الذي يسير على نسق المحمدية، وجامع السليمانية (١٥٥٠ ـ ١٥٥٦) الذي يرجع فيه إلى أصول آيا صوفيا ويتقنه، ومسجد السليمية في أدرنة (١٥٧٠-١٥٧٤). وفي هذا الأخير يتمثل سنان آيا صوفيا مع بعض الزيادات، فقد أقام الرواق الأوسط على مساحة فسيحة تحيط بها اثنتا عشرة دعامة تحمل فوقها اثني عشر عقدًا، ثم رفع فوق العقود مجموعة جدران تتخللها النوافذ وتعلوها قبّة منفرجة. وعلى يمين الرواق الأوسط وشماله امتدت أروقة جانبية تعلوها قباب صغيرة، والمسجد كله مكسو بالرخام.



مسجد السليمية في أدرنة.



مسجد السلطان أحمد في اسطنبول.

(المسجد الأزرق).

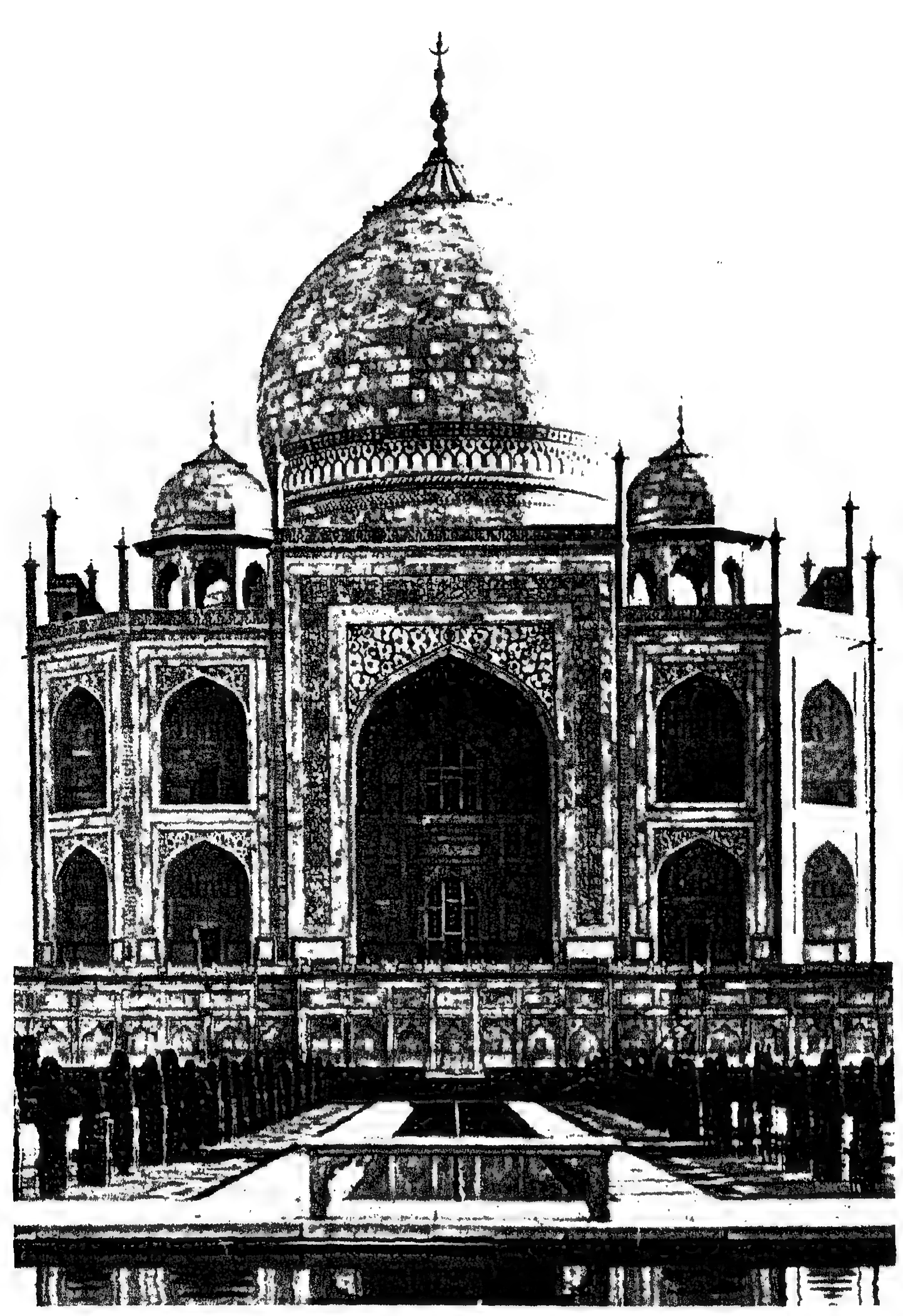
المساجد الهندية

وصل المسلمون إلى أطراف السند في فتوحاتهم زمن الراشدين وبني أمية. وقد دخلوا تلك الأقطار من البر والبحر، وما زال اسم الفاتح الكبير محمد بن القاسم مقترنًا بهذه الفتوح. وقد تمّ فتح الهند على نطاق أوسع مع سبكتكين الغزنوي (٩٧٧-٩٩٧) وابنه محمود. وحتى دخول الانجليز تلك البلدان لم تعرف الهند دولاً ذات نظام وحضارة غير دول المسلمين.

وليست الهند بلدًا واحدًا وإنما هي في الواقع مجموعة بلدان، ولهذا لم يكن الانتاج الفني الإسلامي في شبه الجزيرة الهندية واحدًا، وخلال القرون المتعاقبة مرّ الفن الهندي في أطوار متعددة. وظهرت العمارة الإسلامية في الهند في صور شتى خلال تاريخها الطويل، وامتازت بخصائص جعلت لها طوابع مميّزة.

لقد اهتم الفاتحون الغزنويون بإزالة المعابد البوذية والهندوكية، واستخدام أعمدتها وحجارتها في بناء المساجد. ولم يكن الهدف إيجاد مكان للعبادة فحسب، وإنما أيضًا انشاء حصن تحتمي خلف اسواره الجماعة الإسلامية الناشئة في ساعة الخطر، كما كان الهدف إقامة صروح معمارية ضخمة تبهر الهنود وتجذبهم إلى العقيدة الجديدة. لهذا كانت المساجد الأولى في الهند حصونًا، أي مجرد مساحات مسوّرة بجدران عالية، يقام فيها بيت صلاة له قبلة ومحراب، ومئذنة تستخدم في الوقت عينه برجًا للحراسة والمراقبة. وقد زالت كل هذه المساجد الحصينة الأولى.

ومع الزمن أخذت المباني الإسلامية هيئة المساجد الفعلية، من دون أنْ تفقد طابعها



تاج محل في أغرا.

العسكري. ويتضح ذلك بصورة خاصة في مسجد «قوّة الإسلام» في دلهي، وهو مشهور بمئذنته التي تعرف بقطب منار نسبة إلى قطب الدين أيبك أول سلاطين مماليك الهند، وهو الذي أنشأ القسم الأول من ذلك المسجد. وقد استغرق بناؤه حتى أخذ شكله المعروف نيفًا ومائة سنة. ففي سنة ١٢٠٠ أقيم القسم الأول وكان عبارة عن مساحة مسوّرة مستطيلة يتجه جدار القبلة فيها نحو الكعبة. وكانت الجدران عالية تقوّيها من الداخل مجنّبات يتكون كل منها من رواقين في الجانبين ومن ثلاثة أروقة في الخلف، أما بيت الصلاة فهو عميق بعض الشيء ويقوم على أعمدة ضخمة.

بين سنتي ١٢١٠ و١٢٢٠م زيد الجامع زيادة كبيرة ضاعفت مساحته ثلاث مرات، كما زيدت المساحة مرة جديدةسنة ١٢٩٥ فأصبح طوله ٢٢٥م وعرضه ١٥٠م. وفي سنة ١٣٠٥ م فتحت في جدران السور أبواب جعل كل منها مصلّى صغير تعلوه قبّة.

. وأهم ما يمتاز به المسجد مئذنته الهائلة المعروفة باسم قطب منار، وهي أشبه بنصب تذكاري ارتفاعه ٧٢،٥م وقطر قاعدته ١٥م. وتضيق المئذنة في ارتفاعها تدريجيًا حتى يصل قطر أعلاها إلى ثلاثة أمتار. والمئذنة مضلّعة وتبدو أضلاعها كأنها أعمدة متلاصقة، ولها ثلاث شرفات للأذان فتقوم كل شرفة منها على مقرنصات لافتة، وهي أضخم مئذنة في العالم.

ويتصل بمسجد «قوّة الإسلام» مسجد آخر صغير يقع إلى شماله، وهو في الحقيقة ضريح للسلطان «ايلتوتميش» مؤسس الدولة الغورية في الهند. وهذا المسجد الضريح هو الأول من نوعه في الهند، وهو مبنى صغير أنيق تعلوه قبّة تقوم على مثلثات كروية جميلة والقبة نفسها مسدسة الأضلاع وفي رقبتها أربع قمريات. والبناء كله من الحجر الجيري والرخام.

في الوقت الذي ظهرت فيه المساجد ذات الصحون الواسعة والجدران العالية والمآذن البرجية، عرفت مدينة «غوليارغا» نوعًا آخر من المساجد. وهذا النوع تتلاشى فيه الصحون ويصبح المسجد بناء واسعًا مسقوفًا بكامله. يقوم سقفه على أعمدة قصيرة وعقود ضخمة، وفوق كل بلاطة داخل المسجد تقوم قبة صغيرة، وفوق بلاطات القبلة تقوم قبة كبيرة، كما ترتفع أربع قباب متوسطة الحجم في أركان المسجد. ويحيط بالمسجد المسقوف

خندق واسع غير مسقوف وبعده سور يلف البناء كله. وقد لقي هذا النوع من المساجد اقبالاً واسعًا في الهند.

وفي «غاونپور» قرب «بنارس» جنوبي نهر الغانج وعلى أبواب البنغال، ظهر نوع جديد من المساجد الجامعة، وهي مساجد ذات بيوت صلاة وصحون تحيط بها الأروقة. والجديد هو أنّ المسجد يحمل طابعًا هنديًا خالصًا إذ يبدو من الخارج، لا سيما في واجهته، كأنه معبد هندي. فالواجهة ضخمة عالية من خمس طبقات وكل طبقة قاعة فسيحة معدّة للصلاة والتأمّل، ويُصعد إليها بسلّم داخلي. وفي وسط الواجهة مدخل كبير ذو عقد يصل ارتفاعه الى أربعين مترًا، ويلي الواجهة قبّة رئيسية تقوم فوق بلاطة المحراب. وقد أنشئ مسجد «غاونپور» سنة ١٤٧٠ م في عهد السلطان غياث الدين. والمعروف أن مسجد أحمد أباد جاء شبيهًا له، وهو من المساجد المشهورة في العالم.

- في عهد السلطان «أكبر» ظهر نوع غريب من المساجد، فالبناء عبارة عن صحن واسع مستطيل تحيط بثلاث من جهاته مجنّبات من رواق واحد. أمّا بيت الصلاة فهو مبني من ثلاثة ايوانات، الأوسط منها هو إيوان القبلة وإلى يمينه وشماله ايوانان أصغر حجمًا. وتقوم فوق إيوان القبلة قبة عالية وفوق الآخرين قبتان صغيرتان.

والنموذج المشهور لهذا النوع هو جامع «فاتح بور سيكري» وهي مدينة صغيرة تقع جنوب دلهي، وقد كانت عاصمة للسلطان أكبر. بني المسجد سنة ١٥٧١، ويقال إنّ الإيوانات الثلاثة بقية من معابد للبوذيين. وقد أمر السلطان أكبر بإنشاء هذا المسجد شكرًا لله على الحملة الموفقة الى منطقة الدكن. وقرّر في الوقت نفسه أن يكون المسجد جامعة إسلامية، ولذلك اعتُبر من المساجد الجامعات وله فضل كبير في انتشار العلم الإسلامي في شبه القارة الهندية.

- ومن أجمل مساجد الهند المسجد الجامع في «أغرا»، وقد بدأه السلطان أكبر وأتمّه ابنه «جاهنغير»، وهذا السلطان الأخير هو الذي بنى المسجد الجامع في «لاهور».

ومن مساجد دلهي الجامعة مسجد «شاه جاهان»، ويمتاز بواجهته العريضة التي يتوسطها مدخل ضخم يتكون من ثلاث طبقات. وبعد أن يلج الداخل البوابة يجد نفسه أمام مبنى المسجد، وبيت صلاته يتكون من ثلاثة ايوانات فوق كل منها قبة بصليّة الشكل.

وأجمل ما بنى شاه جاهان من المساجد مسجد اللؤلؤة في «أغرا» (بني بين سنتي ١٦٤٨ و١٦٥٥)، وهو مسجد هندي الطراز جدرانه الخارجية من الحجر الرملي الأحمر، أمّا داخله فمكسو بألواح من الرخام الملوّن، وأجمل ما في بيت الصلاة عقوده المفصصة.

نتوقف أخيرًا عند المسجد الجامع الذي بناه السلطان شاه جاهان في مدينة دلهي. فقد شُيد بين سنتي ١٦٤٤ و١٦٥٨، وهو خطوة بعد مسجد «فاتح بور سيكري» لإنشاء مساجد ذات طابع هندي محلي، يجمع بين طريقة بناء المعابد البوذية والهندوكية قبل الإسلام والتقليد الإسلامي المعروف في إنشاء المساجد من بيت صلاة وصحن تحيط به المجنبات.

وقد رأينا في مسجد «فاتح بور سيكري» كيف أنّ المعماري جعل بيت الصلاة في ثلاثة إيوانات موروثة عن عمارة المعابد البوذية، وفي مسجد شاه جاهان الكبير نجد ان بيت الصلاة اصبح مبنى كاملاً شبه منفصل عن الصحن. وهو في الحقيقة مسجد ضخم يتكون من ثلاثة ايوانات متجاورة: الاوسط منها هو المدخل من الصحن، ومنه نلج إلى ثلاثة ايوانات، الأوسط صغير وهو ايوان القبلة حيث المحراب، وعلى اليمين واليسار الإيوانان الثاني والثالث وهما قاعتان فخمتان تقومان على دعائم حجرية وعقود مدببة. وفوق الإيوان الأوسط تقوم القبة الرئيسية وهي بصلية الشكل، وإلى اليمين واليسار تقوم فوق الإيوانين الجانبيين قبتان بصليتان أصغر حجمًا من القبة الوسطى.

وللمسجد مئذنتان على طرفي الواجهة المطلّة على الصحن، وهما رفيعتان ترتفعان في الجو حوالى اربعين مترًا، وتختم كل مئذنة بجوسق ثم عمامة بصلية.

أمّا الصحن فمساحته شاسعة تحيط بها البوائك ذات الطبقتين. وللصحن مدخل يرتفع عن الأرض بسلّم كبير ينتهي بمنصّة. والمدخل يقوم في الجانب الشرقي أي في الجدار المقابل لجدار القبلة. وللصحن بوابتان أخريان تتوسطان الجانبين الشمالي والجنوبي، وهما تشبهان بوابة المدخل ولكنهما أصغر حجمًا. وعلى أركان الصحن وجدار المسجد تقوم أبراج أربعة هي في غاية الدقة.

لقد ترك السلطان شاه جاهان ابنية كثيرة في الهند خلال حكمه الذي وقع بين سنتي ١٦٢٧ و١٦٥٨. حتى إنه بنى مدينة ملكية هي «شاه جاهان أباد» في منطقة «أغرا» تضم

القصور والمصليات والمساجد والأضرحة أو الروضات. وقد وصل فن بناء الأضرحة أو الروضات في عهده إلى الذروة، خصوصًا في مبنى «تاج محل»، أو دار التاج، وقد بناه لتخليد ذكرى زوجته «ممتاز محل» التي توفيت وهي بعد في ريعان الشباب.

وفي مجال الحديث عن فن عمارة المساجد في الهند نتوقف عند الأضرحة أو الروضات التي تبنى فوق القبور، لما كان لها من اهتمام عند القادة المسلمين بعامة وعند مسلمي الهند بخاصة.

لقد أكثر المسلمون من إنشاء الأضرحة الرياض، وقد تكون الروضة مكانًا مطهرًا فسيحًا يدفن فيه الأولياء الصالحون من دون مبان ضخمة، كما هي الحال في روضة القرافة على سفح جبل المقطم في مصر. وفي تونس كان «باب سَلّمْ» روضة الصالحين، كما أنشأ الموحدون روضة المهدي المعروفة في «تنمال»، وكذلك كان حال بني مرين الذين كانت لهم روضة معروفة في مراكش.

وقد لقيت الروضات قبولاً عند الأتراك منذ أيام السلاجقة، وهم الذين ابتكروا في الإسلام المبنى الجنائزي التذكاري فوق القبر، وهو يتكون من بهو تعلوه قبة فوق القبر. وعن الاتراك أخذ الفرس هذا التقليد الهندسي، ومن ثم انتقل إلى الهند. وقد طور المسلمون في الهند هذا الفن المعماري حتى غدا عنصرًا جديدًا من عناصر العمارة الإسلامية، والكل يعلم أنّ «التاج محل» هو ارقى ما وصله الفن المعماري.

والمعروف أنّ الروضة هي في الوقت عينه مسجد، لأن من يبنيها يقيمها حتى يصلي الناس فيها ويسألوا الرحمة للراقد فيها. ولهذا فلكل روضة قبلة ومحراب، وقد يضاف المنبر إذا اتسع المجال لتصبح الروضة مسجدًا.

أول روضة هندية جديرة بالذكر هي الكائنة في مسجد «قوة الإسلام» في دلهي، ومنارة قطب الدين أيبك هي نصب تذكاري، وهناك روضة غياث الدين طغلق، وروضة علاء الدين إيلتوتميش. والمعروف أنَّ روضة غياث الدين طغلق بنيت سنة ١٣٢٥م، وهي النموذج الذي سيتطور ليصل إلى ذروة الابداع في روضة «تاج محل». وروضة غياث مساحة واسعة يدور حولها سور على ركنيه قبتان، ويؤدي باب مفتوح في هذا السور إلى مبنى الروضة نفسها حيث تستوقف الناظر واجهة رائعة ذات مدخل ضخم بثلاثة أبواب.

ويفضي المدخل إلى ساحة فسيحة هي في الواقع بيت صلاة يقوم في وسطه قبر غياث الدين. وفي وسط بيت الصلاة يقوم على أعمدة جدار آخر تزينه قباب زخرفية من الخارج، وفوق ذلك كله تقوم القبة الكبرى. والمبنى ذو هندسة هندية بارتفاعه وتعقيداته وقبابه.

إلى جانب روضة غياث نجد روضة السلطان همايون، ثاني أباطرة مغول الهند، وقد جاءت على الطراز عينه، وأجمل ما فيها أنها تنهض على تل يشرف على نهر صغير. وبعد روضة همايون تقع روضة السلطان أكبر، وقد بنى هذا السلطان روضته على تل ذي درجات، وهي نصب تذكاري يختلف عن سواه بحجمه الهائل.

أما روضة «تاج محل» فذات عمل هندسي فريد يأسر النظر بروعته. ويقوم البناء انطلاقاً من فكرة الروضة الإسلامية، ولكنه يرجع، ربما، إلى نظرة الهندي القديمة إلى الموت، وهي أنّ الموت ليس نهاية الحياة بل بداية مرحلة اخرى منها وهي مرحلة سعادة أبدية أو شقاء أبدي. فالهندي القديم لا يؤمن ببعث أو حساب أو نشور، وإنما بانتقال الروح مباشرة من عالم الأحياء الظاهر إلى عالم الأحياء المستور، عالم الموت في الظاهر وسعادة الروح أو شقائها في الباطن.

لهذا اتجه المعماري الهندي إلى جعل الروضة قبراً وقصراً، وإذا كان عقله الواعي قد جعلها مسجداً لله فقد جعلها عقله الباطن قصراً للمتوفّى. وعندما توفيت «ممتاز محل» زوجة شاه جاهان الشابة سنة ١٦٣٠ دفنت في قبر عادي مؤقت في «برهان بور»، وخلال العامين التاليين كان المهندسون يرسمون خطة ضريحها أو روضتها ويتأنقون في التصميم حتى يكون الضريح قصراً وروضة معاً. وكان «آصاف خان» وزير شاه جاهان قد تولى العمل موصلاً أوامر سيده إلى المهندسين والعمل.

والجزء الرئيسي من المبنى، وهو الذي يقوم فيه قبر ممتاز محل وما يعرف بقاعة الزائرين، هو في الواقع بيت صلاة مسجد قسّم إلى ثلاثة اواوين: الأول وهو الأيسر هو المسجد وفيه القبلة المتجهة نحو مكة المكرّمة، والثاني في الوسط فيه القبر، والثالث بقية بيت الصلاة ويقع إلى يمين القبر. والقسم الثالث له مواصفات المسجد الحقيقي ولا سيما المدخل والمحراب. وإذا كان للبناء الشكل المعماري الهندي فان المهندسين بنوه بروح اسلامية،

فالعناصر رصينة والجدران قطع من الرخام الأملس الذي لا يعرف من الرسم إلا الزخارف الخفيفة. كما تجسّد الحدائق تخيلات الفنان المسلم لرياض الجنة، ونهر «الجمنا» الذي يقوم المبنى على ضفافه قد يكون، في تصوّر الفنان، رمزًا لنهر الكوثر الذي أفضل الله به على رسوله ﷺ.

هذا المبنى تعجز الكلمات عن احتوائه ولا تجسّده إلاّ الرسوم.

سائر أماكن العبادة

إلى جانب المساجد يقصد المسلمون أماكن من أجل التعبّد والصلاة، أطلقوا عليها أسماء متنوعة. إلا أنها لا تؤدي الدور الذي يؤديه المسجد ولا تغني عنه. ومن الأماكن المعروفة:

١ ـ المُصلّى: هو المكان الذي تقام فيه الصلاة. وقد يكون المكان رحبة من الأرض في ظاهر المدينة. وقد أُثر عن النبي ﷺ أنّه أدى صلوات الأعياد والجنائز والاستسقاء في مكان خارج المدينة المنورة يطلق عليه اسم «العتيق». وقد بُني عليه فيما بعد مسجد عرف باسم «مسجد المصلّى»، وذلك في زمن عمر بن عبد العزيز. والمسلمون الذين يزورون الديار المقدسة في الحجاز لأداء فريضة الحج أو العمرة يقصدون المدينة المنوّرة من أجل الصلاة في المسجد النبوي الشريف وفي مسجد المصلّى.

وكان في عدد كبير من المدن الاسلامية مصلّيات شبيهة بمصلى المدينة المنوّرة، منها مصلّى القاهرة شرقي القصر الكبير، وقد شيّده جوهر الصقلي لأجل صلاة العيد في شهر رمضان سنة ٣٥٨هـ ثم جدده العزيز بالله. ومن المصلّيات التي كانت معروفة في مصر «مصلّى الشريفة» الذي بني عام ٥٧٧هـ، و«مصلى المغافر» الذي بناه ابن برك الأخشيدي وجُدد سنة ٥٣٦هـ، ومصلّى «عقبة القرافة» الذي بناه يوسف بن أحمد الأندلسي سنة ٥١٥هـ، ومصلّى «الفتح» ومصلّى «الجرجاني» ومصلى «خولان»، وكل هذه المصليات في منطقة القرافة.

وتأدية صلاة العيدين في مصلى خاص تقليد قديم ما تزال بعض أقاليم مصر تحافظ عليه. ففي مدينة أسوان مصلّى للعيدين، والمكان عبارة عن ساحة مكشوفة مسوّرة

بالطوب، وفوق جلسة الخطيب قبّة فاطمية الشكل.

وفي أيامنا أخذت المصليات طريق الزوال بعد أن تطورت عمارة المدن. وأخذت كلمة مصلّى اليوم معنى جديدًا، إذ هي قاعة صلاة داخل بناء كبير كالمدرسة أو الجامعة.

٢ ـ المدرسة: هناك شبه كبير، في الخارج، بين شكل المدرسة وشكل المسجد، وهي بناء يتكون من إيوان واحد أو عدة إيوانات مخصصة لدراسة الفقه. والإيوان هو ما يناسب اليوم قاعة المحاضرات في المدرسة أو الجامعة. وليس من الضروري أن تكون للمدرسة مئذنة أو منبر، ولكن بعض الحكام عيّنوا لعدد من المدارس مؤذّنًا وخطيبًا وهذا ما فعله الملك السعيد ناصر الدين بركة ابن الظاهر بيبرس الذي وقف على المدرسة الصالحية بمصر ما تحتاجه من مؤذنين وخدّام.

وممّا تنفرد به المدارس، على وجه العموم، أنّ الذين تطوعوا لإنشائها حرصوا على أنْ يكون لهم في داخلها مكان خاص. وهذا المكان عبارة عن بناء مقبّب يرتفع فوق ضريح يضم رفاتهم بعد الموت.

ويرجع تاريخ إنشاء المدارس إلى العهد السلجوقي، فالسلاجقة هم أول الذين جعلوا المدرسة مكانًا للصلاة ومؤسسة علمية لتدريس الدين. وقد عرفت نيسابور عددًا من المدارس كالمدرسة السعيدية البَيْهَقية، من نيسابور عمت المدارس المدن الإسلامية. وأشهر ما بُني قديمًا «المدرسة النِظاميّة» في بغداد وهي منسوبة إلى الوزير قوام الدين نظام الملك المتوفّى سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٣م) في عهد السلطان السلجوقي إلب أرسلان وولده ملكشاه. وفي مدينة دمشق بنى شجاع الدولة صادر بن عبدالله «المدرسة الصادريّة» سنة ٤٩١هـ (١٠٩٧م)، كما بنيت في حلب «المدرسة الزجاجية» سنة ٥١٦هـ (١١٢٢م) في عهد صاحبها بدر الدين أبو الربيع.

وأول مدرسة بنيت في المغرب يرجع عهدها إلى القرن الخامس الهجري، وقد أنشئت في فاس وعرفت باسم «دار المرابطين»، وتبعتها مجموعة مدارس كمدرسة الصفّارين ومدرسة البيضاء ومدرسة الوادي. وفي العهد الحفصي بنيت في تونس المدرسة الشمّاعة سنة ٦٣٣هـ.

أمّا في الحجاز فإنّ أول مدرسة فيها كانت بمكّة المكرمة، وقد انشئت سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) وهي «مدرسة الزنجبيلي». ومن أهم مدارس الأندلس تلك التي انشأها يوسف

الأول سلطان الدولة النصرية في مدينة غرناطة، وما تزال معالمها معروفة حتى اليوم.

٣ ـ الخانقاه: هي نوع من المعابد التي يلزمها نفر من المسلمين فيحبسون أنفسهم من أجل التعبّد، من دون أن يزاولوا اي عمل آخر، معتمدين على ما يوقفه عليهم الغير من مأكل وملبس. ومن الخانقاوات التي اقيمت في مصر «الخانقاه الصلاحية»، وقد عرفت في العهد الفاطمي. ثم حوّلها صلاح الدين الأيوبي إلى دار برسم المتصوفين الفقراء.

٤ ـ التكيّة: تكاد التكيّة أنْ تكون مثل الخانقاه من حيث الغاية، والذين يقصدونها يعيشون مما تنفقه عليهم الأوقاف المحبوسة وأهل البر والإحسان. وفي المرحلة الأولى من العهد العثماني قام نظام الدراويش الذي كانوا يجتمعون في مساجد عرفت باسم التكايا. ولا فرق بين الخانقاه والتكيّة سوى أنّ الأولى عُرفت في العصر الأيوبي والثانية في العهد العثماني.

والتكيّة بناء شبيه بالفندق، وهي خاصة بأصحاب الصوفية الذي ينزلونها مجانًا من أجل التعبّد وممارسة الطقوس الصوفية والرياضة الروحية برئاسة شيخ يرعى شؤون الدراويش. وقد انتشرت التكايا في أراضي السلطنة العثمانية وبقيت قائمة حتى الحرب العالمية الأولى، ثم أُهملت. وما بقي منها في تركيا ألغاه مصطفى أتاتورك وحوّل المباني إلى مؤسسات عامة ومتاحف وطنية.

ومن التكايا التي كانت معروفة في سوريا تكيّة السلطان سليم في دمشق، وقد أُلغيت وأُلحق المبنى بالجامعة السورية. وفي لبنان عُرفت التكيّة المولوية في مدينة طرابلس وتُعرف باسم «الدرويشية»، وهي اليوم ملك لآل المولوي الذين كانوا قديمًا شيوخ هذه التكيّة. وفي مدينة القاهرة عدد من التكايا هي اليوم من المعالم السياحية، منها تكيّة الدراويش المولوية، وتكيّة المغاوري، وتكيّة السلطان محمود والتكية السليمانية.

٥ ـ الزاوية: هي في الأساس ناحية في المسجد يجلس فيها أحد العلماء عند إلقاء دروسه. وكان لكل عالم مكان خاص يلازمه. فلما بدأ التدريس خارج المسجد اصطُلح على اطلاق اسم الزاوية على البناء الذي يدرّس فيه العالم.

وقد عرف العالم الإسلامي نوعًا آخر من الزوايا هي الأمكنة التي يتخذها أرباب الطرق الصوفية، ممن يطلق عليهم أحيانًا اسم «الفقراء» مركزًا يلتقون فيه مع مريديهم.

فالزاوية إذًا مكان لإقامة شعائر الدين بالصلاة والصوم والتأمل والذكر، وهي تتكون من عناصر أهمها:

- التكيّة وهي الحرم الذي تشاد فوقه القبّة، فيها يجتمع أبناء الطريقة لإقامة الصلاة.

- رواق الزوار حيث السكن، وهو يخصص للذين يحبسون أنفسهم على البقاء في الزاوية. ويكون قسم من الرواق للرجال وآخر للنساء.

- بيت شيخ الزواية وأسرته.

٦ - الرباط: تطور مفهوم كلمة «رباط» خلال التاريخ الإسلامي، فقد كان يعني القاعدة العسكرية، وجنود هذا الرباط يكونون عادة متطوعين للجهاد في سبيل الله، ويطلق على هؤلاء اسم المرابطين، كما يكون موقعهم قريبًا من الثغور المتاخمة لأرض العدو.

وقد أُطلقت هذه التسمية على الخلوة التي أقامها الداعية الإسلامي عبدالله بن ياسين المتوفّى سنة ٤٥١هـ (١٠٥٩م)، وقد تبعه اللمتونيون والصنهاجيون. وقامت على أثر ذلك دولة «المرابطين» التي أرسى دعائمها يوسف بن تاشفين.

ومع تغيّر مفهوم الرباط أصبحت الكلمة تحمل معنى الزاوية أو التكيّة أو الخانقاه. ومن الرباطات المعروفة في مصر «رباط البغدادية» الذي بنته الست «تذكار» ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٨٤هـ. وكان لهذا الرباط شيخة تعظ النساء وتعلمهن.

٧ - المقام: يُطلق اسم «المقام» على المكان الذي فيه ضريح لأحد الأنبياء أو الأولياء من أهل الصلاح والتقوى، وذلك استئناسًا بما ورد في القرآن الكريم من أنّ أمثال هؤلاء الرجال الأبرار يرقدون في مقام كريم في هذه الدنيا انتظارًا لما سيكونون فيه من مقام أمين في الآخرة. وهناك عدد من المسلمين يحرصون على أداء صلاتهم داخل المقام، التماسًا للبركة.

٨ - المزار: هو المكان الذي دفن فيه أحد الأولياء، يقصده الناس في مواسم معينة للصلاة بالقرب منه، اعتقادًا منهم بأن الصلاة تكون إذ ذاك أكثر قبولاً عند الله وأجزل للأجر والثواب، فالمزار من هذه الناحية شبيه بالمقام.

وقد لا يكون المزار قبرًا، اذ قد يكون بناءً تذكاريًا يشير إلى عمل أو حادثة ممّا يمتّ إلى بعض الشخصيات الدينية بصلة.

٩ ـ المشهد: تحمل كلمة مشهد مدلولاً دينيًا معينًا، وهو المسجد المدفني الذي بني ليكون قبرًا للشخص أو الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة روحية خاصة عند الناس. وغالبًا ما يكون هذا المدفن مخصصًا للمتوفين من آل البيت. وأحيانًا يدفن فيه غيرهم من الأفراد ممن عرفوا بالتقوى والصلاح. والمشهد يقصده الناس ويقدمون له النذور تعبيرًا عن عاطفتهم نحو الميت، وهذه العادة تنتشر بصورة خاصة لدى أبناء الطائفة الشيعية.

وقد أُطلقت كلمة «مشهد» على إحدى المدن الايرانية القديمة وهي مدينة طوس. ففي مكان مدينة طوس قامت مدينة جديدة تحمل اسم «مشهد» أو «مشهد الرضا»، وذلك بعدما دفن في ذلك المكان الإمام علي بن موسى بن جعفر المتوفَّى سنة ٢٠٣هـ (٨١٨م) ولمدينة مشهد عند الشيعة الإمامية اعتبار كبير، وهم يتنافسون على العناية بمشهد الإمام فيها ويقدمون له النذور ويحبسون عليه الأوقاف. وفي هذا المشهد اليوم مكتبة ضخمة تحوي المصنّفات النادرة والمخطوطات القديمة القيّمة والمصاحف التي ترجع إلى عهود إسلامية سحيقة.

ومن أهم المشاهد في مصر «المشهد الحسيني» الذي يقع داخل «جامع سيدنا الحسين» قرب الجامع الأزهر، وقد أنشئ سنة ٥٤٩هـ (١٥٤٤م) ولم يبق منه اليوم غير الباب المعروف بالباب الأخضر، أمّا المئذنة فقد بنيت في أواخر العصر الأيوبي. وفي منتصف القرن التاسع عشر أمر الخديوي اسماعيل بتجديد المسجد وتوسيعه.

أمّا المشاهد الأخرى التي تحمل اسم الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) فكثيرة، نذكر منها «مشهد الحسين» في كربلاء الذي يقال إنّ فيه جثة الإمام الحسين. وهناك مشهدان يُعتقد أنّ رأس الحسين دفن في أحدهما، وهما مشهد الحسين بدمشق ومشهد الحسين في مدينة مرو. وهناك «المشهد الحسيني» في الجامع الأموي بدمشق، ومشهد الحسين في عسقلان، و مشهد الحسين في حلب، ومشهد علي بن أبي طالب في الرملة، ومشهد سكينة بنت الحسين في طبرية، ومشهد زين العابدين في الجامع الأموي بدمشق. وفي منطقة جبل عامل بلبنان عدد من المشاهد، نذكر منها مشهد النبي منذر في ميس، ومشهد العويذي في كفركلا، ومشهد جال الحسن في حدّاثا، ومشهد الصيّاح في جويّا، ومشهد صافي في جباع، ومشهد محمد الباقر في عين قانا...

١٠ ـ العتبات المقدسة: العتبات المقدسة عند الشيعة هي مدافن أئمتهم من آل البيت النبوي الكريم، أي النجف وكربلاء والكاظمية ومشهد وسامراء. أمّا الأئمة فهم: سيدنا الإمام علي بن أبي طالب، الحسن بن علي والحسين بن علي وعلي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي بن موسى الرضا ومحمد الجواد وعلي الهادي والحسن العسكري ومحمد بن الحسن.

١١ ـ الحسينيّة: الحسينية معبد خاص بالشيعة وليس عند أهل السنّة والجماعة مثل ذلك، وقد سمي المكان بذلك نسبة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. وفي الحسينية يجتمع الشيعة في العشر الأوائل من شهر المحرم الحرام للبكاء على الحسين الذي قُتل يوم الجمعة في العاشر من المحرم سنة ٦١هـ في كربلاء بالعراق خلال الثورة التي أعلنها ضدّ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في محاولة لاستخلاص الخلافة من البيت الأموي وجعلها في البيت الهاشمي.

وقد جاء في «خطط جبل عامل» للسيد محسن الأمين: «الحسينية هي بمثابة تكيّة منسوبة إلى الإمام الحسين السبط الشهيد لأنها بنيت لإقامة عزائه فيها. وأصل الحسينيات من الايرانيين والهنود، بنوها في بلادهم وفي العراق ووقفوا لها الأوقاف وجعلوا لكل منها ناظرًا وقوامًا. وهي عبارة عن دار ذات حُجر وصحن فيها منبر، يأوي إليها الغريب وتقام فيها الجماعة وينزلها الفقراء، ويقام فيها عزاء سيد الشهداء في كل اسبوع في يوم مخصص وفي عشر المحرم...».

١٢ ـ الضريح: كان الضريح في شكله المعروف في مقدمة ما دخل مع الأتراك السلجوقيين، وكان قبرًا على شكل برج أو قبّة. وفي ايران كانت القبور على شكل أبراج اسطوانية وقد يعلوها سقف مخروطي الشكل. وكانت بعض الأضرحة على شكل قاعدة مربّعة لها باب من كل جانب كما في ضريح السبع بنات بمصر والذي يرجع تاريخه إلى سنة ٤٠٠هـ (١٠١٠م).

وكما كانت المساجد مكانًا مختارًا لخزائن الكتب فإنّ المسلمين اتخذوا كذلك من الأضرحة مكانًا لحفظ الكتب والإفادة منها، لا سيا بعد أن تحوّلت بعض الأضرحة إلى مدارس لطلب العلم والتفقّه في الدين، وقد شاع اتخاذ الأضرحة منتجعًا للمعرفة في القرن الخامس للهجرة. وكان يضاف إلى الضريح مدرسة أو مكتبة للمطالعة أو مركز لتعليم أيتام المسلمين وأطفالهم، أو مسجد يكون فيه مكان للعلم ولقراءة القرآن الكريم.

الخصائص الفنية لعمارة المساجد

نعلم أنّ المعابد أقيمت أساسًا لتلبية حاجة روحية، ومع ذلك فانها استلهمت في عملية البناء معالم البيئة المحيطة والعمارة الإسلامية تأثرت بما يحيطها فكان الاختلاف في الجزئيات داخل المساجد بين بيئة وأخرى. فالصحراء برمالها المنبسطة وأرضها الجدباء وسمائها الصافية أثرت في نفوس أصحابها وجاءت العمارةمعهم تحاكي ما يقع عليه البصر في الأرض وما يمتد إليه النظر في السماء، فكان اتساع المساجد وامتداد المآذن وقيام القباب التي تماثل قبّة السماء وقد أحيطت المساجد بالجدران لحماية قاصديها من الرياح، وتركت صحونها مكشوفة إفساحًا في المجال أمام الاتصال بالفضاء الرحب.

وإذا كان للصحراء اثرها في أشكال المساجد الأولى فان الدين كان له أثره الأكبر في بناء المساجد. فالإسلام يعدّ كل بقعة من الأرض مكانًا يجوز للمؤمن أن يؤدي عليه ما فرضه الله من صلاة. لذا جاءت المساجد صحونًا متسعة تسور بجدران. وبما أنّ على المسلم أنْ يتجه في صلاته إلى قبلة بعينها فإنّ بناء المساجد ارتبط بهذا التوجيه الديني. لقد ربط الإسلام بين المسجد والكعبة المشرّفة في مكّة المكرمة، وتزاوج التعبير المعماري بين الصّلة بالسماء والاتجاه في الأرض.

ومع خروج العرب من بيئتهم البدوية وإنشاء المدن، وانتشار الإسلام بين أمم ذات حضارات متنوعة، نشأ فن معماري ديني جديد هو مزيج بين الموروث والمكتسب. وكان الفن المعماري الإسلامي يرتكز في أول نشأته على العناصر المعمارية والزخرفية التي تتفق وروحانيته، فخرجت المساجد متشابهة في البلاد الإسلامية، مع شيء من التباين في

التفصيلات الثانوية بفعل التباين بين محيط وآخر. من هنا كان الاختلاف الذي يميّز عمارة المساجد في ايران بطغيان الزخرف كما في مسجد شاه باصفهان، في حين يبرز الإحساس الديني في مصر من واقع تصميم الفراغ وليس من مجرد صقل السطح وزخرفته. وفي العراق نلاحظ ملويّة سامراء متأثرة بالعمارة السومرية والبابلية. أمّا في تركيا فقد تأثرت عمارة المساجد بالفن البيزنطي وفرض المناخ أنْ يكون المسجد بكامله مسقوفًا.

وأخذ المسجد الأموي في الشام بعض لمسات الفن البيزنطي، وشاع الطراز الهندوكي في المساجد الهندية الإسلامية وهو يمتاز بالزخارف المستوحاة من نباتات الهند. كما تشترك المساجد في بلاد المغرب والأندلس في الكثير من صفات تشكيل الفراغ وتصميم الأعمدة والعقود المتراكبة وزخارف الجص المفرّغ.

وعلى الرغم من الاختلاف بين هذه العمارات في بعض التفاصيل فإنها تشترك جميعها في وحدة الروح الإسلامية الكامنة وراء الأشكال المعمارية التي أصبحت تقليدًا معروفًا. وساعد على قيام وحدة الطابع الإسلامي ما كان من ترابط ظروف البيئة وقيام الخلافة الإسلامية التي سيطرت على أكثر البلاد التي اعتنقت الدين الإسلامي، إلى جانب عوامل وظيفية كوحدة البرنامج المعماري في الجوامع كلها نتيجة وحدة النظام في الصلاة، وهذا ما استدعى التشابه في التخطيط المعماري.

وكما وجه المعماري الإسلامي جدران المسجد نحو الكعبةكذلك وضع محرابًا في الجدار المقابل لاتجاه الكعبة على شكل حنيّة تعلوها نصف قبة. فإذا لم يستطع المتعبد ان ينتهي الى الكعبة بجسده فبإمكانه أن ينتهي إليها بروحه من خلال المحراب الرمزي.

عندما كان الجامع مسطحًا من الأرض مسورًا غير مسقوف لم يكن ثمّة ما يحجب نظر المصلّين إلى السماء، حتى اذا تطلب الأمر تغطية مكان الصلاة في الجامع لاتقاء حرارة الشمس وتقلبات العوامل الجوية حرص المعماريون على أنْ تكون نظرة المسلم إلى السماء غير محجوبة، فجعل المسجد قسمين: أحدهما مسقوف للصلاة والآخر مكشوف هو الصحن. ولكي يعوّض المعماري إحساس المصلّي بعدم الانفصال عن السماء جعل في السقف القريب من جدار القبلة قرب المحراب قبّة ترمز إلى السماء.

وحقق المعماري المسلم فكرة الاتجاه الى أعلى في ابتكاره المئذنة، فبواسطتها يعلو صوت

المؤذن وهو ينادي للصلاة على كل ما عداه من أصوات، ويصبح نغم «الله أكبر» ملء الأسماع على طول المدى. ويبرز التأثير النفسي لدى تقسيم المئذنة صعودًا إلى عدة أقسام تفصلها شرفات تتناقض في الطول كلما ازداد الارتفاع. فكأننا بالمعماري قد أراد أنْ يجذب نظر المشاهد الى أعلى، ويصب في وجدانه الإحساس بالجلال والرفعة.

وكان طبيعيًا، نظرًا إلى بروزها ووظيفتها الشعائرية، أنْ تظفر المئذنة برعاية خاصة حتى غدت رمزًا من رموز الإسلام. وتقع المئذنة عادة في موقع يشكل مع القبة عنصرًا جماليًا، فكلاهما يجاوز ارتفاع المبنى. واذا كانت القبّة تعبّر عن السماء لدى النظر إليها من الداخل، فإنها تبدو من الخارج شكلاً منكفئًا على نفسه بخطوطه الهابطة.

وفي مجال تأثر العمارة بالبيئة نلاحظ أن الجامع يحاكي بأعمدته غابة نخيل منفتحة، لا سرّ يكتنفها ولا غموض. فالخطوط القوية الرصينة التي تتمثل في الأعمدة تنهض في الفراغ من دون أن تتسبب بأية عتمة أو توحي بأي غموض.

وتبرز عبقرية الفنانين المسلمين في حقل الزخرفة التي أُعيرت اهتمامًا خاصًا في العصور اللاحقة من ظهور الإسلام، فجاءت أعمالهم فنًا يوحي بالجمال ويدعو إلى التأمل. ويضيق المجال أمام محاولة الكشف عن أسرار تلك الزخارف وما درج أهل الفن على تسميته، كالتطعيم والتكفيت بالذهب والفضة، والترصيع والمقرنصات، واللافت في العمل الزخرفي التوريقات التي تتشابك أضلاعها وتلتحم ثم تفترق على نحو لا ينتهي. وتردّنا الزخارف الهندسية إلى عالم التجريد الذي ينفذ بنا إلى جوهر التكوين وينتزع عنا الانشغال بالظاهر، فتعكف النفس على التأمل وتنعم بالسكينة. ومن الأعمال الزخرفية ما هو مجدول وما هو مخرّم ومنها ما هو دائري أو متكسّر، كما تكثر الخطوط المتشابكة والأشكال النجمية على الأبواب والجدران والمحاريب والمنابر.

إنّ ما يمكن التأكيد عليه هو أن عمارة المساجد جاءت موحدة الطابع، متشابهة الروح في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. فقد حافظت الأجيال المتعاقبة على هذا الطابع وتلك الروح حتى في المبنى الواحد الذي كانت تتناوله يد التجديد والترميم عبر القرن، إذ كان المهندسون والحرفيّون حريصين على رعاية الأصالة. وهذا ما يتجلّى في المسجد الجامع بقرطبة والذي استغرق العمل فيه نحو مئتي عام، وتعاقب على العمل فيه مئات الحرفيين،

ولم ينل ذلك كله من وحدته المعمارية. وعرف مسجد ابن طولون بالقـاهـرة مـراحـل مـن الترميم والتجديد، من دون الخروج على شكله الأصلي وطابعه العراقي لا سيما عند إعادة تشييد المئذنة الملوية على غرار ملوية سامرّاء.

إنّ طابع الديمومة والاحتفاظ بوحدة التصميم المعماري عبر الزمن هو تعبير فنّي عن وحدة العقيدة التي يرمز إليها المبنى مهما اختلف الزمان والمكان.

عناصر المساجد المعمارية

نُلحق بهذا العمل لائحة بالمصطلحات المعمارية المذكورة فيه، توضيحًا لما قد يبدو غامضًا والتماسًا للفائدة. وقد استعنّا لذلك بكتاب الدكتور عبد الرحيم غالب: «موسوعة العمارة الإسلامية» واتبعنا على غراره التسلسل الأبجدي:

ـ **آجُرّ**: طين مطبوخ، واحدته آجُرّة، وهو من المواد المستعملة للبناء في كل المناطق الإسلامية، خصوصًا في الأماكن التي يعزّ فيها الحجر. والأبنية المشيّدة به قليلة المقاومة قصيرة العمر إذا ما قيست بتلك التي تعمّر بالحجر. والآجر من المواد الأولى التي استعملها المسلمون في ابنيتهم، ويعدّ ذلك تطورًا مهمًا في تاريخ العمارة الإسلامية إذا عرفنا أنّ مسجد الرسول ﷺ كانت مواده اللبن وجذوع النخل. واستعمل الآجر في جدران جامع عمرو بن العاص في الفسطاط وجدران مسجد الكوفة، كما استعمل في بناء القباب والمآذن، وفي أعمدة مسجد ابن طولون بمصر. وسقط استعمال الآجر في بعض الأماكن واستبدلت به الحجارة، فمئذنة جامع ابن طولون أعيد بناؤها واستبدل آجرها بالحجر المستخرج من جبل المقطم.

فيما بعد جعلت العمارة الإسلامية الآجر عنصرًا زخرفيًا تغطي به الجدران بشكل تزييني، وذلك بتوزيع تكعيباته الغائرة والبارزة في رسوم هندسية دقيقة، وقد اشتهر الغزنويون بهذا النوع من الزخرفة. واستُغل لون الآجر الأحمر في بناء عقود جامع قرطبة، وذلك بأنْ يفصل بين كل أربعة مداميك من الآجر بحجر أبيض إلى أن ينتهي بناء القوس. بذلك يتعاقب اللونان مما يترك تشكيلاً رائعًا بالزخرفة.

- **أرابيسك**: لا نجد في العربية مرادفًا دقيقًا لهذه الكلمة، مع العلم أنّ المتخصصين بالفن الإسلامي، من الأجانب، يعتبرون أنّ اللفظة تشير إلى أهم عناصر هذا الفن. وأكثر تعبيرين استعملا لأداء المعنى هما «التوشيح» و«الرقش»، إلى جانب لفظة «أرابيسك» عينها، وظهرت حديثًا لفظة «العرْبَسَة»، ويرادف اللفظة في الاسبانية كلمة «توريق»، مع العلم أنّ هذه اللفظة تشير إلى قسم من فن الأرابيسك وهو ما يتعلق بعالم الأوراق. وما زال الحرفيون في المغرب يطلقون لفظة توريق وتشجير على الزخارف النباتية ولفظة تسطير على الهندسية، ولديهم تسمية لكل نوع منها ويحتفظون برسوم لها يتوارثونها مع أسرار المهنة. فهناك النجوم المتعددة الأشكال ولكل منها تعريف يرتبط بتكوينها الهندسي «كالمثمن» و«الست عشري المكناسي» و«عين الشمس» وغيرها.

إنّ لفظة «أرابيسك» شمولية تعني جميع أنواع الزخارف الإسلامية الهندسية وغير الهندسية، الملوّنة والبسيطة، الدائرية والمستقيمة، اللولبية والمتعرجة، النباتية والكتابية. وهي زخارف يمتاز بها الفن الإسلامي دون الأمم الأخرى، ويقوم على اختصار خطوط التزيين النباتية المؤلفة من براعم وأوراق متفرعة ومتصلة. وتوزيع الزخارف مدروس لملء الفراغ وتكسية كامل المساحة.

أنواع الأرابيسك كثيرة، ولكن يمكن تصنيفها تحت عنوانين كبيرين: الأول يعتمد على الخطوط المستقيمة والزوايا ويسمى أحيانًا باسم «التسطير» الهندسي، والثاني يركز على الخطوط الملتوية والدوائر واللوالب والتجريد النباتي ويُعرف باسم «التوريق» أو «التشجير» أو «التزهير».

وكان لكل بلد وكل عهد زخارف خاصة، ويكفي أن نتأمل المنشآت المعمارية بعامة والمساجد بخاصة ونتفحص ما فيها من عناصر زخرفية لنتعرف على خصائصها. فالخزف العثماني كان يزيَّن بزخارف نباتية، بينما امتاز الخزف السلجوقي باعتماد الأشكال الهندسية كالمضلّعات والنجميات. وتفرّدت إيران بالنماذج النباتية الخزفية الملونة التي تغطي الجدران والقباب والمآذن والأضرحة، وامتازت بلاد المغرب والأندلس بالزخارف الزليجية والجصيّة.

- **اسطوان أو بلاطة**: مساحة محدودة بأربعة أعمدة في المسجد. والذين كتبوا في

العمارة الاسلامية يستعملون لفظة «بلاطة».

- **اسطوانة:** جسم اسطواني الشكل كالعمود أو السارية، أو قاعدة القبّة. وقد تكون الاسطوانة من حجر أو آجر أو رخام.

- **أسكوب:** هو صف النخل، والكتاب الذين اهتموا بعمارة المساجد استعملوا هذه اللفظة لتسمية الأروقة الموازية لجدار القبلة.

- **إفريز:** إطار مستطيل يحيط بالعقد، أو بأعلى الجدار الخارجي ويبرز عنه ويخفف سقوط المطر عليه، أو بأعلى جدران الغرف ليزخرفها.

- **إيوان:** لفظة فارسية انتقلت إلى العربية والتركيّة وعدد من اللغات الغربية. والإيوان في الدراسات المعمارية تبقى مرتبطة بتخطيط البيوت والمدارس والمارستانات والخانات والخانقاوات. وهي تعني قاعة مسقوفة بثلاثة جدران ومفتوحة كليًا من الجهة الرابعة. وقد تكون مقنطرة وتطل على صحن مكشوف، كما قد يتقدمها رواق. وتتصل هذه القاعة أحيانًا بقاعات وغرف متعددة، بحسب وظيفة البناء الموجودة فيه.

استعانت العمارة الإسلامية بهذا العنصر البنائي ونجحت في جعله مخططًا إسلاميًا صرفًا، وقد انتشر بشكل خاص أيام السلاجقة في فارس والعراق، ثم أيام المماليك في مصر، فشكّل عنصرًا هندسيًا مهمًا في المدارس والمساجد.

- **بائكة:** جمعها بوائك، وهي معماريًا مجموعة الأعمدة المتباعدة على خط مستقيم والموصولة بأقواس من أعلاها لتحمل السقف، وأكثر ما يستعمل هذا المصطلح في العمارة الدينية، والمسجدية بشكل خاص، للدلالة على صفوف القناطر التي تقع الأروقة بينها. وهي تحيط بالصحن المكشوف وترتكز على أعمدة اسطوانية أو دعامات مربعة أو مستطيلة. وتؤلف البائكة الواحدة، المتعددة الأقواس، مع سور صحن المسجد رواقًا واحدًا، بينما يزداد عددها في بيت الصلاة عن ذلك من أجل استيعاب أكبر عدد ممكن من المصلّين. وقد لجأ المعماريون إلى حمل السقف عليها كي يتسنى لهم رفعه إلى أعلى مستوى ممكن واستقبال أكبر كميّة نور من خلال الأروقة والقناطر المرتفعة والتي كانت تعلوها أيضًا قناطر أخرى بأشكال مختلفة كما هي الحال في الجامع الأموي بدمشق والمسجد الجامع في قرطبة.

ـ **تاج**: جمعها تيجان، من أجزاء العمود، وهو القطعة التي تعلوه. وقد استعمل المسلمون في الأبنية التي أقاموا، في العهد الأول لحكمهم، ما وجدوا من أعمدة وتيجان في البلدان المفتوحة. فأُخذت كما هي من غير تعديل. ومنذ القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) اتخذ العمود في العمارة الإسلامية تاجًا خاصًا، اسلامي الانتماء. وراح يتطور ويتنوّع ضمن الخط المرسوم له، وأُدخلت عليه النقوش المُعَرْبَسة الممزوجة أحيانًا بالخط العربي الجميل بأنواعه المختلفة، والكوفي منه بشكل خاص. وذلك لتسجيل اسم المموِّل أو الحاكم أو البنّاء. وقد يُزيَّن التاج بآية قصيرة أو بقول مأثور أو ببيت شعر.

ـ **تشبيك**: التشبيك هو تداخل الخطوط الهندسية بعضها ببعض بشكل يصعب تمييز أوّل الخط وتتّبع مساره ومعرفة نهايته. وكانت الرسوم المستعملة في الزخرفة منفصلة في العهود الأولى كزخارف مسجد سامرّاء، ثم ما لبثت أن تعقدت وتشابكت في مسجد أحمد بن طولون في القاهرة. وقد امتازت الزخارف الإسلامية بقدرة هندسية دقيقة عن طريق تطويع الخطوط المنكسرة والمتموّجة والمقوّسة. وهذا ما أوجد فنًا اندرج تحت ما سمي في الغرب باسم «الأرابيسك».

ـ **تصميم**: جمعها تصاميم، تخطيط العمل الذي يسبق إقامة البناء، ويقضي باختيار المكان المناسب ووضع رسوم أو مجسّمات تسبق التنفيذ. ولقد لجأ المسلمون، منذ السنين الأولى، إلى طرق مختلفة واستعملوا في هذا السبيل ما لديهم من خبرات ومعارف. فالرسول ﷺ بنى مسجد المدينة في المكان الذي بركت فيه ناقته كي لا يحرج باختيار ارض صحابي دون آخر. وسعد بن أبي و قاص لم يقم مدينة الكوفة إلاّ بعد مشاورة الخليفة عمر بن الخطاب وأصحاب الرأي، وتمّ تخطيط مسجد الكوفة وتحديد قياساته بأنْ ألقى رجلٌ بسهم في الجهات الأربع، وحُفر خندق على مرمى السهم ليحصر مساحة شبه مربعة أقيم عليها المسجد. وعندما أعرب عبد الملك بن مروان عن رغبته في بناء قبّة الصخرة ووصف للمهندسين الشكل الذي يرغب في تحقيقه، أقاموا له «قبّة السلسلة» بالحجم الطبيعي كنموذج مجسّم، أكبر بكثير من المجسّمات المعروفة اليوم. وبعد موافقته عمدوا إلى بناء قبّة الصخرة. والظاهر بيبرس أشرف بنفسه على اختيار موقع أحد المساجد واطلع على قياساته ورسومه وأعطى تعليماته بشأن أشكال العناصر وموادها. ومسجد أحمد بن طولون رُسم تصميمه على الجلود قبل بنائه...

- **تطعيم:** تحضير قطع مسطحة ومصقولة من عاج أو عظم أو صدف أو ما شابه واعطاؤها شكل رسوم معدّة سابقًا، وحفر الشكل نفسه في الأدوات والصناديق والسقوف، وتنزيل قطع الزخرفة فيها.

- **تكفيت:** تغطية معدن بمعدن آخر أثمن منه، كتلبيس الفضّة بالذهب أو النحاس بالفضّة.

- **ثريّا:** جمعها ثريات، من وسائل الإضاءة، وهي قنديل كبير يعلّق في السقف، فيه عدّة سرج بلّورية أو نحاسية أو من مواد أخرى. وكانت المسارج تُزوّد، إلى جانب القناديل العادية، بالثريات الكبيرة، وتضاء في الأيام الفضيلة كليالي الجمعة والأعياد وما شابهها من المناسبات الدينية. وما زالت هذه العادات متبعة حتى اليوم، إذ إنّ الثريّات الثمينة في المسجد تغلّف بأغطية ترفع عنها لتضاء فقط في شهر رمضان المبارك. ومن الثريات الشهيرة في التاريخ تلك التي زوّد بها الحاكم بأمر الله مسجد عمرو بن العاص بمصر، وكانت من الفضة الخالصة، زاد قطرها على الخمسة أمتار ووزنها على الطن. ونظرًا لضخامتها لم يتيسر إدخالها الى المسجد إلاّ بعد هدم أحد الأبواب.

- **جذع:** جمعها جذوع، هو ساق النخلة، وهو القسم الاسطواني من العمود الواقع بين القاعدة والتاج.

- **جريد:** أغصان النخل المجرّدة من أوراقها، وقد استعملت لتغطية سقوف بعض المباني. والمعروف أنّ الرسول ﷺ بنى مسجده باللبن وجعل عضادتيه الحجارة وسواريه جذوع النخل وسقفه الجريد.

- **جص:** من مواد البناء، استُعمل حجارة بعد تعريضه للحرارة، ويذاب مسحوقًا في الماء وتطلى به الأبنية من الداخل والخارج. ويُصَبّ لزجًا في قوالب وتغطى به الجدران والسقوف بعد اكتمال جفافه. وقد تكون القوالب غير مخرّمة فتنقش رطبة بأزاميل خاصة من حديد، وهذا النوع من العمل أخذ في شمال أفريقيا اسم «نقش الحديد».

عرفت الأبنية الإسلامية، منذ العصر الأموي، استعمال مادة الجص، وذلك للبناء والزخرفة. وهو يبرز في سامراء وفي مسجد ابن طولون، وبلغ استعمال الجص أرقى درجات الابداع في المغرب والأندلس، ومن نماذجه الجميلة تلك التي تزيّن بركة قصر

الزهراء قرب قرطبة، والزخارف الداخلية في جامع القرويين في فاس والمسجد الجامع في تلمسان، ومحراب مولاي ادريس في فاس.

ـ حدّارة: جمعها حدائر، من اجزاء العمود، وتسمى ايضًا «رجل العقد»، لها شكل حجر مكعب أو هرم ناقص يلي العقد ويرتكز على القرمة التي تعلو التاج. ودور الحدّارة المعمارية هو زيادة ارتفاع الأعمدة والعقود، مما يجعل كمية أكبر من النور تدخل إلى المبنى. والحدارات الهرمية المبتورة لها وظيفة ثانية هي زيادة قطر العمود إذ ترتكز مقلوبة على قاعدتها الصغرى التي تكون باتساع دائرة العمود وتتلقى بقاعدتها الكبرى ثقل العقد. هذا العنصر المعماري نقع عليه في بعض الأبنية الإسلامية، خصوصًا في المسجد الجامع بمدينة القيروان.

ـ حشوة: جمعها حشوات، قطعة صغيرة من خشب على الغالب، هندسية الشكل، قد تُزخرف أو تحفر أو تطعم بالمعادن أو الصدف أو العاج. تتنوّع تصاميمها وتتداخل مع قطع أخرى لتشكل مصراع نافذة أو باب أو مدخل أو سقف مسجد. وقد عُرف استعمال الحشوات في العصر العباسي، ووصل هذا الفن إلى درجة عالية من التفنن في العصر المملوكي حيث برزت أشكال هندسية معقدة، وتداخلت النجوم والمثلثات والمثمنات والمستطيلات والمربعات. وقيل إنّ قطع الرخام بلغت في محراب مسجد القيروان ثماني وعشرين حشوة.

ـ حنيّة: جمعها حنايا، وهي القوس أو العقد، كما أنّها عنصر من البناء يأخذ شكل نصف قبّة أو أقل، وظيفي الاستعمال في أكثر الأحيان، تزييني جمالي في أحيان أخرى، لا سيما الحنايا الغائرة كتلك التي تظهر في أعلى بعض جدران مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط. وقد أخذت الحنية مكانتها في المساجد العثمانية وغطيت بأنصاف القباب المتحلقة حول القبّة المركزية أو تحتها في زوايا الجدران. وهناك حنايا أخرى أخذت اسم المحراب والمشكاة والزاوية الركنية.

ـ خزف: طينٌ تصنع منه أوعية وأقنية وبلاطات، يطلى بمواد مزججة وأصباغ ومعادن، أو يعجن مع بعضها قبل إدخاله إلى الفرن. وأخذ الخزف تسميات متعددة، بحسب نوعه أو البلد الذي صنع فيه. فهناك «الزليج» المعروف في اسبانيا والمغرب

العربي، و« الصيني »، و« الفرفوري » الياباني، و« القاشاني » أو القاشي نسبة إلى قاشان المدينة الفارسية.

من الخزف البلاط المزجج البرّاق الذي حلّ مكان الكلس والجص في كسوة الأبنية من الخارج والداخل. وأخذت البلاطة مكان الحجر والمرمر في تبليط الأرض والأحواض والأعمدة والواجهات. كما استعين بالخزف في مجال الزخرفة ولا سيما الفسيفساء. والتفنن بالخزف يظهر بشكل لافت في مساجد أصفهان، خصوصًا في « مسجد الجمعة » ومسجدي « الشاه » و« الشيخ لطف الله ».

ـ **خط**: تنفرد العمارة الإسلامية بعنصر زخرفي طريف هو الخط العربي. وبالرغم من كثرة أنواعه ظل « الكوفي » مسيطرًا في العمارة حتى القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد). ويتناغم الكوفي أحيانًا مع « الثلث » على الحجر المحفور والخشب المنقور والجص المنقوش والمعدن المكفت والخزف الملوّن. نجد ذلك على القباب والمآذن والمداخل والمحاريب والبرك والأسبلة والشبابيك والأبواب وتيجان الأعمدة وشواهد القبور. والأمثلة لا تعد ولا تُحصى، تحيط بنا من كل جانب، إذا تجوّلنا في الحواضر الإسلامية، ومن روائعها قبّة الصخرة ومسجد الشاه في أصفهان ومساجد السلطنة العثمانية...

ـ **دِعام**: جمعها دعائم، خشبة أو عمود حجري أو مبنى يدعم حائطًا أو يحمل سقفًا. ويكون أضخم من الأعمدة العادية، قاعدته مستطيلة أو مربّعة، كما هي الحال في مسجد ابن طولون في القاهرة، أو دائرية كما في أكثر المساجد. وقد تكون الدعامة جذع نخلة كتلك التي حملت السقف الأول لمسجد الرسول في المدينة، والسقف إمّا أنْ يرتكز مباشرة على الدعامة كسقف مسجد المعتصم في سامراء، أو على عقد تحمله الدعامة كسقف مسجد قرطبة وسقف الجامع الأموي.

ـ **رخام**: نوع من الحجارة أبيض أو ملوّن أو مجزع، ناعم وهش. عرفته العمارة الإسلامية قديمًا وحديثًا، فقد استعمله ابن الزبير لأزر الكعبة وأرضها، ومنه كانت أعمدة مسجد بني أميّة في دمشق ومنبره وكسوات محاريبه، والمحراب المخرّم الرائع في مسجد القيروان. وشُكلت به زخارف وفسيفساء هندسية وتوريقية، باستغلال ألوانه، منزلاً بعضه ببعض أو في حجارة عادية لا سيما في أرض المداخل وواجهاتها وفقرات العقود وسوى ذلك.

ـ **زخرفة**: جمعها زخارف، وهي التحسين والتزيين، دخلت الزخرفة الإسلامية الى كل ما وصلت إليه أيدي الحرفيين والصنّاع والفنانين، ولا سيما في قطع الأثاث ومنشآت العمارة. ففي الأولى حفر الخشب وطُعم بالعاج وصُفِّح بالمعادن الثمينة، وفي الثانية خُرم الحجر ونقش الجصّ ولون الخزف ورسم بالقرميد والطين الملوّن.

أمّا العناصر الزخرفية فمتنوعة، أشهرها الخط العربي الكوفي والنسخي والثلث. ومن العناصر الأخرى الجدائل والمشبكات والمضلّعات المتداخلة، والرسوم النباتية.

ـ **ساباط**: ممرّ مسقوف بين دارين أو جدارين، وقد كان بين قصر قرطبة ومسجدها ساباط، وآخر بين قصر الزهراء ومسجدها.

ـ **شمسيّة**: نافذة من لوح حجري أو رخامي أو جصّي، مفرّغ بزخارف هندسية أو نباتية أو كتابية، وغالبًا ما تُملأ الفراغات بزجاج ملوّن. وأول الشمسيات الرخامية المزججة موجودة في الجامع الأموي بدمشق، وتلك التي زُوِّد بها جامع ابن طولون جصّية غير مزجّجة.

ـ **عقد**: جمعها عقود، عنصر معماري مقوّس يعتمد على نقطتي ارتكاز. وللعقد اشكال متعددة، فهناك ما هو نصف دائرة، وما هو حاد الرأس من قوسين اثنين مركزهما داخل العقد. وقد يزيد القوس عن نصف الدائرة أو ينقص، وتتخالط الأقواس واجزاؤها. ويتألف العقد من عدّة حجارة، كل واحدة تسمى فقرة أو لبنة أو مدماكًا، والحجر الذي يتوسط العقد ويثبت الفقرات يسمى المفتاح أو القفل. ومن أنواع العقود نعل الفرس، والأزور، والأصم، والبيضوي، والتام، والتوأمي، وثلاثي الفصوص، والمنفرج، والمتقاطع، والمدبّب، والمكسور، والمقرنص، وغير ذلك...

ـ **عمود**: جمعها أعمدة، ما يدعم به السقف أو الجدار، أكثر الأعمدة المستعملة كانت دائرية المسقط، ولكن بعضها كان مربعًا أو مستطيلاً كمسجد سامراء، وكانت آجرية في كثير من مساجد بغداد، وكانت حجرية في مسجدي الكوفة والبصرة، ورخامية في مساجد الأندلس. ولم تكن الأعمدة الاسلامية كثيرة الارتفاع، وكان يعوّض عن هذا القصر برفع العقود فوقها.

وللعمود عدّة أجزاء، أهمها التاج الذي تعلوه القرمة التي يستريح عليها العقد. ويرتكز

التاج على البدن أو الساق أو الجذع، وهذا بدوره يرتكز على القاعدة.

ـ **فسيفساء:** من الزخارف التي تغطي الأرض والجدران، كانت من حجارة صغيرة ملونة مصقولة الوجه عند الرومان، وأصبحت خزفية وزجاجية مع البيزنطيين، وزاد عليها المسلمون المذهّبة وذات البريق المعدني والجصّية والخزفية وغير ذلك. وأشهر الأماكن التي ظهرت فيها كانت أموية الانتماء كقبّة الصخرة والجامع الأموي ومسجد الرسول ﷺ في المدينة.

ـ **فقرة:** جمعها فقر وفقرات، كل حجرة من حجارة العقود، فالسفلى تسمى الوسادة والوسطى القفل أو المفتاح. وشكل الفقرة عريض من فوق ضيّق من تحت لزيادة قوّة العقد، وتكون مادتها من حجر أو قرميد. وقد امتازت العمارة الإسلامية بالعقود التي تتعاقب فيها الفقرات الملوّنة والتي ظهرت بشكل خاص في العقود وفوق الأبواب والنوافذ وفي أقواس المحاريب. وهذا العنصر المعماري لم يصبح ظاهرة لافتة قبل استعماله بشكل ناجح في مسجد قرطبة حيث وُضع حجر أبيض لفقرة ومجموعة من أربعة مداميك من قوالب الآجر الأحمر للفقرة التي تلي. ومن العمائر التي توسّلت الفقرات الملوّنة العقود المحيطة بالصخرة في «قبّة الصخرة» في القرن الأول للهجرة، ومسجد قرطبة في القرن الثاني للهجرة، ومحراب ضريح السيّدة نفيسة في القاهرة من القرن السادس للهجرة، ومحراب ضريح قلاوون في القرن السابع للهجرة، ومحراب ضريح السلطان برقوق في القرن التالي، ومدخل مسجد السلطان سليم في أدرنة بتركيا في القرن العاشر للهجرة.

ـ **قمريّة:** منور ضيق يفتح فوق الأبواب أو النوافذ أو في أعلى الجدران.

ـ **مجاز:** رواق يتعامد مع جدار القبلة، أكثر عرضًا من الاروقة الموازية له، يتوسط بيت الصلاة ويوصل إلى المحراب.

ـ **مشكاة:** كوّة غير نافذة، معقودة، مقعّرة، تغور في الحائط لتوضع فيها تحف أو قناديل، أو تقام على الجدران الخارجية لأهداف زخرفية.

ـ **مقرنص:** جمعها مقرنصات، من عناصر العمارة الإسلامية المستعملة في مجال الزخرفة. تتعدد أشكاله وغالبًا ما يأتي متزاحمًا بصفوف متجاورة متعالية فتأتي المقرنصات شبيهة ببيوت النحل. وتغطي المقرنصات المجالات المقعّرة والتقاء السطوح الحادة الأطراف

في الأركان بين السقف والجدران، والمآذن ورؤوس مداخل المنابر...

المقرنصات فارسية الأصل، ومن هناك انتشرت في سائر بلاد الخلافة. وفي مسجد الجمعة بأصفهان مقرنصات رائعة يعود تاريخها الى القرن الخامس الهجري، وقد عرفت عصرها الذهبي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين في شمال افريقيا والأندلس.

ـ **مينا:** مادة صلبة زجاجية يطلى بها الخزف المشوي أو سواه، ثم يعاد إلى الفرن بحرارة متدنية حتى يبدو مزججًا لماعًا.

خاتمة

كان المسجد وما يزال مركز التلاقي ونقطة الانطلاق بالنسبة الى الإسلام والى المسلمين الذين حرصوا على بنائه طلبًا للأجر وطمعًا بالتوبة. وما كان يقوم به أصحاب الفتوح الأولى من بناء المساجد على أساس من التقوى لم يعد الحافز الأساسي أو الوحيد الذي كان وراء رغبة الخلفاء والسلاطين والأمراء والأعيان الذين ظهروا فيما بعد على مسرح الحكم في المجتمع الإسلامي. فهذه الطبقات من الجماعة الإسلامية كانت لها في كثير من الأحيان حوافز أخرى تدفعها للاهتمام ببناء المساجد. ولقد وجدنا عددًا من الحكام يغالون في تشييد المساجد الجامعة تخليدًا لذكراهم أو مضاهاة لغيرهم. وحفظ لنا التاريخ أسماء طائفة من الأمراء والسلاطين الذين كانوا يلجأون إلى حماية رفاتهم من الأعداء عن طريق بناء مسجد يفردون في إحدى جهاته مكانًا يتخذونه مدفنًا، فيضمنون بذلك حرمة المسجد التي تجعل القبر في منأى عن الأحقاد. وأينما تنقلنا في المدن الإسلامية نجد في بعضها مسجدًا أو أكثر يحوي في أحد أركانه ضريحًا فيه رفات منشئه، وبعض الأثريين يطلق على مثل هذا المسجد اسم «الضريح المسجدي».

ثم إن أصحاب الكفاءات الهندسية وممن توفرت لديهم المواهب الفنية وجدوا في عمارة المساجد المناخ الذي تتنفس في جوه طموحاتهم الإبداعية. فراحوا يضعون أنفسهم بتصرف الراغبين في بناء هذه المعابد، ولا يدخرون جهدًا في أن يأتي المسجد بين أيديهم آية للناظرين من حيث روعة التصميم وجمال الزخرفة.

والمساجد التي بنيت في أقطار العالم حفظت لنا التطور الذي عاشته العمارة الدينية في الإسلام، كما أعطتنا فكرة عن المدارس الهندسية التي تجسّدها هذه العمارة.

ثم إنّ العناية بجمال البناء المسجدي حتمت التركيز على العناصر الفنية ولا سيما منها الزخرفية. وإذا كانت تصاوير ذوات الأرواح لم تستطع التعبير عن مهارة الفنانين المسلمين في المساجد فإنّ هؤلاء الفنانين وجدوا طريقهم في مجال الزخرفة النباتية وما يتصل بها ممّا اصطُلح على تسميته بفن « الأرابسك » في اللغات الاوروبية، ويقابله في العربية « الرقش » أو « التوريق ». وهذا التعبير الأخير أخذه الاسبان عن عرب الأندلس فدخل لغتهم.

والكتابة بدورها كانت بابًا نفذ منه الفنان المسلم. وكانت الكتابة تستخدم للتنسيق مع الزخارف الأخرى، وقد شملت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ومثل هذه الكتابة لم يُقصد بها دائمًا نوال البركة، وإنما كان القصد منها أحيانًا إضفاء مسحة من الجمال على العناصر الزخرفية.

وبفضل إقبال المسلمين على الاهتمام بالمساجد أصبحت العمارة الدينية جزءًا من الثروة الآثارية. ومن خلال المفهوم التراثي للمسجد فإننا نجد أهل كل بلد يتباهون بما عندهم من عمائر دينية. وقد حفلت المكتبة العربية بالكتب التي تناولت موضوع المساجد. وكان للرحّالة المسلمين التفاتة خاصة إلى المساجد في الأقطار التي تنقلوا بينها، وما جاء في كتب هؤلاء الرحالة يمكن اعتماده مصدرًا تاريخيًا مهمًا. ثم إنّ الدراسات التي قام بها المستشرقون في موضوع المساجد، من الناحيتين الفنية والأثرية، قد أدت إلى نتائج علمية باهرة ساعدت على معرفة دقائق المعالم الإسلامية.

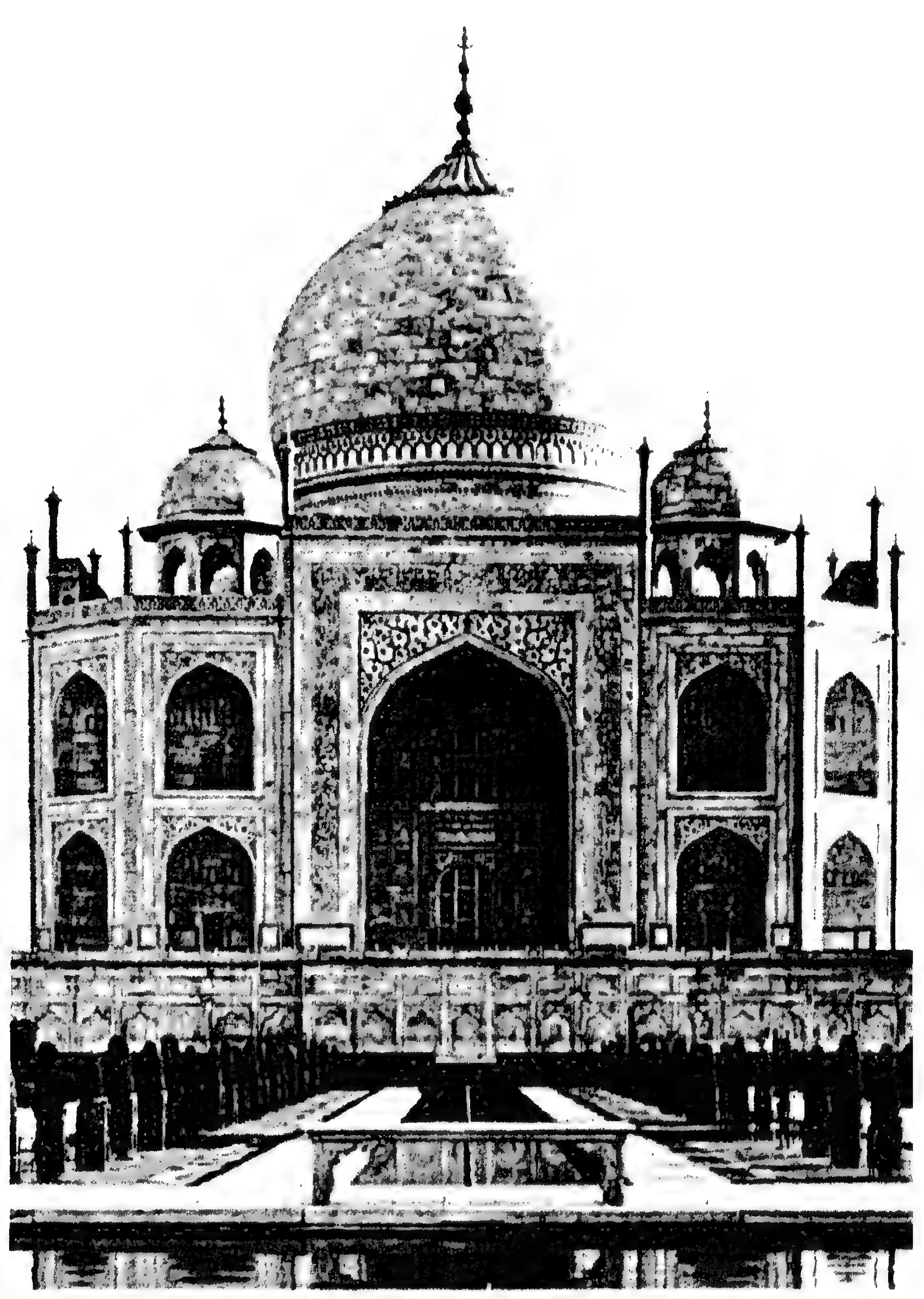
وفي الختام نقول إنّ موضوع المساجد على جانب كبير من الأهمية. وقد أردنا من وراء هذا الكتاب أن نلفت النظر إلى مشهد شائع من مشاهد الجمال عندنا. ونأمل أن تكون هذه الصفحات قد جاءت رحلة في عالم الإيمان والفن في دنيا الحجر والخشب، ونتمنى أن تكون قد تركت الوقع الحسن في العقول والنفوس، وسلام رب المساجد إلى كل ساجد.

أهم المصادر والمراجع المعتمدة

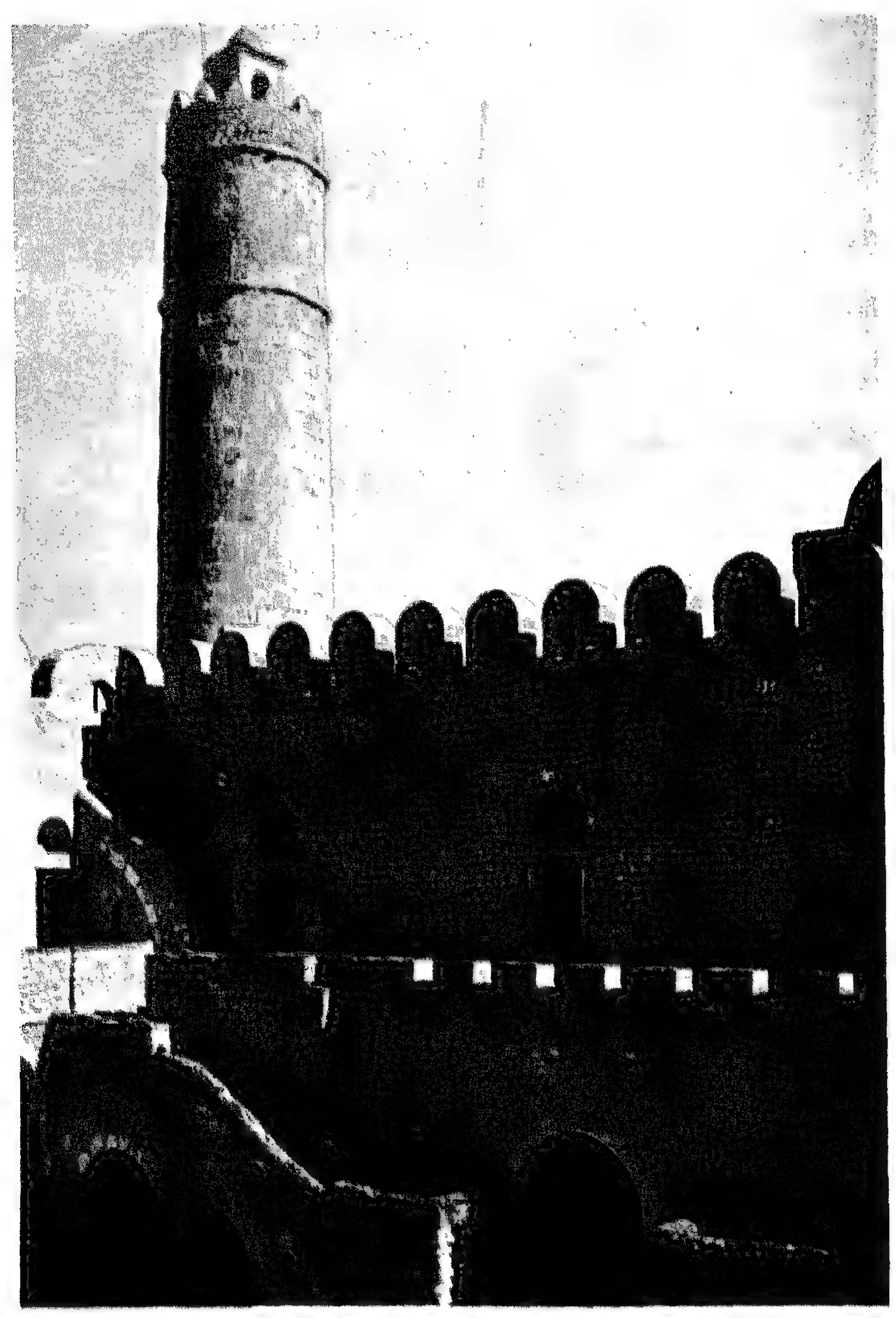
- ابن جبير، رحلة، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).
- الولي، الشيخ طه، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، ١٤٠٩هـ (١٩٨٨م).
- غالب، عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، جرّوس برس، ١٤٠٨هـ (١٩٨٧م).
- مؤنس، حسين، المساجد، مجلة عالم المعرفة، يناير (كانون الثاني)، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).
- مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد العاشر، العدد الثاني، يوليو أغسطس سبتمبر، ١٩٧٩م.
- Marçais, Georges, Manuel D'art Musulman, t.1 et 2, Ed. Auguste Picard, Paris, 1926.
- Papadopoulo, A, L'Islam et l'Art Musulman, Ed. Mazenod, Paris, 1976.



مشهد، مسجد جوهر شاد، المئذنة (١٤١٨ م)



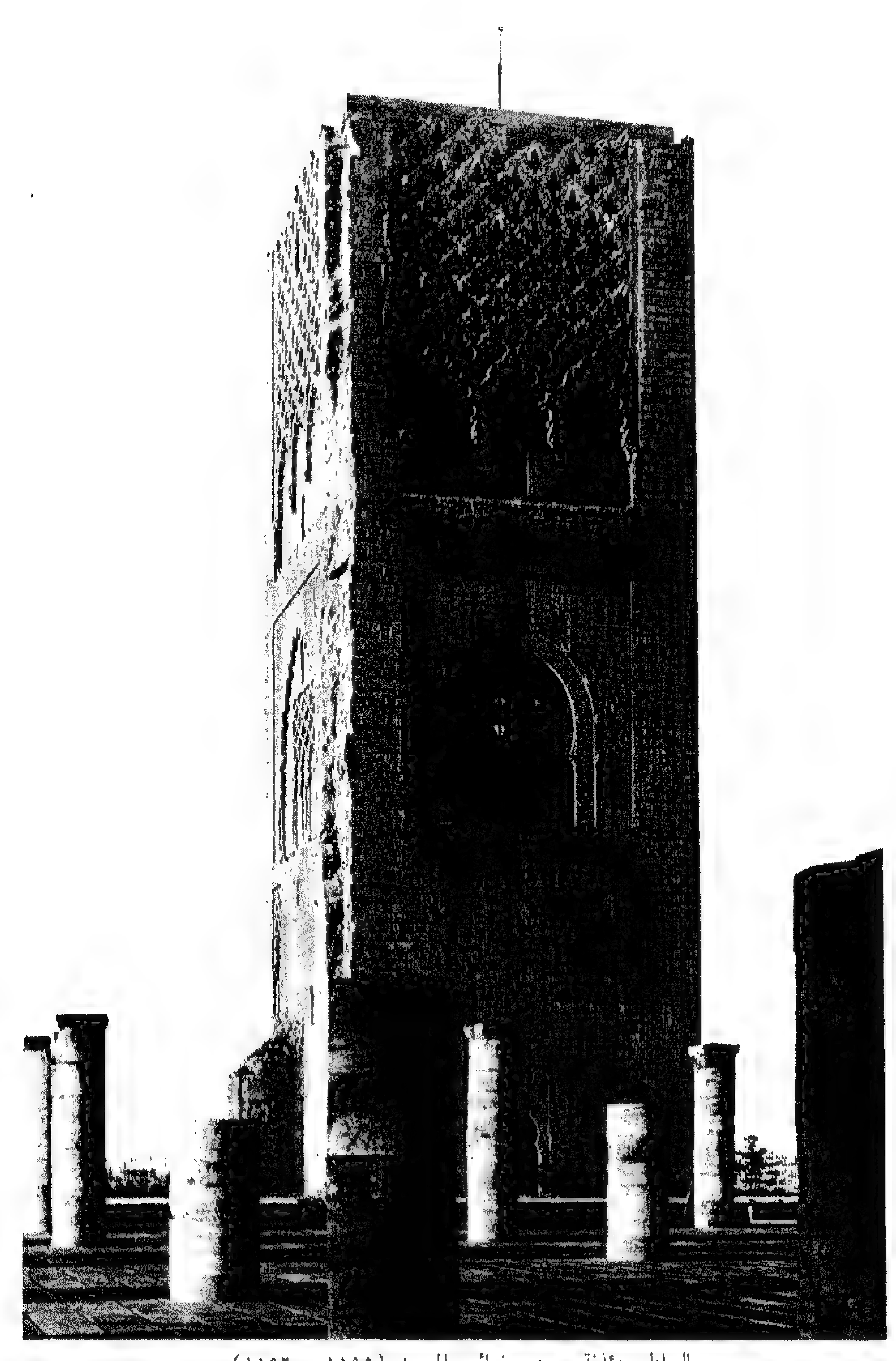
دلهي، ضريح همايون



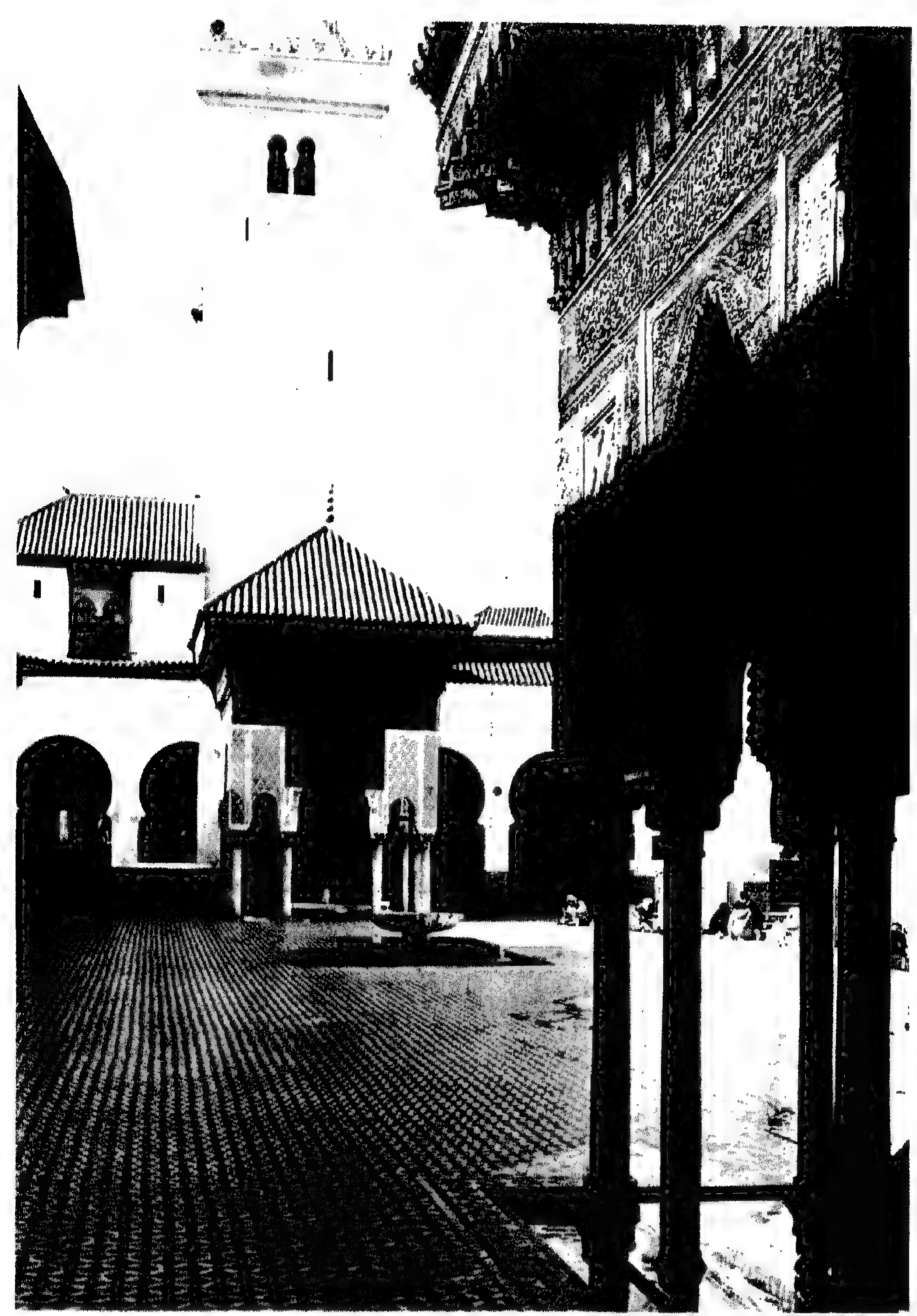
رباط سوسه، الفناء والسور (القرن الثالث للهجرة)



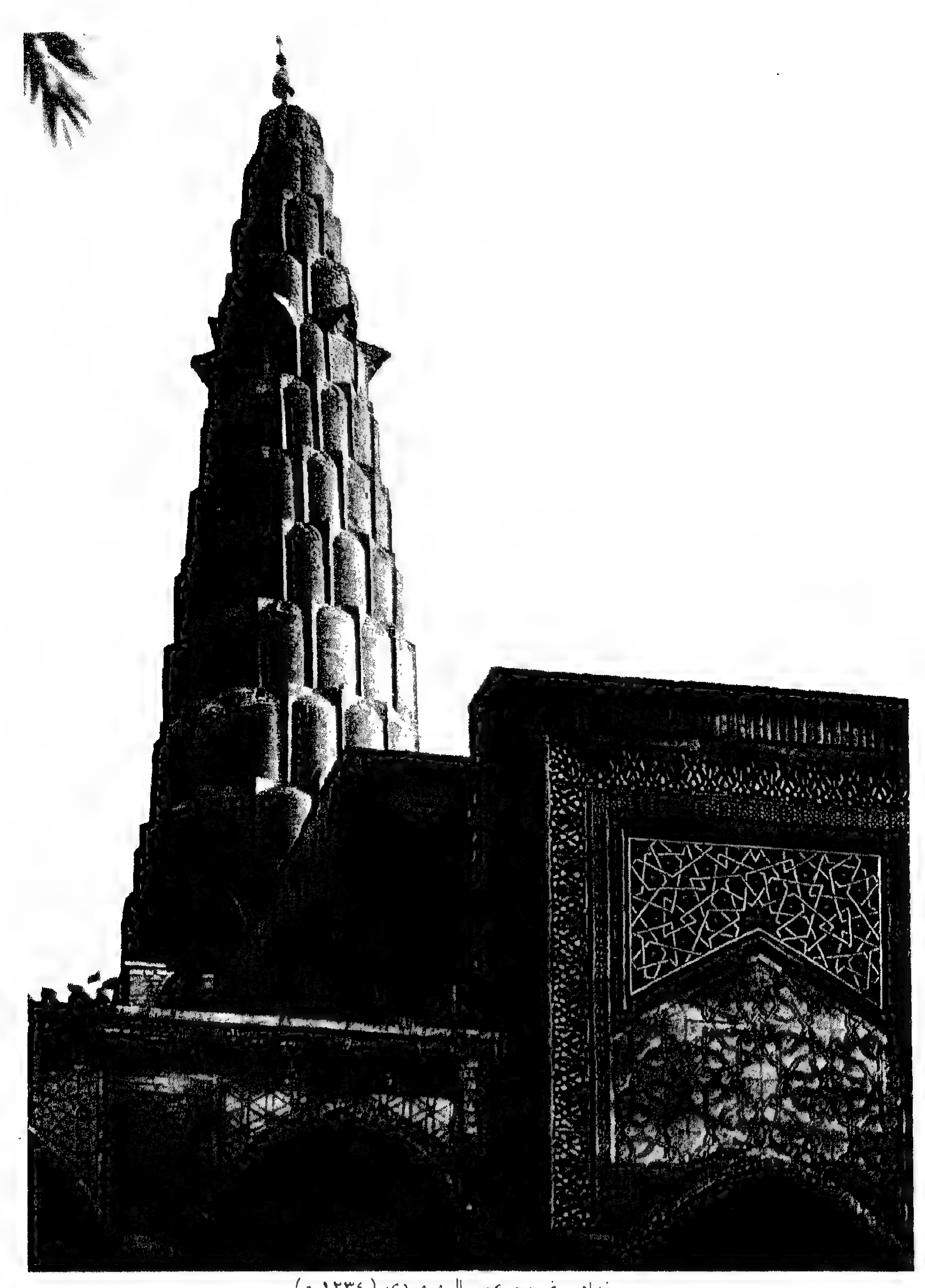
الجعفرية في سرقسطة، محراب المسجد (النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة)



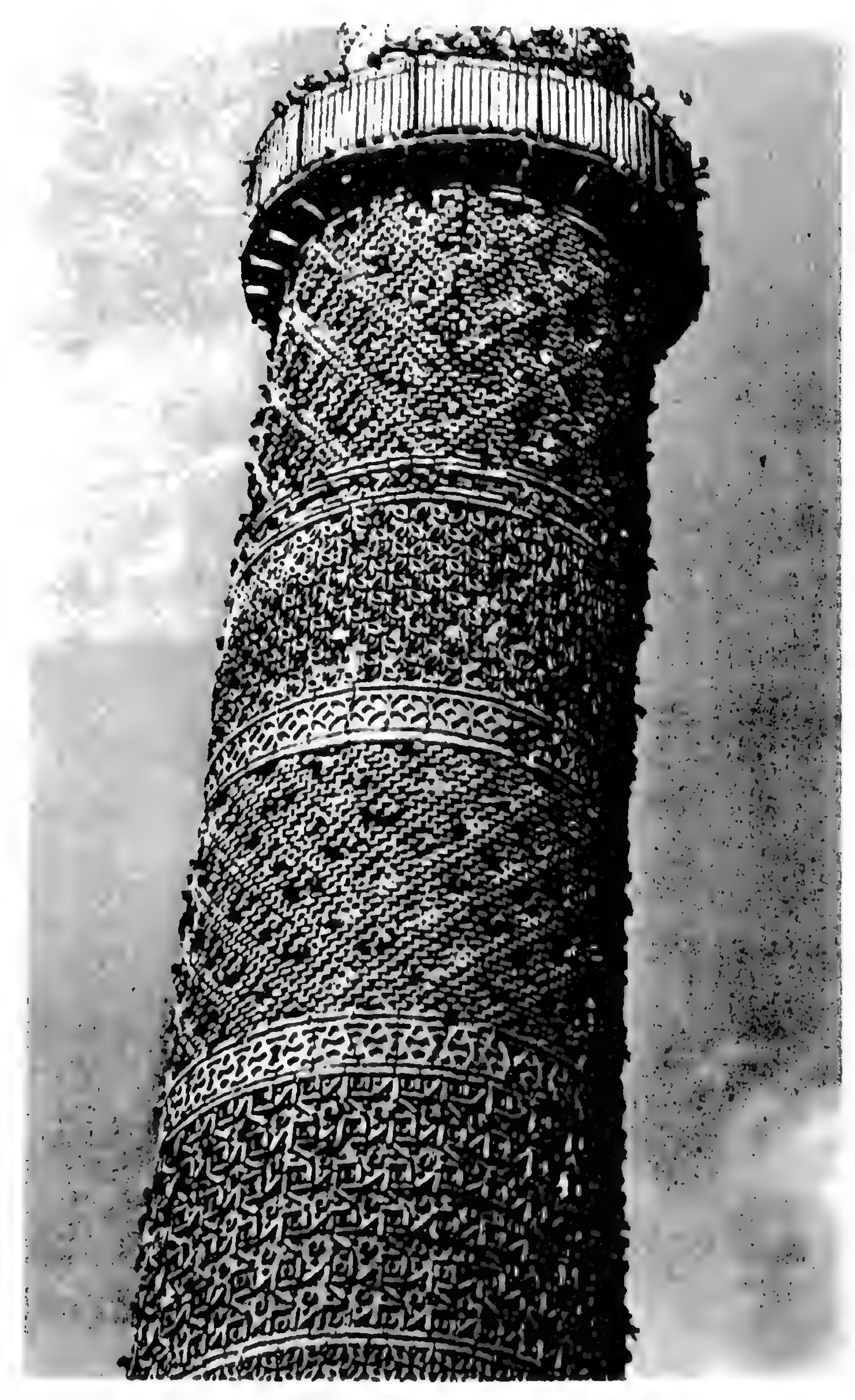
الرباط، مئذنة حسن وخرائب المسجد (١١٩٥ - ١١٩٦)



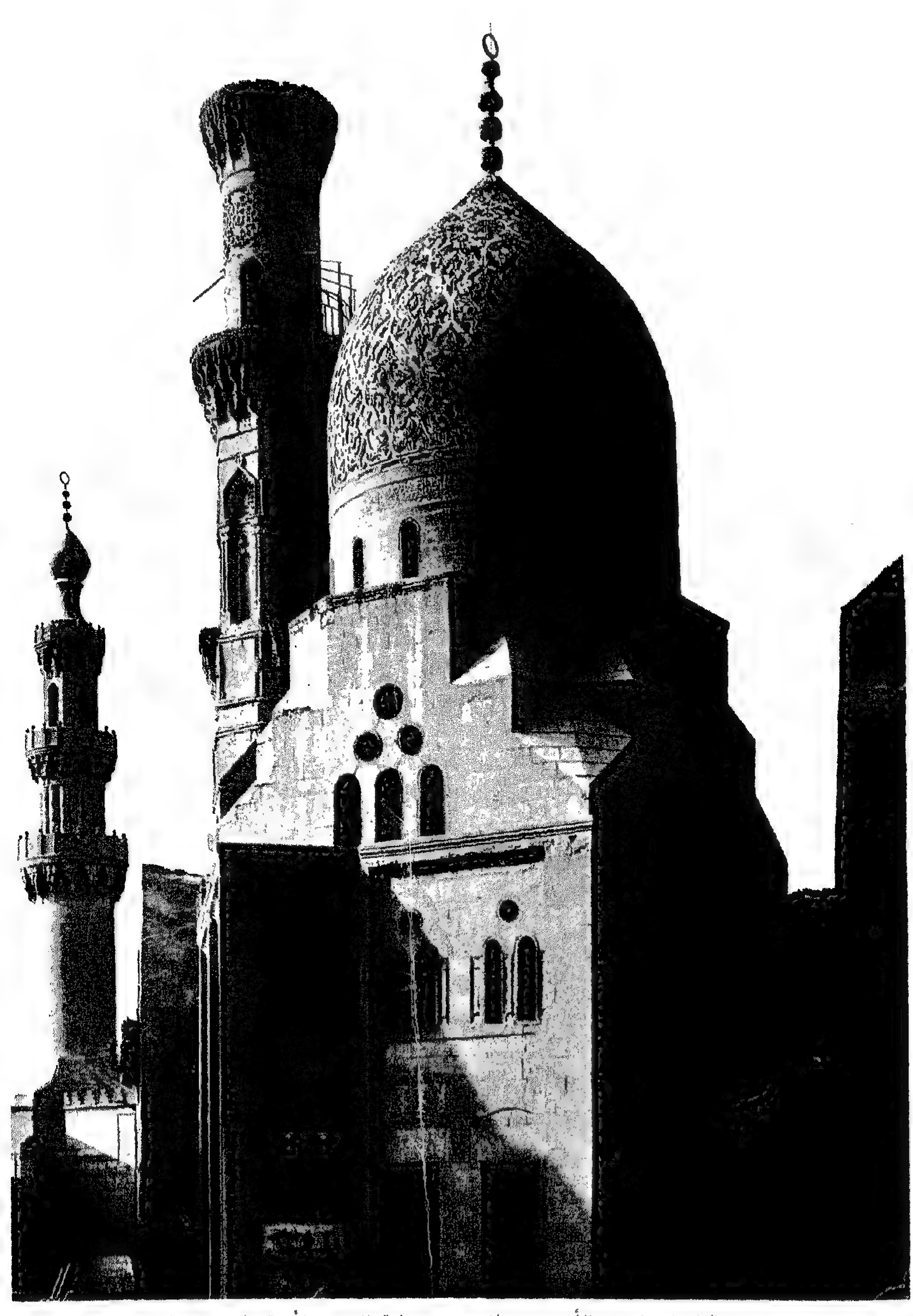
مسجد القرويين في فاس، الصحن والمئذنة (١١٣٥ - ١١٤٣ م)



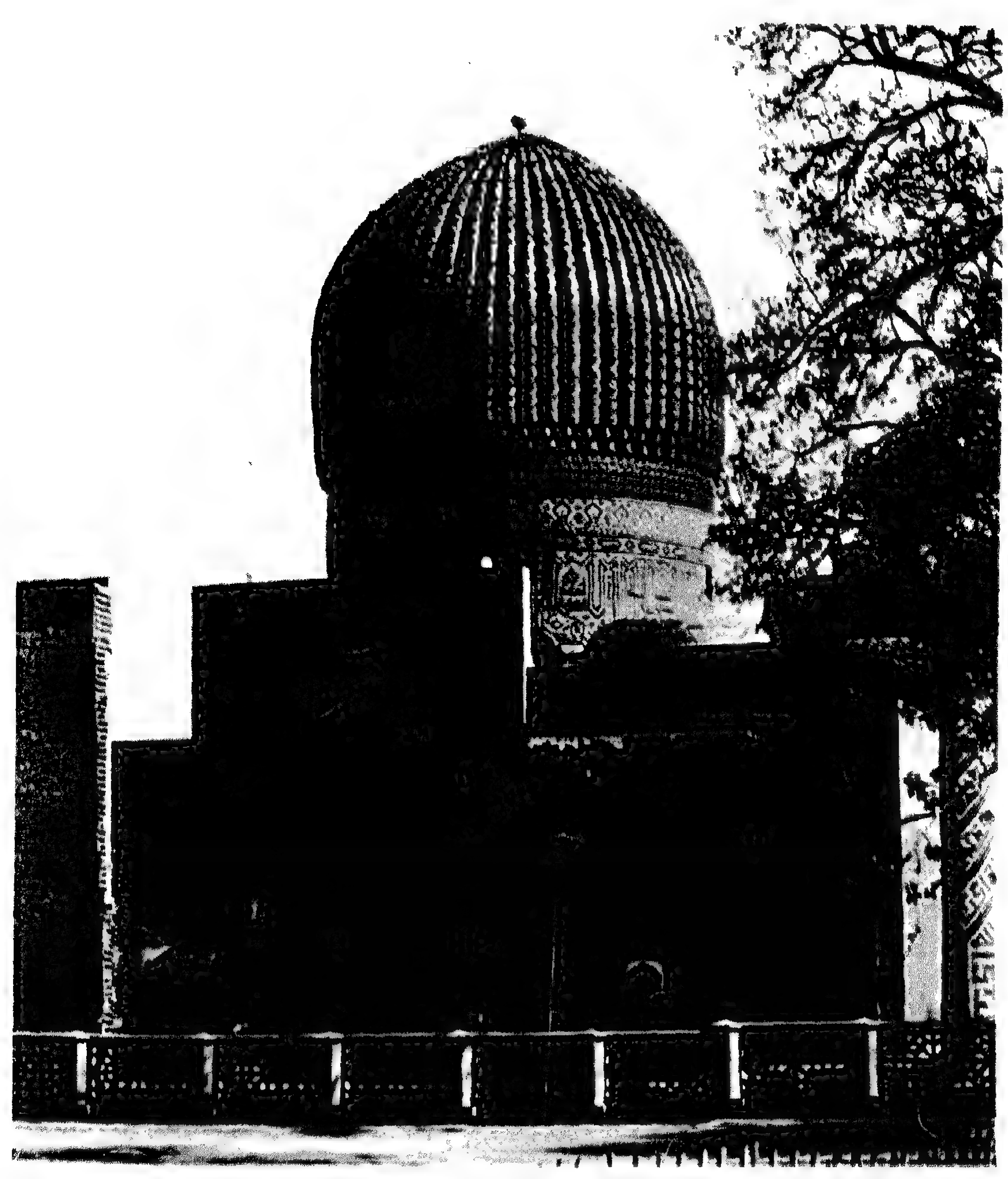
بغداد. ضريح عمر السهروردي (١٢٣٤ م)



الموصل، مسجد النوري الجامع المئذنة الملونة (١١٧٢ م)



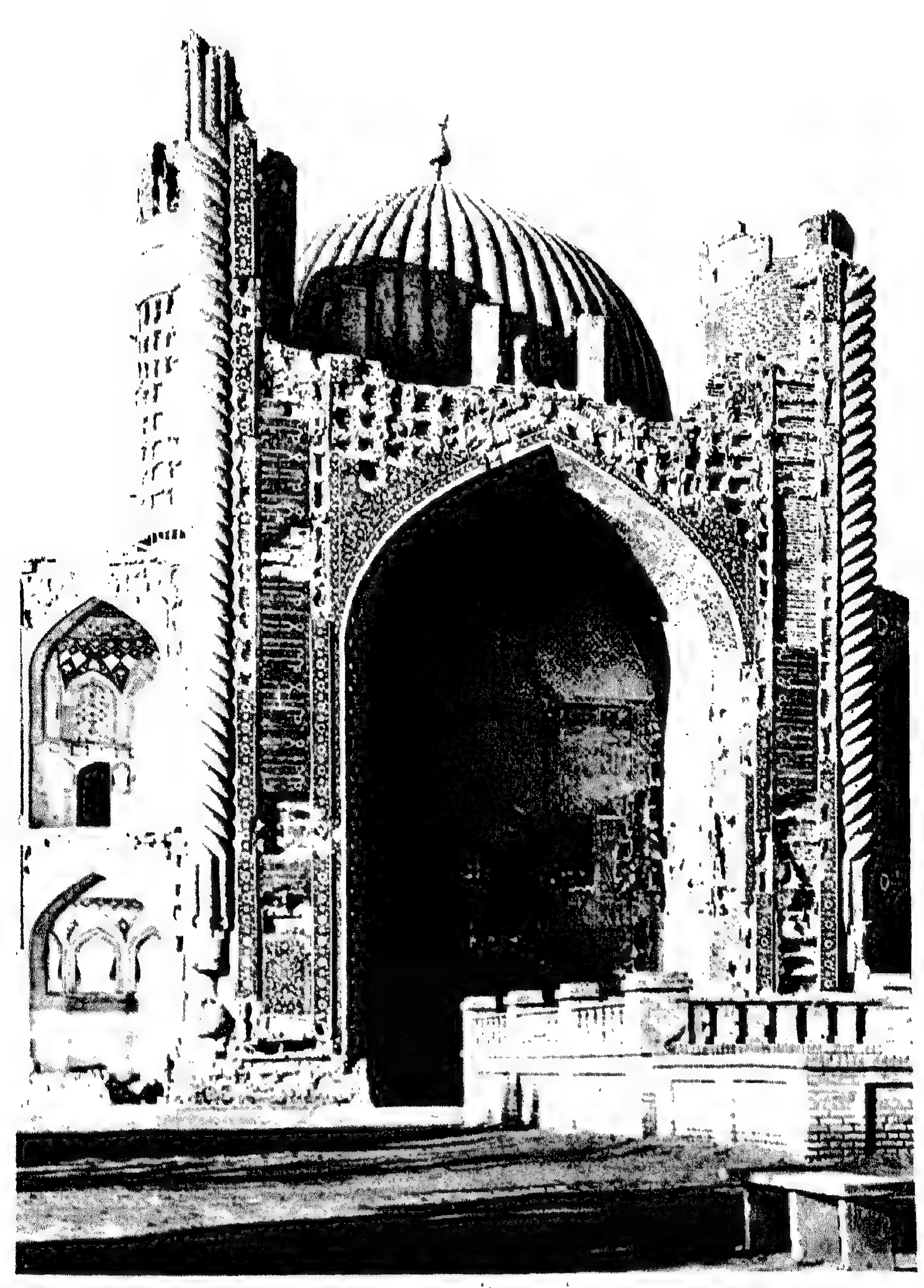
القاهرة، ضريح الأمير خير بك وتبدو مئذنة المسجد الأزرق (١٥٠٢ م)



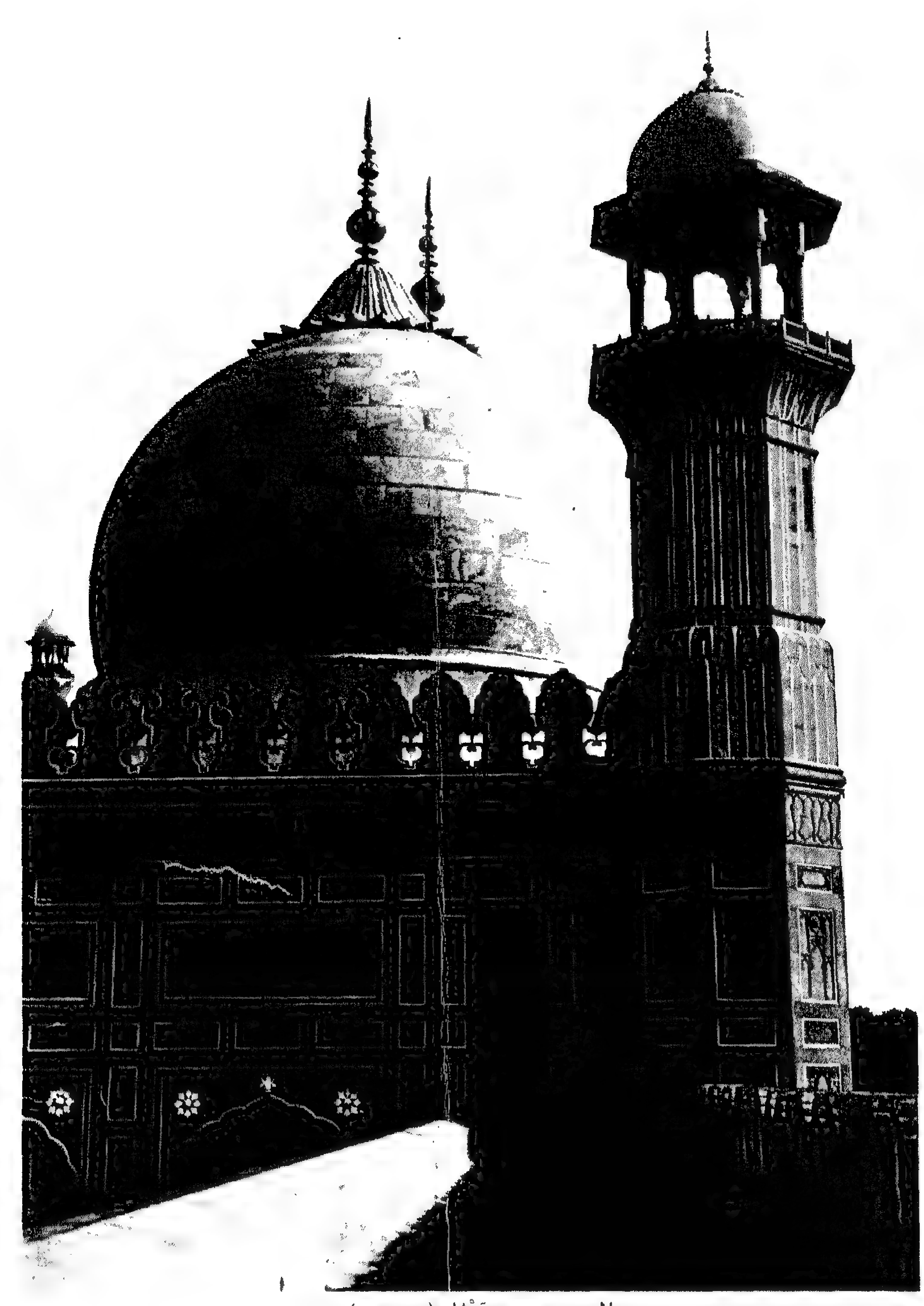
سمرقند. ضريح تيمورلنك (١٤٠٤ - ١٤٠٥ م)



هراة، مسجد الجمعة، الواجهة الرئيسية (أواخر القرن الخامس عشر)



بلخ، مسجد أبو نصر (أواخر القرن الخامس عشر)



لاهور، مسجد بَدْشاه (١٦٧٤ م)



اسطنبول: المسجد الأزرق (السلطان أحمد) قاعة الصلاة (١٦٠٩ - ١٦١٦ م)

محتوى الكتاب